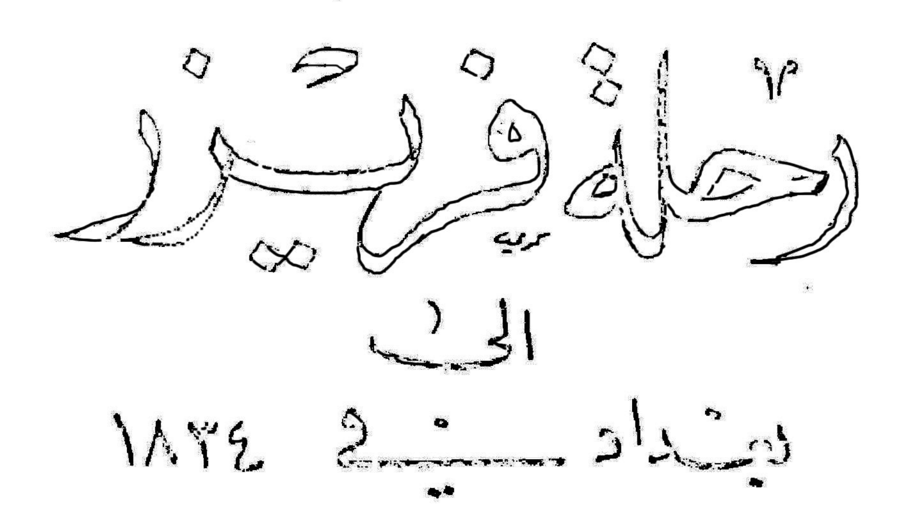
طبع بمساعدة من المجمع العلمي العراقي



كتبها

جيمس بيلي فريزر

نقلها الى العربية وعلق عليها

جعفر الخياط
مدير التعليم المهني العام

(الطبعة الاولى)

الحقوق محفوظة

مطبعة المعارف ـ بغداد
١٩٦٤/٨/٣٠

بغداد كما ترى من منطقة المجيدية - ١٨٢٧

مقدمة المترجم

« •• ولم يهتم بالبلاد الواقعة في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط سوى حكومات أورية الجنوبية البحرية ، لان هذه البلاد كانت مصدرا مباشرا أو طريقا لمصادر الحرير والتوابل والابازير التي كانوا يحصلون عليها بمبادلة البضائع من سورية ومصر • ومن جراء هذه الحاجات كانت السفرات البحرية لدياز ودوغاما قد عجلت الاهتمام بالبلاد الهندية وما جاورها • فمخرت أساطيل البرتغال عباب البحار الهندية قبل انتهاء القرن الخامس عشر ، وشيدت في الخليج العربي قلعة هرمز العظيمة في ١٥٩٧ (٩١٣هـ) • وكان تجار البندقية وجنوة يسلكون باستمرار الطريق البري الذي هو بمقام جسر أرضي يربط البحر الابيض المتوسط بالسواحل الايرانية • وكانوا في طريقهم هذه ينزلون في خانات بغداد أو « بابل » ويشاهدون النجف أو يتلبثون أيام مرورهم في الزبير •

وهكذا بقي ذكر العراق خاملا في العالم من قبل أن يعود به ، فيجعله قبلة الانظار من جديد ، ظهور الصفويين الذين كانت شهرتهم آخذة بالنمو ، ومن قبل فتوحات سلطان الترك الشرقية ، وتوسع تجارة الامم الغربية ومغامراتها • • »

هذا ما كتبه المستر لونكريك في (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ليأتي به على وصف علاقة العراق بالعالم الخارجي في تلك الايام التي وقع فيها فريسة في أيدي الفاتحين من المغول والتركمان • وقد تطورت تلك العلاقة بعد ذلك فازداد اتصال البرتغاليين بالبصرة وخليجها بعد أن ثبتوا أقدامهم في هرمز • وكانت النهضة الحديثة في أوربة يومذاك قد دب فيها دبيب الحياة ، وراحت أساطيل الامم الكبيرة تتجه في أبحارها نحو الهند والبلاد المجاورة لها • فظهر الهولانديون والانكليز في موانئ

الخليج العربى ، وأسس الانكليز شركة الهند الشرقية ، وحمي وطيس المنافسة بين هذه الدول الثلاث حتى وصل الى الاشتباك والتصادم • فاحتل الانكليز حصن قشم البرتغالى المنيع فى كانون الثانى ١٦٢٢ ، وساعدوا الايرانيين باسطولهم فى الاستيلاء على هرمز بعد عدة أشهر •

ومع أن هذا الحدث كان يعتبر ضربة قاصمة على النفوذ البرتغالى فى تلك الجهات فقد ظلت المنافسة قائمة على قدم وساق حتى استطاع البريطانيون القضاء على قوة البرتغاليين البحرية فى ١٦٨٩ • وعند ذاك ظلت المنافسة منحصرة بين الانكليز والهولانديين ، فأظهر الهولانديون مهارة فى التجارة بأساليب غير محمودة ، ولكنها غير عنيفة • اذ أخذوا يهاجمون الاسواق بكل سلاح الرشوة والدعاية الزائفة أو المضاربة المغرية • ومع هذا فقد صمد الانكليز لكل ذلك فكان التوفيق حليفهم فى النهاية • وخلا لهم الجو فأصبحت لهم سيطرة مطلقة على المنطقة الممتدة من الهند الى الخليج ، ثم الى داخلية العراق • وقد تعاظم نفوذهم فى أيام الباشوات المتأخرين من المماليك فى العراق ومن أتى بعدهم بحيث راحوا يتدخلون فى كثير من شؤون العراق الداخلية ، ويسخرون نفوذهم السياسى فى ابقاء هذا الباشا أو ذاك متربعا على دست الحكم فيه •

ويقول لونگريك فى هذا الشأن « أما فى داخل العراق فان انتقال البلاد من حالة القرون الوسطى الى حالة دولية حديثة قد زاد فى اتصاله وتعاونه مع الممثلين الاجانب • فقد كانت المشاريع البريطانية من جهة تقوم بخدمات جليلة للعراق من دون أن تطلب شيئا فى مقابل ذلك سوى تأمين توسع التجارة البريطانية • وكان حكام العراق المتعصبون من جهة اخرى مستائين من وجود هؤلاء الاجانب وامتيازاتهم ، وصداقاتهم للقبائل ، لكنهم لم يقووا على منع كل ذلك • فان كبيرهم « المقيم » كان بوسعه أن يحطم كل شخص بكلمة واحدة تصدر منه الى استانبول •• وبينا كان القنصل

ـ التاجر فى القرن الثامن عشر غير قادر على طلب شيء سوى دوام «الامتيازات» وتركه حرا دون تعرض له أصبح مقيم القرن التاسع عشر وهو المتكلم نيابة عن شركات البواخر ، وهيئات انشاء التلغراف ، والاثريين ، ومؤسسات الهبات الخيرية • ولم تفتأ بعض استنجادات القبائل بالحماية البريطانية تزعج الباشا أشد الازعاج •• »

على أن نشاط التغلغل البريطانى هنا فى بداية القرن التاسع عشر كان يتأثر الى حد كبير بالمنافسة التى كانت موجودة بين بريطانية وفرنسة النابوليونية فى الشرق الاوسط جميعه • وقد ظلت بريطانية على وضعها هذا حتى استطاعت القضاء على نابوليون أيضا ، وتخلصت من شر الخطط التى وضعها لتهديد مركزها فى الهند وما جاورها • وفى حوالى ١٨٣٠ تبدأ المنافسة البريطانية الروسية فى هذه الجهات من العالم ، وتمتد الى نهاية القرن تقريبا ، لتحل محلها بعد ذلك المنافسة الانكليزية الالمانية •

وفى خلال هذه المراحل والادوار كلها كثر اتصال العراق بالعالم الخارجى وتعددت أوجهه ، وصار الكثيرون من الاوربيين يقصدون هذه البلاد أو يمرون بها ، ويتجولون فى أرجائها • أو يقيمون فيها مدة تقل أو تزيد تبعا لنوع العمل الذى يأتون من أجله أو المهمة التى يندبون لها • وقد عمد الكثيرون من هؤلاء الى كتابة مذكرات أو يوميات عن رحلاتهم وسفاراتهم هذه ، فكان بعضها مهما وبعضها الآخر تافها لا قيمة له •فتوفرت من ذلك كله ثروة تاريخية غير يسيرة ، لها قيمتها فى توضيح الحوادث التى كانت تقع فى شتى الادوار التى مرت بها هذه البلاد ولا سيما فى « عصورها المظلمة » ، على ما فيها من تحيز وتحامل فى بعض الاحيان •

ولو أردنا أن نحصر الغايات والاغراض التى كان أولئك السياح المسافرون يقصدون هذه البلاد من أجلها فى تلك الايام نجد أنها لا تخرج

عن النقاط التالية : التبشير ، التنقيبات الاثرية ، السياحة والمغامرة ، الاغراض التجارية ، التمثيل السياسي ، والانتداب لاغراض فنية أو عسكرية أو طبية ، هذا فضلا عن المرور من هذه البلاد الواقعة بين القارات وخاصة في الطريق الى الهند وايران • ولذلك فقد أورد لونكريك وحده في قائمة مراجعه عن العراق للفترة ما بين **١٥٥٣** و **١٩١٤** أسماء لثماني وتسعين رحلة وتقرير ومقالة مسهبة ، وكلها تصف العراق وأوجه الحياة فيه بطريقة أو اخرى • أما أصحاب هذه الرحلات فهم بين برتغالي وفرنسي ، وهولاندي وألماني ، وايطالي وانكليزي ، وأرمني وهندي ، بالاضافة الى أربعة من الاتراك • غير أن قسما كبيرا من اولئك هم من الانكليز بلا شك •

ومن جملة السياح الانكليز هؤلاء ، أو الرحالين ، صاحب هذه الرحلة المستر جيمس بيلي فريزر ، الذي كتبها بجزءين وسماها «رحلات في كردستان وبين النهرين» [١] • وهو رجل مهنته الكتابة ، وقد قام برحلته في عام **١٨٣٤** ، فسافر من استانبول الى ايران بمهمة ديپلوماسية وقطع المسافة على ظهور الخيل ثم تجول فيها حتى حط الرحال في تبريز • وأخذ يكتب منها الى زوجته على ما يظهر رسائل متتالية فيها شيء غير يسير من التفصيل عن كل ما يرى في طريقه أو يفكر فيه • وتبدأ الرحلة المطبوعة هذه بالرسالة الاولى من تبريز ، التي أرخها في ٤ تشرين الاول **١٨٣٤** • فيتطرق في رسائله الخمس الاولى الى وصف الحالة في تبريز وكردستان الايرانية كلها وخاصة منطقة أردلان • وبالنظر لان هذه المناطق تقع في ايران فقد ضربت صفحا عنها ولم أقم بترجمتها لانها

---

(١) J. Baillie Fraser, Travels in Koordistan & Mesopotamia, (Richard Bentley, New Burlington st. London 1840).

لا تمت بصلة قوية الى تاريخ هذه البلاد • لكنني وجدت من المناسب ، بل من الضروري ، أن أقوم بترجمة قسم كبير من رسالته الثالثة (المؤرخة في ١٧ تشرين الاول ١٨٣٤) لانه يتطرق فيها عرضا الى شؤون رواندوز وميرها محمد باشا الاعور « كور محمد باشا » ، التي تعد جزءاً مهما من تاريخ الاصقاع الشمالية من العراق نفسه • وقد أهملت كذلك قسما غير يسير من الرسالة الخامسة عشرة (الاخيرة) المطبوعة في الجزء الاول لانها تتطرق في بحثها الى عشائر عربية تدخل في داخل الحدود التركية أولا ، ولان البحث المتروك يعد شيئا تافها لا قيمة تاريخية له •

أما الرسائل الاخرى التي يحويها الجزء الاول من الرحلة ، أي الرسالة السادسةالىالخامسة عشرة، فهيالتيتؤلف مجموعهذا الكتابالذي أطلقت عليه تجوزا أسم (رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤) • ولهذه الرسائل ، عدا ما فيها من طرافة ، أهمية تاريخية غير يسيرة • لانها تجلو لنا كثيرا من مراحل التاريخ العراقي في أواخر أيام داود باشا أو أوائل العهد الجديد الذي دخل فيه العراق ، بعد أن تعاونت الاقدار وجيوش السلطان في القضاء على باشوات المماليك وعهدهم ووضعت حدا لاستقلالهم في الحكم عن الباب العالي في استانبول •

فهي تصف مير رواندوز كور محمد باشا وصفا طريفا وتتطرق الى فتوحاته وطريقة حكمه ، وتصف ما آلت اليه الحالة في السليمانية من فقر وخراب بسبب الخلافات العائلية والطاعون ، كما تصف مؤامرات داود باشا ، والطاعون الكبير الذي أتى على ثلثي سكان بغداد في أيامه ، والغرق ، والخراب الذي حل بالبلاد في أثر ذلك • ثم تتطرق الى استيلاء علي رضا باشا على بغداد وقضائه على بقايا المماليك ، وطريقته في الحكم مع سياسته العشائرية • وفي الرسائل معلومات مفيدة عن عشائر جربا وعنزه

وعقيل وزبيد واستفحال أمرها مع تهديدها لبغداد نفسها ، ووصف طريف لبغداد بعد خرابها ، ولمجتمع بغداد ومحلاتها وطبقات السكان فيها ، مع العادات والازياء والملابس • هذا وقد علقت على كل ذلك ما أمكن التعليق توضيحا للحقائق وربطاً لها بالحوادث التاريخية العامة على قدر الامكان •

أما الجزء الثاني من الرحلة ففيه تسع عشرة رسالة أيضا ، وهي تتناول سفرات أُجريت الى سلوقية وطاق كسرى ، ثم الى آثار بابل والحلة وما جاورهما ، والى مخيم زبيد وبعض العشائر الاخرى ، والى المنتفك وسوق الشيوخ وما حولها • ويلاحظ من هذه الرسائل ان صاحب الرحلة يعود الى بغداد ثم يغادرها متوجها الى ايران ثانية عن طريق ديالى التي يكتب عنها شيئا أيضا • ولم يسمح لي المجال مع الاسف أن أقوم بترجمتها• ولعلي أوفق الى ذلك في المستقبل •

ولابد من الاشارة هنا الى أن صاحب الرحلة يجنح في رسائله هذه الى التحامل على العرب والاكراد معا بعض التحامل ، ويصمهم بوصمات ونعوت قد لا تكون مناسبة ، وخاصة العشائر منهم • وذلك في معرض التكلم عن أخطار الطريق وتعرض السياح والمسافرين الى السلب والنهب وفرض الاتاوة عليهم • واني أعتقد ان هذا شيء لا يمكن أن يكون غير منتظر بالنسبة لاوضاع البلاد وأحوال سكانها في تلك الايام من جهة ، ولعقلية الاوربيين واستغرابهم مما يصادفونه في البلاد الغريبة عنهم من جهة اخرى • على أنني مع كل ذلك أؤاخذه فيما يصدره فيها من أحكام عامة في بعض الاحيان من دون أن تستند الا الى حوادث فردية أو وقائع شاذة لا يمكن أن تتخذ مقياسا تقاس به الامور بصورة عامة • ولا شك أن القارىء الكريم سيلتفت الى ذلك •

وقبل ان أختم هذه الكلمة أود أن أشير الى أن صاحب الرحلة

المستر فريزر ملم باللغة الفارسية على ما يبدو من كتاباته ، وله كتب عن ايران منها « القزلباش » و «رحلة شتوية الى ايران » [1] عدا كتابه الآخر عن آثار العـراق الموسوم « ما بين النهرين وآشـور » [2] • كما أود أن أسجل أعجابي بأسلوبه الكتابي وسعة اطلاعه وثقافته بوجه عام •

وكان جيمس بيلي فريزر هذا قد ولد في أنفرنيس باسكوتلاندا في ١٧٨٣ وتوفي في ريليك في كانون الثاني سنة ١٨٥٦ • ومما عرف عنه في أيامه انه كان سائحا ومؤلفا ، وقد ذهب الى الهند في أول أدوار حياته، وفي ١٨١٥ ارتاد جبال الهيمالايا ودرس الكثير من أحوالها • وحينما عاد الى لندن بعد ذلك عُين [3] لمرافقة الاميرين الايرانيين اللذين كانا منفيين في انكلترة ، رضا قلي مرزا ونجف قلي مرزا ، وعاد معهما حتى أوصلهما الى استانبول • وفي ١٨٢٣ تزوج ابنة اللورد وودهاوسلي ، وهي زوجته التي ظل يبعث اليهـا برسائله التي يؤلف قسم منها قوام هذه الرحلة • وكانت بعض الملاحظات الفلكية والجغرافية التي دونها في رحلاته وأسفاره ذات فائدة جلى في رسم خرائط البلاد الآسيوية •

وأرى لزاما عليّ هنا أن أشكر الاستاذ كوركيس عواد مدير مكتبة الآثار للتسهيلات التي أبداهـا لي في مراجعـة الكتاب الاصـلي باللغـة الانكليزية •

هذا وأرجو ، بعد أن انتهيت من ترجمة هذه الرحلة الطريفة ، أن أكون قد قمت بقسط يسير من الواجب المترتب عليّ في خدمة العراق والتاريخ • ومن الله العون والتوفيق •

بغداد : ١٢ محرم الحرام ١٣٨٤ ـ ٢٤ أيار ١٩٦٤ **جعفر الخياط**

---

(١) A Winter Journey to. Persia,

(٢) Mesopotamia. and Assyria (N.Y. 1842)

(٣) دائرة المعارف البريطانية •

١

.. الوصول الى أرومية ـ العشائر الكردية وعيشها ـ البلباس ـ مير رواندوز ـ رحلة الدكتور روص الى المير ـ مقارنة بين القرى التركية والكردية ـ دمدم مقر المير الكبير (الاب) ـ أخلاق الناس ـ لباسهم وازياؤهم ـ عاداتهم ـ عمى المير الكبير ـ اخوان المير ـ الخرافات ـ عدم اقراء الضيف ـ الوحشية والشجاعة ـ قوانين المير وعدالته ـ العقوبات الصارمة ـ الجيش في الميدان ـ الاستيلاء على عقرة ـ اخضاع العمادية ـ ذهاب الدكتور روص الى معسكر المير ـ مواجهته للمير والتحدث معه ـ معسكر المير ـ عودة الدكتور روص ـ شخصية المير وأخلاقه ـ محاولاتي للاتصال به ـ عدم توفقي في ذلك ـ توجهي الى بغداد عن طريق السليمانية •

أرومية ١٧ تشرين الاول ١٨٣٤

ان سفرة ثلاثة أيام يا عزيزتي ———— من القرية التي حررت فيها رسالتي السابقة اليك قد أوصلتني الى هذا المكان الجميل ، العريق في القدم ، الذي يعتبر مسقط رأس زرادشت المشهور • اذ يقع طريقنا من طسوج الى هنا في منطقة سلماس وسهلها ، وهي من أجمل المناطق في أذربايجان •

••• وتسيطر على هذه البلاد في الحقيقة عشائر متوحشة خارجة عن الطوق ، لا يضع حد لتصرفاتها سوى ضعفها النسبي • فالبلباس ، وهم عشيرة كانت قوية الشكيمة كثيرة العدد في يوم من الايام ، يسكنون الجبال والسهول المحيطة بباليك ولا هيجان التي لا تبعد كثيرا عن أرومية نفسها، وهم بين حين وآخر يسلون أنفسهم بالانقضاض[1] على جهات سولدوز

(١) جاء في كتاب دوحة الوزراء لمؤلفه رسول حاوي الكركوكي ، عن وقائع عام ١٢١٧ للهجرة ما يلي : « ان عشيرة البلباس القاطنة بين الحدودين في لاهيجان وأشنو وكوهية كانت تقوم بالاعتداء باستمرار على سوج بولاق ومراغة وأرومية الايرانية ، الامر الذى كان يضر بمصالح الدولتين • وبناء على الشكوى الواردة عن هذه التعديات فقد أرسل والي بغداد المرحوم علي باشا متصرف السليمانية ابراهيم باشا لتأديب هذه العشيرة • وقد قام بمهاجمة قسم من العشائر الموجودة في أربيل وردهم • »

وسردشت المجاورة ، وحتى على سوج بولاق فى بعض الاحيان • وهناك كذلك الروان والهركية والنوچية ، وعشائر كثيرة اخرى ميالة هى أيضا الى أن تسلى نفسها على هذه الشاكلة • ومن حسن الحظ أن تنشأ الى الغرب من هذه المنطقة قوة مرهوبة الجانب تستطيع ، على ما فيها من خشونة ، أن تمارس تأثيرا مطوعا على هؤلاء النهابين الشرسين وتجبرهم على الخضوع التام الضرورى ، برغم ما فيه من تعسف ، فتجعل بذلك قسما من البلاد آمنة سالمة يمكن التجول فيها فى حالات معينة •

فلم يكن محمد باشا ، الذى يعرف بمير رواندوز[1] ، قبل سنوات قليلة سوى رئيس مثل سائر الرؤساء الاكراد وقائد يقود محاربى عشيرته التى لم تعرف بغير اسم رواندوز • وقد بدأ سيرته بتنحيــة والده عن رآسة القبيلة بحجة عدم اقتداره فى تدبير شؤونها خلال الايام العصيبة • على أن البعض يقول أن الوالد المتقدم فى السن كان ميالا بطبيعته الى الهدوء والتعبد فطلق العالم ومغرياته ، ووضع ابنه فى منصبه • وبالطريقة نفسها تخلص من بعض أخوته ، فثبت أقدامه بحزم وقــوة وأصبحت له السلطة المطلقة فى موطنه رواندوز • وأخذ بعد ذلك يعمل على تعزيز سطوته وجمع الاتباع استعدادا لمعاركه المقبلة • لكن نهضته الحقيقيـة تبدأ بالحرب التى نشبت بين ايران وروسية حين اضطر الامير المالك الى سحب قواته وتحشيدها تجاه عدو أشد خطرا على البلاد بعد أن كان يهم بسحق المير وتأديبه • فاستغل المير هذه الفرصة ، ولم يسترجع جميـع المناطق التى كان الامير الايرانى قد حرمه منها فحسب بل مد يده أيضا الى الغرب والشمال وتوفق فى ذلك بحيث أصبح الآن مسيطرا على قسم

(١) جاء في الجزء الثاني من كتاب (عشائر العراق الكرديـة) ان محمد باشـا الراوندوزي هو ابن مصطفى بك بن أحمد بك بن أوغوز بك بن أحمد الثاني بن مصطفى بك بن علي بك بن سليمان بك بن الشاه قولى بك مؤسس شقلاوه •

كبير من شمالى ما بين النهرين ، الى جانب الاصقاع الممتدة من أربيل الى كركوك في الجانب الشرقي من دجلة .

والمقول بصورة أكيدة أن ما يقرب من خمسين ألف رجل يقفون الآن تحت تصرفه ، وتدفع للنصف الاحسن من هؤلاء أجورهم بانتظام وهم يعملون بصورة مستديمة لانه لا يزال يستخدمهم في اخضاع المناطق العاصية عليه ، وهكذا تتسع ممتلكاته بسرعة . لكن الجزء المهم من القصة كلها هو التغير الاخلاقي الكبير الذى حصل فيالبلاد التى أخضعها لحكمه. فان البلاد بدلا من أن تحتلها امة من اللصوص الذين لا يستطيعون أن يجدوا مسافرا يمر من دون أن يحاولوا ايقافه وسلبه ، أو الذين يقدمون على ذبح المرء اذا وجدوا بيضة في يده كما يقولون هم أنفسهم ، قد أصبحت خالية من أية سرقة أو سارق . فقد قضى على صنعة اللصوصية من أصلها بعملية بتارة : اذ صار الذى تكتشف بحوزته أشياء تعود للغير يعاقب في نفس المكان الذى يكتشف أمره فيه ، أو يقتل من دون رحمة . وتتوقف العقوبة في هذا الشأن على ظروف الجريمة ، فيعاقب المذنب لاول مرة بسمل واحدة من عينيه أو قطع احدى يديه أو بجذع الانف أحيانا . ثم يعاقب للمرة الثانية بتشويه أشد من هذا القبيل ، أما في المرة الثالثة فأنه يعاقب بالموت على الدوام .

ولا شك أن صرامة هذا القانون تستدعيها الظروف السائدة في البلاد التى يراد ضبطها ، والحالة فيها . فهو قانون رئيس من رؤساء اللصوص ينفذه من دون خوف أو وجل ، ومن دون أن يعفى منه أحد ، لاجل أن يسيطر به على رجال عصابته . وحينما يعلم الجميع بأن أحكام هذا القانون لا استئناف لها ولا تمييز ، وليس هناك رحمة في عدالته ، فانهم لابد أن يرتجفوا ويطيعوا . ولا شك أن أي شيء يقل عن ذلك في صرامته وقسوته لا يمكن أن يكون مؤثرا في هذه الظروف . فكان

لذلك وقع شديد بين الناس بحيث صار كل من في البلاد الخاضعة لحكم المير وسيطرته لا يمس حتى كيس الذهب اذا وجده في الطريق ، وانما يخبر مختار القرية القريبة من الموقع ، وهذا بدوره يكون من واجبه أن يبعث من يحضره له فيحفظه عنده حتى يتم تسليمه الى صاحبه الشرعي ، على أن يخبر المير نفسه بذلك في الوقت نفسه •

ويروى عن المير أنه تناهى اليه ذات يوم أن أحد اخوته المقربين اليه مر راكبا ببستان تعود لرجل فقير واقتطف رمانة منه ، دون أن يترخص من صاحبه • فبعث عليه وواجهه بالتهمة التي لم ينكرها ، ثم سأله عن اليد التي اقتطف بها الرمانة والاصبع الذي قطعها به ، فأمر بقطعه • وتروى عنه قصة اخرى فتذكرنا بقصة مماثلة تؤثر عن نادرشاه الذي لا يقل عنه المير صرامة وقسوة • فقد وجدت جثة رجل على قارعة الطريق بالقرب من احدى القرى ، وقد شوهتها الذئاب وبنات آوى ومزقتها شر ممزق • فوصل خبرها الى المير نفسه ، وأمر باجراء التحريات المعتادة جميعها لكن القتلة لم يتوصل أحد الى معرفتهم • وحينما سئل القرويون عن جلية الامر ألقوا اللوم على ذئاب الغابة المجاورة التي سبق أن التهمت القسم الاكبر من الجثة • فأمر المير باحضار الذئاب ، وعند ذاك خرجت القرية كلها للقبض على الذئاب لان سكانها كانوا على علم بالعاقبة الوخيمة التي تنتظرهم فيما لو عجزوا عن ذلك • وحينما جيء ببعض الذئاب الى الرجل العظيم أمر بتعذيبها وقتلها قتلا فظيعا أخذت ترتجف لهوله أوصال القرويين الذين شاهدوها ، حتى أجهدوا أنفسهم في اكتشاف القتلة وتسليمهم الى العدالة لانقاذ أنفسهم من المصير المرعب الذي كان يدل عليه ما حدث للذئاب المسكينة • وهذه القصة وأن تكن بعيدة الوقوع ، فانها تدل على الضوء الذي يجب أن ينظر فيه الى أعمال هذا الرجل •

ولاجل أن يتسنى لي وصف أميركتب له على ما يظهر أن يؤثر تأثيرا مهما فى جزء كبير من هذه البلاد الطريفة جدا أرانى مضطرا للانتفاع ببعض النبذ المستمدة من يوميات الدكتور روص طبيب المقيمة البريطانية ببغداد الذى أسعفه الحظ فتسنى له أن يقوم برحلة فى هذه البلاد المخطرة بدعوة من المير نفسه • فان المير مصطفى والد مير رواندوز كان رجلا أعمى على ما يبدو ، وبأمل أن يرد بصره اليه اتصل المير بالكولونيل تايلور (المقيم) ورجاه بان يوفد له طبيبا انكليزياً يجرب فيه ما عنده من مهارة • فاغتنم الكولونيل تايلور هذه الفرصة لتنمية العلاقات مع هذا الرجل العجيب فى الحال ، وكلف الدكتور روص بهذه المهمة الطريفة • فتوجه الى بلاد المير فى قافلة يرأسها عمه بايزيد بك الذى كان قد ارسل الى بغداد للاتصال بالمقيم البريطانى حول القضية •

على أنه من الضرورى ان أخبركم أولا بأن المير ، علاوة على جميع فتوحاته فيما بين النهرين والقسم الاسفل من بلاد آشور ، كان فى ذلك الوقت قد امتدت يده الى بلاد العمادية ، الخصبة الواسعة على كونها جبلية وعرة ، التى تقع فى شمال غرب رواندوز وشمالى الموصل أيضا • وقد كانت هذه الدويلة ، أو الباشوية لانها كانت فى حكم أحد الباشوات ، موضع ثناء الجميع ومدحهم لخصبها وجمالها ولكثافة السكان فيها • فقد أجمع عدة رجال محترمين فى تصريحهم لي على أنها تحتوى على اثني عشر ألف قرية ، غير صغيرة ، تتألف كل منها من عدد من الاسر (او البيوت) يتراوح بين المئتين والثلاث مئة • وهذا قول لابد ان يكون بعيدا كل البعد عن الواقع ، لاننا اذا اعتبرنا ان القرية الواحدة تحتوى على مئة وخمسين بيتا فقط ، واذا افترضنا ان كل بيت يضم خمسة أنفس لا غير نجد ان المجموع يبلغ تسعة ملايين نسمة ، وهو عدد يتجاوز عدد الموجود من السكان فى ايران كلها • ولذلك لابد ان يؤخذ الرقم هذا ليدل على ان

العمادية كثيرة السكان لاغير •

وقد كان يحكمها باشا ينتمي الى اسرة كردية معروفة ، بتنصيب من الباب العالي • لكن سوء حكمه ، والحسد الذى قوبل به من الآخرين ، والنزعات المحلية ، قد أدت كلها الى اسقاطه عنه • فأصبحت البلاد منقسمة الى عدة رآسات محلية صغيرة لا تلتفت بشيء الى الباشا الحاكم الذى كان رجلا ضعيفا أحمق ، أضاع سلطته وسطوته على الناس وحبس نفسه فى قصره المنيع الموجود فى العمادية ، بينما كان المير يكتسح البلاد ويقضي على هذه الرآسات الشخصية واحدة بعد أخرى • وباستغلال الضغائن العائلية والخيانة دفع المير الرشوات المناسبة ودخل تلك القلعة المهمة ، ومن هناك أخذ يوجه جهوده بمزيد من الحيوية للقضاء على ما تبقى من القلاع فى تلك البلاد • على ان العمادية لم تكن قد سقطت بعد حينما زار البلاد الدكتور روص ، وكان المير منهمكا فى محاصرة عقره ، احدى القلاع الحصينة جدا الواقعة على الزاب ، والتى تبعد بمسيرة أربع عشرة ساعة من شمال أربيل •

وكان الدكتور روص قد غادر بغداد فى منتصف مايس ١٨٣٣ ، وبين الملاحظات الاولى التى دونها عن الرحلة التباين الكبير الموجود ما بين المناطق التركية والكردية من حيث السكان والشؤون الزراعية • فقدكانت جميع القرى فى المناطق التركية مهجورة ، لان السكان قد فروا منها لتحاشي ما كانت تفرضه الحكومة عليهم • وكل من بقي فيها كان يلهج بالتذمر من باشا بغداد ، علي باشا ، وحالما كان يظهر فى الافق رجل من رجال الحكومة كان الناس يفرون من وجهه ليخفوا أنفسهم عنه • غير ان قافلة الدكتور ما أن وصلت آلتون كوپري حتى تقاطر الناس عليها لاستقبال بايزيد بك ، وهم يضعون الزهور فوق رؤوسهم كما يفعلون فى

أيام العطل والمناسبات ، وتزاحموا على تقبيل يده ، ثم هتفوا له حينما مر أمامهم •

وقد كان السهل الممتد ما بين التون كوبري واربيل مكسوا بالازهار المختلطة بأوفر أنواع الخضرة وأبهجها ، كما كانت البلاد تعج بالسكان • ويصف الدكتور روس استقبال بايزيد بك في آخر مكان بكونه على غاية ما يكون من الجمال والروعة ، من ناحية الملابس والازياء والروح الودية التي كانت تبعث الحياة في تلك المناظر الخلابة •

وفي التاسع عشر من مايس ترك الدكتور روس أربيل متوجها الى رواندوز التي كان يقيم بالقرب منها مصطفى بك العجوز ، هدف الناحية المهنية من سفرته • وبعد ان اجتازوا بلادا جبلية مخصبة ، مغطاة بالكثير من اشجار البلوط القصيرة ، وارتقوا عددا من الممرات المنحدرة ، وصلوا الى دمدم محل اقامة الرجل العجوز الذي كانوا يشرفون منه على وادي رواندوز وقلعتها ، حيث كانت الاخيرة على بعد مسافة لا تزيد على ساعة ركوب واحـــدة • ودمدم قلعة صغيرة مشيدة فوق قمة صخرية شاهقة يبلغ ارتفاعها مئة قدم ، وتشرف على بلدة صغيرة تتألف من مئة دار حقيرة تنتشر بين غابة كثيفة من البساتين الحاوية لكل نوع من أنواع الاشجار المثمرة • وكانت بلدة رواندوز تتألف ، على ما يبدو من هذا الموقع ، من حوالي ألفي دار متواضعة مع شيء يشبه القلعـة يقع ما بين الجبال عـلى الضفة الجنوبية من الزاب الكبير ، الذي كان يمتد من فوقه جسـر من جذوع الاشجار المستندة على دعامتين حجريتين والمغطاة بشيء من الاغصان والتراب • وقـد كان النهر ضيقا سريع الجريان ، جائشا عميقا ، لـكن الاكلاك على بعد ثماني ساعات من أسفل هذا الموقع كان من الممكن لها ان تعبره • ولم يسـمح للدكتور بزيارة رواندوز ، ولا بالتجوال الـكثير في المنطقة ، لكنه يذكر بين ما سمع من الاشياء التي تلفت النظر شيئا واحدا

على الاخص • فقد ذكر شيئا عن عمود من الرخام يقوم فوق قاعدة مضلعة ويبلغ طوله كله حوالى ثلاثة رماح (ثلاثون الى خمسة وثلاثين قدما) ، وهو مغطى بالكتابات المنحوتة فيه ، وقد أبدى عدد من الاوربيين من قبل رغبة في مشاهدته في مختلف الاوقات ، لكنهم لم يسمح لهم كلهم بذلك • ومما قيل في هذا الشأن ان العمود يبعد عن دمدم بمسيرة يومين ، والمعتقد ان الملكة سميراميس هى التى أقامته هناك •

ولم يكتب الدكتور روص عن دمدم وسكانها بلهجة مشجعة • فقد كتب يقول عن السكان « أنهم على ما يبدو لا يعرفون شيئا عما هو حسن في العالم • وهم يلبسون ألبسة خلقـة ، وبيوتهم أشبه بأقنان الخنازير لا غير • يضاف الى ذلك أنهم وحوش متجهموا الخلقة ، لا يعطون حتى ولا جرعة واحدة من الحليب من دون تذمر وصخب ، وكل شيء آخر لابد ان ينتزع منهم بالقسوة • وحينمـا أعطيتهم بعض الادوية أخـذوا يدمدمون لاني لم أزودهم بالقناني اللازمة لحفظها بها » • على أن لباس الموسرين منهم كان يشبه لباس البغداديين • اما الفقراء فقد كانوا يرتدون سترة قصيرة ، وسراويل صوفية فضفاضة ، وصديرياً من اللباد لا أردان له ، مع أحـذية قطنية ، وجـواريب صوفية • كمـا كانوا يضعون فوق رؤوسهم العمامة الكردية الخاصة • ويلبس النساء ثوبا أزرق ، مع سراويل فضفاضة مشدودة من أسفل حول رسغ الرجلين ، وعباءة مربعة تشد من زاويتين بحيث تصبح مدلاة من فوق الظهر • أما في الرأس فيلبس قطعة مدورة من الفضة تتدلى منها دلايات كبيرة تعلق في كل منها قطع من العملة حول الرأس والرقبة ، مصنوعة كلهـا من الفضة • وتعد طريقـة التحية عندهم شيئا مستغربا ، اذ يمسك أحد المتسالمين الآخر من المعصم الايمن ويقبل ذراعه • وفي كل مساء كان ستة أو ثمانية من القرويين يتناولون العشاء في بيت المير ، مع عـدد من المحاربين القدماء من أصدقاء شبابه •

ومما لاحظه الدكتور هنا انتشار الرمد بين الناس •

وقد تبين ان المير العجوز (مصطفى) أعمى لا يرجى له شفاء • وسبب ذلك، على ما يرويه هونفسه ، أنه اصيب بالرمد ذات يوم لانه وضع الثلج فوق رأسه حينما اشتد عليه الحر أثناء تسلقه الجبل الذى وجد فوقه طبقة سميكة منه • على أن بعض الروايات تزعم أن عينيه قد سُملتا بأمر من ابنه ، وتم ذلك بواسطة « ميل » ساخن الى حد الاحمرار لكن الدكتور روص يؤكد بأن هذا خطأ محض • أما سبب تنازله عن الحكم لابنه فهو على جانب أكبر من الشك وعدم التأكد • اذ يزعم البعض ان تنحيته كانت بالقوة ، بينما كان يقول آخرون انه اقتنع بأن ابنه سيكون أعظم منه فتنازل له عن الحكم طوعا لا كرها •

وللمير محمد ، أو الباشا ، أربعة اخوة على قيد الحياة • غير ان اثنين منهم ، وهما تيمور خان وسليمان بك ، قد سجنا [1] فى قلعة تقع على بعد خمس ساعات من رواندوز • وكان الاخ الثالث أحمد بك يتولى حاكمية أربيل ، بينما كان الرابع وهو رسول بك يتولى شؤون الجيش • يضاف الى ذلك ان المير له ثلاث زوجات من دون ذرية ، وليس من المؤمل وهو فى الخامسة والاربعين من عمره الآن ان تكون له ذرية فى المستقبل ، ولذلك يعتبر رسول[2] بك خليفته من بعده •

ويبدو ان الدكتور قد عومل بحقارة فى دمدم التى عاد منها الى اربيل

---

(١) جاء في (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) في هذا الشأن : « •• وكانت دويلة رواندوز الصغيرة قد انتقلت في حدود عام ١٨١٠ من يد أغوز بك الى مصطفى بك وهذا ، بعد أن حارب اليابانيين حربا غير منقطعة ، تزوج منهم زواج حلف وانصرف الى توحيد مملكته فوحدها • وحكمها بحكمة ، وأخذ الحكومة محمد بك ـ أي المير محمد ـ من يدي والده الواهنتين قبل وفاته • ومات مصطفى في ١٨٢٦ ، وتبعه محمد فقتل عميه في الحال • »

(٢) عينه بعد ذلك لحاكمية العمادية التي الحقها به •

لينتظر فيها أوامر المير الجديدة بشأنه • وقد وجد فى طريقه الى هناك ان سكان احدى القرى كانوا يأتون بأطفالهم الى أمرأة عجوز مرت بالقرية صدفة ، فأخذت تنفخ صلواتهـا عليهم وتنعم عليهم بقطع من الخرق البالية والنقود التى كانت تباركها أيضا ، فتعلق برؤوس الاطفال عـلى شاكلة الرقى والتعاويذ ضد النحس ودفعا للشر • وقد وجد الدكتور ان الاكراد مثل سائر الجبليين كلهم لهم عقيدة قوية بالخرافات • « فكل تل وكل قمة كان له عفريته الخاص، وهناك بالقرب من رواندوز مغارة ملأى بالعفاريت» فقد سمع من هناك فى ١٨٣١ هدير مدافع وهى تطلق فى اتجاه البلدة ، فأعقب ذلك انتشار الطاعون فى الحال • وظلت الاخبار تنتشر عن هـذا الحـادث لمدة شهر أو شهرين حتى انقطعت فجـأة هى والطاعون مرة واحدة • وقد أيد هذا عدد من الناس المحترمين وعدوه شيئاً حقيقياً •

وتدل الملاحظـات التى توصل اليها الدكتور روص فى طريقه الى أربيل ، وبعد وصوله الى هناك بمدة من الزمن ، على أن الضيافة الكردية لم ترق له كثيرا • اذ يظهر منذ اللحظة التى اوصله فيها مهمنداره بايزيد بك الى دمدم وتخلى عنه فيها ان تبدلا فى غير صالحه قد طرأ على المعاملة التى كان يعامل بها نظرا لعدم وجود من يجبر الفلاحين الغلاظ على السلوك الحسن معه • فهو يقول « انهم اناس لطيفون بمقدار كاف حتى يجبرون على رفع الكلفة ، وعند ذلك تبدو طبيعتهم المتجهمة ــ فلا يوجـد عندهم سخاء حقيقى ولا اكرام لضيف ــ وهم يختلفون بذلك تمام الاختلاف عن القبائل العربية التى تعطى ما عندها عن طيبة خاطر ، وتتسابق فيما بينهـا لتقديم الهدايا • » ومع ذلك فأنهم لو لم يؤخذوا من مخيم لآخر بصفتهم اصدقاء الشيخ فان نفس الاشخاص الذين كانوا يعاملونهم معاملة حسنة ربما كانوا سيعمدون الى سلبهم وتجريدهم من ملابسهم •

وقد اطلع الدكتور روص فى أربيل على الكثير من أحوال الاكراد ،

وهو يتكلم بشدة عن ميولهم الغفلة وجنوحهم الى التهييج • فهو يقول « ان طبيعة الكردى مجبولة على الحرب• لانه يُدرب عليها من المهد ، ولا يرتاح مطلقا من دون الاشتباك مع الغير أو خوض المعارك • فقد وجدت صبيانا لا تزيد أعمارهم على اثنتي عشرة أو خمس عشرة سنة وهم يعانون أوجاعاً من جروح بليغة كانوا قد اصيبوا بها في معارك متأخرة • وقد علمت بأن معاركهم معارك دامية للغاية ، وهم يبدأونها باطلاق النار من البنادق لكنهم سرعان ما يعمدون فيها الى الخناجر • وليس ذلك من قبيل الضجيج او التهويش المعروف عند العرب ، وانما هو قتال عنيف يؤدي في الغالب الى قتل الكثيرين وجرحهم • وهم يزدرون بحكومة بغداد وجيشها ازدراء متناهيا ، ويقولون ان المدينة لو كان فيها أى نفع لهم لما استطاع الاتراك أن يقفوا فيوجههميوما واحدا دوناحتلالها•وقدوجدوا الفرصةسانحةللاستيلاء على أربيل وآلتون كوپرى في بعض المناسبات، ولم يستغرق استيلاؤهم على اربيل سوى ساعة واحدة • وهم لا يعتمدون في الحصول على احتياجاتهم على أية بلاد أخرى الا بلادهم • فأن كل ما يحتاجونه يتم انتاجهفيبلدهم ، ومع ان جبالهم تكون مواقع دفاع حصينة منيعة تجاه المحتلين الاجانب فان وديانها وجنباتها الوعرة تنتج بقليل من الجهد كل ما يرغبون في زراعته بوفرة ، وتزودهم بذخيرة لا تنضب من الخشب والماء والمرعى » •

وتُعطى البلاد المحيطة بأربيل من الباشا بالالتزام للشيوخ منطقةً منطقة بالطريقة التي يسير بموجبها النظام الاقطاعي المعروف • فان عشائر طي العربية تخضع للباشا[1] وتبعث بقطعات غير يسيرة من رجالها لجيشه الذى كان حينذاك في عقرة • وقد كان الباشا على ما يبدو محبوبا عندهم ، أو مرهوب الجانب ، وقد يكون ذلك ناشئا عن الصرامة التي تتصف بها حكومته • فمن النادر ان يسمع شيء عن السرقة واللصوصية ، ولا تغلق

(١) أى مير رواندوز

باب من الابواب في الليل مطلقا • ومع ذلك يندر ان تطبق عقوبة الموت بين ظهرانيهم • وانما تقطع اليد عن السرقة وتقطع القدم عقابا للفرار من الجندية ، وتسمل عين واحدة أو عينان عن الجرائم الاخرى • على أن عقوبات أشد صرامة من هذه قد تفرض في بعض الاحيان على سبيل العبرة للآخرين • فقد لجأ ذات يوم الى بلاد المير شيخ من شيوخ القبيلة العربية طي[1] مع عشيرته ، بعد ان أجبرتها على الرحيل من ديرتها عبر دجلة قبيلة جربا القوية ، وهناك عاش عيشة رضية هادئة في ظل القوانين والانظمة التي وضعها المير • لكنه مل الهدوء وسئم الخمول الذي تفرضه حياة الدعة والعطالة ، وبينما كانت احدى القوافل تمر بمخيمه آمنة مطمئنة أغراه ما فيها من سلب ونهب اغراءً لم يستطع كبحه في نفسه فانقض عليها وغنم جميع ما كانت تحمله من سلع وبضائع • غير ان اليوم الثاني ما ان انتهى وحل المساء حتى حضر الى مخيمه نصف دزينة من الاكراد ، ودخلوا الى خيمته من دون كلام أو مراسيم ثم احتزوا رأسه على بابها وعادوا من حيث أتوا بهدوء •

وحينما كان الدكتور في أربيل قوبل بترحاب غير يسير من قبل أحمد بك حاكم أربيل وشقيق المير ، وزاره سلطان بك أحد رؤساء المعسكر • وهناك علم ان الجيش كان يتألف من خمسة عشر الى عشرين ألف رجل ، وكانوا كلهم عاطلين في معسكرهم لان عقرة كانت قد تم الاستيلاء عليها قبل مدة من الزمن • ويقع هذا الحصن على قمة صخرة تكاد تكون عمودية على ما يبدو ، ولا يمكن الوصول اليها الا من طريق واحد ضيق بحيث لا يستطيع أن يركب فيه شخصان جنبا الى جنب[2] •

---

(١) لا تزال قبيلة طي الشمار اليها تقيم في منطقة الهويرة التابعة لناحية الكوير المرتبطة بلواء أربيل . ويرأسها الآن الشيخ حنش الحمود الهوار •

(٢) ان هذا الوصف ينطبق على العمادية . ولعل صاحب الرحلة يقصدها مي بدليل انه يورد اسم العمادية في نهاية هذا المقطع ويقول ان اكرادها دهشوا لهذه المفاجأة

وقد كان سكانها يعتقدون بأن قلعتهم لا يمكن ان تستولي عليها قوة في العالم، ولم يكن ينتظر حتى الباشا نفسه ان تقع في يده بهذه السرعة . غير انه حدث ذات يوم انه قد هوجم هو نفسه من كمين كانت ثلة استطلاعية تابعة للعدو قد نصبته في مكان مخطر ، وكاد يؤخذ أسيرا بهذه الطريقة . فاغتاظ أتباعه لذلك بحيث انه سار في صباح اليوم التالي على رأسهم لمهاجمة ذلك المكان الذي تم احتلاله بالفعل خلال ثلاث ساعات بعد ان خسر مئة وخمسين من رجاله فقط . فاندهش أكراد العمادية لهذه المفاجأة الفذة بحيث انهم تخلو عن المكان من دون مزيد من القتال .

وفي يوم ٣٠ أيار وصل كتاب من الباشا ينطوي على أمره بابقاء الدكتور روص في أربيل حتى يطلبه هو على ان يُخدم ويُعامل بغاية الاحترام ، فكان لذلك تأثير في تحسين أحوال معيشته وتأمين راحته . وفي ٦ حزيران وصل الخبر بأن الاحوال في العمادية قد سويت ، فتخلى الباشا السابق، سيد باشا، عن منصبه ونصب موسى[1] باشا في مكانه. كما نصب سليم باشا في عقرة ، ولما كانت جميع البلاد قد خضعت لحكومة رواندوز فقد أصبح كل شيء هادئا تمام الهدوء . ومع ذلك فلم يصل أي أمر من سموه بارسال الدكتور الى معسكره الا في يوم ٣ تموز ، بعد كثير من الاعتراضات والاحتجاجات وعدد من التأكيدات المضللة عن وصول الباشا السريع الى أربيل . فالظاهر ان الحاشية تبقي حركات الباشا وسكناته في سرية تامة ، اذ ليس في مقدور أحد أن يحزر متى تتم هذه المسيرة أو تلك ، حتى ولا ان يعرف الجهة التي ستسير فيها الجيوش الى ان يتم الركوب .

وقد عبر الدكتور روص نهر الزاب بالكلك الذي يصفه بكونه أشبه بـ « عربة نبتون » ، وقد سحب الكلك عبر النهر بحصانين اثنين سيقا في

(١) يقول لونكريك في (أربعة قرون ..) انه نصب أخاه رسول فيها .

أول الامر الى الماء ثم ظلا يحثان على العبور من قبل ركاب الكلك نفسه الذين كانوا يقبضون على ذيليهما بقوة • فوصلت الجماعة الى عقرة بعد مسيرة أربع عشرة ساعة وقطع ستة وخمسين ميلا الى شمالي الشمال الشرقي • ويعتبر الدكتور روص كلا من أربيل وعقرة في شمال بغداد تقريبا •

وقد استقبله الباشا استقبالا حسنا ، لكنه بعث اليه بمن يعتذر منه شخصيا لعدم قيامه له في مجلسه أثناء دخوله عليه ، كما يجب ان يجري بالنسبة لخادم من خدام ملك انكلترة ، نظرا لانه كان محاطا بأناس لم يتم اخضاعهم الا مؤخرا ولان الوقوف بوجودهم ينطوي على التساوي بينه وبين الباشا في نظرهم ، وهذا مما قد لا يكون من مصلحته أن يفعله أو يعترف به أمام ملأ من الناس • فألفى الباشا رجلا وسيم المظهر محبا للخير ، يبلغ الخامسة والاربعين من عمره تقريبا • كما وجده أبيض البشرة تبدو فيه آثار الجدري • وقد اعورّت احدى عينيه واصبحت منخفضة معتمة • وكانت لحيته تبلغ حوالى اثنتي عشرة بوصة في الطول ، ذات لون بني خفيف ، ولم يمشط نصفها الاسفل ولذلك كانت ملبدة بعضها ببعض • اما من النواحي الاخرى فقد كان مرتب اللباس والهندام • وكانت احدى رجليه مصابة بالعرج لرفسة أصابته من أحد الخيول ، كما كان يتكلم بصوت خافت • وقد دخل في حديث طويل مع الدكتور روص أكثر من مرة ، في مواضيع عامة غالبا • فاستفسر منه عن طريقة التعليم في انكلترة ، وديانة أهل الهند والصين ــ متصورا ان الصين كانت تابعة لنا على شاكلة الهند • وقد كان يرغب كذلك في معرفة علاقتنا بايران وروسية • ثم استفسر في مناسبة اخرى عن أشياء كثيرة مثل استعمالات الادوية وتأثيراتها ، وحالة النبض في أثناء المرض ، وعن الطاعون والهيضة وغير ذلك • وانتقل بعد ذلك الى مواضيع الحرب ، فتحدث عن الطبنجات والمسدسات ، وأخرج طبنجة انكليزية قديمة ذات سبطانتين وبندقية ، فكانت هذه مع

سيف ومرقب (تلسكوب) وشمسية وسرير خشبي وعـــدد من المحافير تكوّن القســم الاكبر من أثاث خيمته • وفيما يقرب من خيمته الخاصة كانت هناك خيمة واسعة ذات عمودين يعقد فيها الاجتماعات قبل الظهر وفي الليل • وهو لا يذهب الى النوم مطلقا قبل بزوغ الفجر ، وعنـدذاك يناد الى التاسعة او العاشرة من صباح اليوم التالي • وقبيل الصلاة الاخيرة بربع ساعـة يعزف جوق صخاب شيئا من الموسيقى ، وفي وقت الصــلاة تطلق اطلاقة من المدفع •

أما القوة الموجودة في المعسكر فقد علم الدكتور روص انهـا تقدر بحوالي عشـرة آلاف رجـل فقط ، وهي لا تكاد تساوي نصف الجيش الاصلي ، فقد ســرح باقي الرجـال الى بيوتهم للقيام بمهمة الحصاد • ولا يمت المعسكر بصلة الى النظام والنسق العسكريين بشيء ، عـلى ان الشيء النظامي الوحيـد هناك كان التفاف حلقة من الخيم الصغيرة حـول خيمة الباشا ، وهي تحتوي على حرسه الخاص الذين يبلغون ثلاثة آلاف شخص في عــددهم • وهؤلاء يكونون خدامه في نفس الوقت • ويتسلح المشـاة بالبنادق والخناجر ،كما يتسلح الفرسان بالرماح والخناجر • وكل رئيس قبيلة تخيم قبيلته من حوله في معزلٍ عن سائر القبائل ، فيؤدي ذلك الى تشويه منظر المعسكر نفسه لانه يمتد والحالة هذه الى مدى يفهم منه بالنسبة لقواعد الحرب الاوربية انه يحتوي على خمسين ألف مقاتل • ومع هذا ، فبرغم هذا الاحتياج الى النظـام والترتيب لم يكن يسمع فيـه ولا صوت واحد ، ومن الممكن ان يصل كل فرد فيه الى المكان المعين في ظرف خمس دقائق فقط • وقد كان الرجـال يتمرنون من تلقاء أنفسهم عـلى الرماية واصابة الهدف بصورة مستمرة • وفي كل مساء يتناول ما بين المئة والمئتي جندي عشاءهم في خيمة الباشا متبعين في ذلك دورة خاصة تتناول العشائر جميعها • وقد شوهد عدد من الاسرى في المعسكر وهم مقيدون بالحديد

في أعناقهم وأرجائهم • ويقول الدكتور روص ان الپاشا معتاد عـلى شراء غنائم وأسلاب الحرب جميعها بأسعار تساوي ضعف ما يدفعه لهم الآخرون•

وفي اليوم الثامن من تموز ترك الدكتور روص معسكر الپاشا وسلك طريق الموصل • وفي الجانب الآخر من الزاب وجد مئة فارس عربي من قبيلة ألبو سلمان مستعدين لتوصيله خلال ما تبقى من ممتلكات مير رواندوز• فاعترض على هذا العدد الكبير من الرجال لكن رئيس هذه الثلة الكبيرة من الخيالة أفهمه بأن الاوامر التي تلقاها تفرض عليه ذلك ، وانه لا يستطيع التخلي عن أي رجل منهم • ويغتنم الدكتور هـذه الفرصة هنا ليشير الى التباين الموجود في عادات موظفي هـذا الباشا وموظفي المناطق التركية • ففي اللحظة التي دخل فيها هذه الجهات بوهت بطلبات البخشيش ، وبعد تجريده من كل ما كان يمكن ان يكون قد حمله معه فان الاوغاد المتأكيد تعود الى منزله طالبين المزيد • أما في ممتلكات رواندوز فان البخشيش لم يذكر قط • هذا وقد أجرى الدكتور مقارنات في كل ناحية من النواحي بين حكومة علي پاشا في بغداد وحكومة المير ، وهو يعطي الافضلية للأخير ويشير الى أحاديث الخيانة التي كان يصرح بها علانية بالنسبة لعلي پاشا ، بينما كان الاطراء والثناء على المير يلهج بهما الجميع بصراحة •

والى هـذا الحد نكتفي بما ورد في يوميات الدكتور روص • اما المعلومات التي زودني بها معظم الاشخاص الذين قابلتهم ، ممن له اطلاع كاف في الموضوع ، فتتفق مع معظم التفصيلات الواردة في هذه اليوميات • فان شخصية المير وأخلاقه تظهر في أعماله[1] • فهو طموح الى حد الافراط،

(١) يلخص المستر لونكريك أعماله وفتوحاته فيما يلي : « •• وقد ظهرت مزايا ــ البك الاعور ــ في سلسلة غير منقطعة من الفتوحات • فقد أخضع الشيروان الاقوياء وقبائل البرادوست في الشمال ، وقلل من نفوذ السورجي ، ثم طرد الحاكم البابانى من حرير ، واخذ اربيل والتون كوبري ، ونصب أقاربه في هذه الاماكن • واقتطعت رانيه وكوى من البابانيين ، وأصبح الزاب الاسفل هو الحد • وقد اضطر علي رضا الى الاعتراف بهـــذه

ومستهتر تماما بالنسبة للوسائل التي يصل بها الى غاياته و مطامحه • ومع انه فطن بعيد النظر فانه حسود ومرتاب للغاية • وهو على تشبعه بفكرة العدالة الحقة التي لا تعرف المحاباة يسخر مبادئه للحصول على المزيد مما يشبع به اطماعه وليس لمجرد العدالة نفسها • أضف الى ذلك انه لا يتورع عن سفك الدماء لكنه غير ميال الى ان يقتل الناس بطيش أو تهور ، ومن دون سبب • ومع ذلك فهو لا يرحم حينما يتيسر السبب مهما كانت أهميته • فقد روي لي ان قبيلة من القبائل الكردية كانت تعارضه بشدة في أثناء محاصرته للعمادية ، وظلت متمادية في ذلك حتى بعد ان سقطت في يده ، فساق عليها قواته وبعد أن أخضعها وعانى ما عانى من أجل ذلك قتل جميع من وصلت اليه يده من أفرادها حتى بلغت ضحاياه عدة آلاف من الرجال • وقد فعل ذلك على سبيل العبرة للآخرين •

ولا يمتد حسد المير الا الى الغرباء الذين يسيحون في البلاد من دون شغل يتضح له • فأن التجار والبغالة وسكان البلاد المجاورة لا يحتاجون الى جواز سفر في ممتلكاته ، وهم أحرار في رواحهم وغدوهم • لكن الاشخاص القادمين من مسافة بعيدة ، وخاصة من بلاد أظهرت له شيئا من العداء في يوم من الايام ، لا بد أن يتعرضوا للتوقيف او الحبس كجواسيس• وقد استفسرت عما سيحل بي فيما لو دخلت بلاده من دون الحصول على رخصة مسبقة منه ، فكان جواب الجميع على ذلك ان الاقدام على محاولة مثل هذه تعد غاية في الطيش وعدم التبصر • لانه رجل سيء التفكير (بدفكر) وقد يتصورني جاسوسا فيسيء معاملتي ، وخاصة لانني كنت

السلطة الجديدة فرفعه الى مرتبة الباشا • وفي أوائل ١٨٣٣ سار محمد الى عقرة ، وأخذها بعد أن حاصرها ، ثم طرد حاكمها اسماعيل باشا • وبعد أن خلع من العمادية سيد باشا بسهولة نصب في مكانه أخاه رسول بك • وأصبحت دهوك وزاخو من توابع امبراطوريته فأقام فيهما الضبط غير الخاطئ، بقسوته العادلة ••• وبعد ذلك غزا في جبل سنجار ، وضرب قرى قريبة من الموصل . واحتل جزيرة ابن عمر ، وأفزع البدرخانيين في حسنكيف . وكذلك هددت نصيبين وماردين نفسها غير أن هذا كان حده الذي وقف عنده ••• »

سأدخل الى ممتلكاته من تبريز • وحينما أبديت اصرارا في معرفة المعاملة السيئة التي يمكن ان أعامل بها قالوا لي بانني يمكن ان احجز في مكان منيع حتى يمكن ان يعرف ما يريده المير مني ، وبعد ذلك قد أطرد الى خارج البلاد بطريقة لا يتسنى لي ان أرى شيئا منها • على انني قد لا أقابل بالعنف في داخل ممتلكاته حرصا على سمعته الطيبة ، لكنني من المحتمل جدا ان أقع فريسة للصوص حالما أعبر الحدود في طريقي الى الخارج • ومن السهل ان يحصل هذا في بلاد مضطربة مثل هذه[1] •

وقد كان ذلك كله موضع الاعتبار الجدي عندي • فان شخصية هذا الامير العجيب ، والتقدم السريع الذي أحرزه في السلطة والسطوة خلال السنوات الخمس او الست الاخيرة ، مع التبدل الاخلاقي الذي كان من الممكن ان يحدثه في هذا الجزء من آسية ، قد جعلت من المحتم علي ان أراه وأتعرف عليه ، لاتبين مقدار الصحة المنطوية في الروايات التي تروى عنه • وبهذا التفكير تسلمت من المعتمد كتابا اليه ، مع بعض الهدايا ، وكان غرضي من ذلك أن أقدمها اليه شخصيا بنفسي باعتبارها بداية لعلاقة صداقة

---

(١) لم يكن مصير هذا الرجل العجيب كما كان من المؤمل أن يكون • فقد كون تقدمه المطرد وتأثيره على الممتلكات التركية حركة قوية ضده في الباب العالي • اذ زحف عليه رشيد باشا (الكوزلكي) ، الذي كان يقود الجيش في ديار بكر من جهة كردستان ، وهاجمه علي باشا والي بغداد ومحمود باشا (البيرقدار) والي الموصل من جهتي الجنوب والغرب • فدافع المير عن نفسه ببسالة وأقدام ، ولو كانت جيوشه مخلصة له لاستطاع أن يزدري بالقوى التي زحفت عليه كلها • لكن المير لم يكن محبوبا في البلاد التي استولى عليها ، لان صرامته جعلته مرهوب الجانب وليس محبوبا • وكان البعض من ضباطه ميالين الى الخيانة ، كما كان من المؤكد أن يكون اولئك الذين وقفوا الى جانبه الى الاخير في المناسبات الاعتيادية قد أفزعتهم رؤية أعلام السلطان وهي ترفرف أمامهم • أضف الى ذلك أن بقايا التبجيل لخليفة الرسول وزعيم الاسلام الديني منعت الاكراد عن مقاومة جنود السلطان بالسلاح • وقد شعر المير بهذا كله ، وبعد أن أضاع قلاعه الحصينة واحدة بعد الاخرى استسلم في نهاية آب ١٨٣٦ لعلي باشا والي بغداد • فأرسل مخفورا الى استانبول حيث أبقي بحجز شبه مبجل لمدة قصيرة ، وعفي عنه بعد أشهر قليلة ثم عين حاكما في بلاده بالذات بعد أن أعطى عهدا بالسلوك الحسن • لكنه لم يصل اليها قط ، ولم يعرف السبب في ذلك • ولاشك أنه قتل في الطريق بأمر من سيده الاعلى • (حاشية صاحب الرحلة نفسه ، والظاهر انها كتبت أثناء طبع الكتاب بعد عودته الى بلده) •

يمكن ان تـكون مفيدة وملائمة فيما بعـد • وكانت خطتي في ذلك انني بوصولي الى أوشنو ، وهو مكان على مسيرة يومين من هنا ، وعلى بعد ستين ميلا من رواندوز فقط ، أن أبعث اليـه بكتاب خاص أشرح له فيه هويتي وطبيعة الاوراق الموجودة عندي وأقترح عليه اذا ما أراد تسلمها من يدي أنا بالذات ان يبعث لي دليلا يوصلني سالما اليه ، واذا كانت له فكرة اخرى في الموضوع ان يبعث لي شخصا يتسلم الهدايـا من عندي • ويمكنك ان تتصوري مقـدار ما أصابني من الخيبة حينما علمت ان المـير بدلا من ان يكون في رواندوز كما كنت أتوقع كان على مسيرة عشرة أيام منها ،حيث كان منهمكا بتنفيذ الخطة التي وضعها لفتوحاته • وهكذا فان مراسلتي له في هذا الشأن كانت ستستغرق عشرين يوما على الاقل علاوة على عشرين يوما أخرى كنت سأقضيها أنا في الذهاب لمقابلته والعودة بعد ذلك • وهذا تأخير ليس من الممكن لي ان أتحمله بالنسبة لما يتيسر لي من الوقت • ومهما كان مقدار ما عندي من الرغبة في القيام بمثل هذه المهمة الطريفة ، كانت هناك أسباب كافية تعيقني عن وضع حريتي وحيـاتي في موضع التهلـكة بالدخول الى بلاد المير من دون الحصول على الرخصة اللازمة منه • وعلى هذا فقد ضحيت مرة أخـرى ، بكل احجام ، بالواجب الذي كنت عازما على القيام به • وبعد ان اكتفيت بالحصول على أحسن المعلومات التي تمكنت من التقاطها عن هذا الامير العجيب توجهت الى بغداد عن طريق السليمانية •

٢

الوصول الى السليمانية – زيارة الضباط الايرانيين له – زيارته للباشا في السليمانية – وصف الحالة فيها – وصفه الباشا وحديثه معه – جدله في مجلس الباشا عن بعض الخرافات – وصف السليمانية – حادث في مقبرة السليمانية – استئذانه بالسفر وتقديم بعض الهدايا – منعه من زيارة آثار الشهريزور – مقابلته للسرتيب قائد القوات الايرانية في السليمانية – مغادرة السليمانية مع دليل الى كفري – وصف الطريق – النذر كاغات – ذكر الجاف والهماوند – النزول في زالة – الهمندار والقرويون – التوجه الى ابراهيم خانجي – سليم اغاداو – حالة الامن في الطريق – قرية ابراهيم خانجي – رستم أغا – وصف الاكراد – الوصول الى كفري ٠

السليمانية أول تشرين الثاني ١٨٣٤

عزيزتي ––––––

قبل يومين حررت رسالة اليك ، لكنني وجدت أنني لابد ان آخذها معي الى بغداد لانه لا يوجد بريد الى لندن هنا • جاء الى زيارتي يوم أمس بعد الفطور بعض الضباط الايرانيين[1] الذين يقودون الجند الايراني المرابط هنا • فرووا روايات مؤسفة عن الحالة العامة هنا ، لكنها لم تكن أسوأ مما تدل عليه المظاهر وتؤيده • وبعد ذلك ذهبت لزيارة الباشا الذي

(١) كانت السليمانية في هذا العهد تابعة لايران . وكان يحكمها محليا سليمان باشا بن عبدالرحمن باشا بابان تحت اشراف حامية ايرانية ترابط فيها • أما السبب فهو النزاع العائلي الذي كان يحتدم يومذاك بين الاخوين سليمان ومحمود . والمنافسة على تولي الحكم • وقد أدى هذا الخلاف بهما الى الارتماء في أحضان ايران تارة وتركية تارة اخرى ، والتجاء الاخوين كليهما الى هذا التذبذب في الولاء عدة مرات • والحقيقة أن اباهما عبدالرحمن وأعمامهما قد فعلا ذلك من قبل أيضا . فكانت حالهم هذه من الاسباب المهمة للتصادم الذي تكرر حدوثه بين ايران والدولة العثمانية في تلك الازمان • كما كان من اسباب أفول نجم البابانيين وانحطاط شأنهم •

وندرج فيما يلي ما ورد في (أربعة قرون •••) في هذا الشأن : « ••• ولم تدم تسوية الامور التي اجريت في المملكة البابانية في ١٨٢٣ (أي معاهدة أرضروم الاولى الموقعة في تموز ١٨٢٣) • فقد تلاها أول وجه من أوجه النضال الطويل بين الاخوين محمود باشا وسليمان باشا • وظلت حامية ايرانية في السليمانية حتى توفي فتح علي شاه في ١٨٣٤ • وكانت المملكة البابانية في الحقيقة آخذة بالانحطاط منذ مدة ، فكانت على هذا العهد تهيمن عليها ايران هيمنة لم تقفها فيها تركية بأي زمن كان • وقد سببت حالة النزاع بين الاخوين الاضطراب والفوضوية والفقر • فأكمل الطاعون من بعد ذلك خراب المملكة ••• »

ألفيته في خيمته محاطا بعدد من الاكراد الوسيمين ، ولكن من دون مظهر فخم أو أبهة ذات شأن ــ مسكين الرجل ! أنه لا قبل له بذلك • فأن باشوية السليمانية الصغيرة ، غير الغنية مطلقا ولا القوية ، كانت فريسة لمجموعة من النكبات التي أنزلتها الى حضيض التعاسة • فقد داهمتها اولا النزاعات العائلية ، أي الحرب الاهلية الناشبة بين أخوين ينشدان التفوق والسلطة • فأدى ذلك الى تدخل أجنبي بطبيعة الحال ، ووقعت الباشوية التي كانت تابعة الى باشوية بغداد من قبل في أيدي أمير كرمنشاه الايراني محمد علي مرزا • على أن النزاعات الداخلية والهياجات ظلت مستمرة ، حتى أضعفت الفريقين بحيث ان جارهما مير رواندوز[1] وجد من المناسب بعد موت محمد علي مرزا ان يكتسح البلاد ويلحق جزءا غير يسير منها بامارته • فسبب له ذلك حربا مع الحكومة الاذربايجانية التي فرضت سلطتها على هذه الجهات ، وحتمت على السليمانية المنكودة الطالع ان تقوم بأود الجيش الايراني علاوة على دفعها الاتاوى للايرانيين • ثم داهم البلاد الطاعون[2] الذي أفنى ما يزيد على نصف السكان في البلدة وما يحيط بها من الريف • اما النصف الثاني فقد هاجر من استطاع منهم ان يترك البلاد الى أماكن تخف فيها وطأة الاعباء والاوزار ــ اى الى رواندوز وكركوك وأربيل وسائر المناطق الكائنة في البلاد المنخفضة ، بعد ان وجد ان لا معين له على البلوى ولا من يعمل على أعفاء الناس من الضرائب الحكومية • وعلى هذه الشاكلة تقوم أيران بتقوية أعدائها واضعاف نفسها • لكن الباشا المسكين كان أضعف الناس على الافلات من العاصفة ، وها هو يجلس الآن بين حطام العظمة الغابرة مرتبكا متحيرا الى أقصى الحدود تجاه الاستجابة لجميع الطلبات التي تقدم اليه ، مع انه غير قادر على مقاومتها • وعلى هذا

---

(١) انه محمد باشا الاعور (كور محمد باشا) المار ذكره في الرسالة السابقة •

(٢) وهو نفس الطاعون الكبير الذي تفشى في بغداد وما حولها ففتك فتكا ذريعا فيها في اواخر أيام داود باشا . كما سيأتي تفصيله في رسائل قادمة من هذه الرحلة •

فلا أخالك تعجبين اذا ما علمت بأنني وجدت القليل من الابهة والفخامة ، أو حتى أبسط وسائل العيش المريح من حوله . فقد استفسر رجاله من رجالي عما اذا كان عندي شيء من السجاد أو « النمد »[1] ليفرش على الارض غير المبلطة في الدار التي خصصت لاقامتي ، لان مثل هذه الاشياء كان يكاد يندر وجودها هنا . فلم أزود بأية واحدة منها بطبيعة الحال وكان أحد الاسباب لذلك عدم وجودها !!

ولقد وجدت الپاشا شخصا لطيفا ، مطلعا بالنسبة للاكراد وتبدو عليه في الحقيقة مظاهر « العثماني » أكثر من المظاهر الكردية . فأمطرني بوابل من مختلف الاسئلة عن الحالة في اوربة ، وعلاقات كل دولة بالدول الاخرى، وخاصة عن العلاقات الموجودة بين الباب العالي وروسية ومحمد علي باشا. وكان على اطلاع غير قليل بشؤون أمريكا ، فعمل على تصحيح ما كان يفكر به بعض الايرانيين الموجودين في مجلسه ، وبعض رجاله أيضا ، من الافكار القديمة بالنسبة لها . وقد جرى البحث في احوال الهند ، وذكر الكثير عن الاختراعات الحديثة ، وخاصة الاختراعات ذات الطابع الحربي. وجرنا موضوع تحسين عدة البندقية الى البحث في طرق اطلاق النار المختلفة ، وفي أحسن طريقة لمقاومتها والسيطرة عليها في مقابل ذلك . ثم أدى ذلك الى ذكر موضوع كنت قد سمعت تلميحات اليه من قبل أكثر من مرة ، وهو يقدم لنا نموذجا طريفا للخرافة وتفشيها بين هؤلاء الناس ـ أي نموذجا لسرعة التصديق وحسن النية من جهة ، وللدجل السليط من جهة أخرى .

فالسادة كما تعلمين هم من نسل النبي محمد ، لكنهم ينقسمون الى عدة طبقات ، ويتمتع بعضها بقدر من التوقير والتبجيل أكثر مما تتمتع به

(١) النمد بالفارسية هو الفرش الذي يصنع من اللباد (الجبن) ويفرش في مقام السجاد .

الطبقات الاخرى لانها كما يعتقد محبوة بمواهب خاصة مستمدة من أصلها المقدس •

ومن هذه المواهب موهبة لا تدعي بها الا أسر قليلة وهي القدرة على تحمل النار وتأثيرها من دون أذى • فقد قيل لي في سوج بولاق ان احدى الأسر المحبوة بهـذه الموهبة كانت تقيم في قرية غير بعيدة عنا ، ولـكن المؤسف أنه لم يكن بوسع أحد أن يأتي بشخص يقوم بهذا العمل بين يدي حينما أبديت رغبتي في مشاهدة هـذه المعجزة • اذ يزعم ان الاشخاص الموهوبين هؤلاء يستطيعون الدخول الى تنور تشتعل به النار حتى يصبح أحمر من شـدة الحرارة ، وانهم يكومون النار فوق أيديهم ، ومع ذلك يصيح الفرد منهم « انه بردان » فيخرج من دون ان يكون قد مسه شيء من الاذى • وهم يستطيعون كذلك اخـراج قطعة حديد ساخنة الى درجـة الاحمرار من النار دون أن تصاب أيديهم بأذى • والخلاصة اننا اذا صدقنا ما يقال عنهم فانهم يعتبرون مواد غير قابلة للاحتراق •

وقد كان الضحك على هذه الخرافة السخيفة شيئا على نفس المقدار من الاساءة وعدم الفائدة ، لان جميع هذه القصص مهما كان منشؤها لما كانت قد أيدتها عقيدة الاجيال التقليدية فان دحضها كان لا يمكن أن يتم الا بأخضاعها للاختبار التجريبي ـ الذي كانت الجهات المتمسكة بالخرافات تتحاشاه على الدوام حيث يكون من المحتمل اكتشاف الزيف المنطوي فيها • ولذلك كنت حينما تفرض علي التأكيدات على صدق هذه القدرة الخارقة من جميع الجهات أجيب فقط بأن هذه الامور قد تكون صحيحة ، ولكن الاعتقاد بها من دون شك أو ريبة يعتبر خارج قدرتي أنا حتى أكون قد شاهدت بأم رأسي بعض الادلة التي لا تدحض ـ كأن يقوم أحـد الموهوبين هؤلاء باخراج قطعـة من الحديد الساخن الى درجة الاحمرار من التنور بيـده العارية ومسكها لمدة ما بأصابعه هو ـ وعند ذاك أقتنع بما وهب له من القدرة

الخارقة • غير ان جميع من فى المجلس أجابني بصوت واحد يقول « لكن الحقيقة لا ريب فيها لاننا كلنا على علم بصدقها » • فقلت مصرا « أنني حينما أجد قطعة من الحديد الحارة لدرجة الاحمرار فى يد السيد سأصدق ذلك أنا أيضا ، واعترف بأن مثل هذه القدرة لا بد ان تكون من عند الله مهما كانت الغاية منها » « ستفعل ، أليس كذلك ؟ » هذا ما أجابني به ميرزا ايرانى كان يحاول دوما استدراجى الى الدخول فى جدل ديني • ثم أردف قائلا «وهل ستوافق بعد ذلك على كل ما سيقوله ؟» فأجبته بقولي «ولنفرض انه سيصارحني بأن الله غير موجود ، فهل تريدني ان أؤيده فى مثل هذا الاعتقاد ؟ » غير انه رد عليّ يقول « كلا ، لكن ذلك غير ممكن » ـ وعند ذلك أجبته « أبدا فأنه كان يحدث عندكم فى السابق ان يقوم أناس من بينكم فيدعون بالربوبية ويزعمون ان لهم قوى خارقة ، بينما كان غيرهم ينكرون وجود هذا الشىء بالمرة • ولذلك يجب ان تلاحظوا بأنه ليس هناك من يستطيع ان يعد وعدا لا شائبة فيه بتصديق جميع ما قد يقوله شخص آخر قبل ان يسمع ما سيفضى به ويعرف ما اذا كان من المناسب ان يذعن له » فتدخل الباشا وقال « ان ذلك حق ، فمن غير المعقول ان يفعل ذلك » • فسكت المرزا ولم يتفوه بشىء بعد ذلك •

ثم قلت « والآن أرجو ان يسمح لي الباشا بأن أسأله عما اذا كان قد شهد فى يوم من الايام أحد هؤلاء السادة وهو يقوم بالمعجزات الخارقة » فكان جوابه بالسلب • وبعد ذلك التفت الى رجل مسن كان متحمسا جدا في أثناء المناقشة وسألته « وهل شهدت أنت ذلك ؟ » فأجابني يقول « كلا ، لكنني كنت شاهدت أحدهم وهو يضع النار فى فمه » • فقلت « ان ذلك ما يمكن ان يفعله أى « حقه باز » أو مشعوذ بيننا ، ويدل على ان ذلك كله يمكن ان يكون ضربا من الحيلة» • فعلق الباشا بقوله « انه يقول الصحيح ، فقد شاهدت انا بنفسى مثل هذه الحيل يقوم بها أولئك الناس » • ثم التفت

الى جميع من اشترك في الحديث من حضار المجلس ، ولكن لم يستطع ولا واحـد منهم ان يقول انه شاهد هو بنفسه أي شيء من هذا القبيـل • ولذلك ابتدرت المرزا قائلا بعدم اكتراث انه بالنظر لانه لم يقدم لاثبات المعجزات المزعومة سوى التقولات والاشاعات فانه لا يمكنه ان ينتظر مني ان استسلم بحكمي أو رأيي الذى لا بد لي ان احتفظ به حتى يكون هو مستعدا لتقديم دليل أقوى مما جيء به من قبل •

وفي اليوم التالي (أول تشرين الثاني) تمشيت لاشاهد البلدة وأحصل على فكرة عن الحالة فيها أحسن من الفكرة التي استطعت تكوينها بنظرتي السطحية الاولى • فتأكد لي ان الانطباعات التي تكونت عندى بتلك النظرة العابرة لم يكن بوسع الملاحظات الاخرى ان تحسنها في نظرى أو تغير شيئا منها بأى مقدار كان • فقد كانت البلدة كلها ضنك وأملاق ، وقذارة ودمار • ولم يكن يلاحظ فيها ولا مسكن محترم واحد • كما لم يكن عند أى أحد من الناس ، كبيرهم ووضيعهم ، الرغبـة الصادقـة ولا الوسيلة اللازمة لترميم البيوت وتحسين شكلها او حالتها ، ولذلك اصبحت الاكواخ المقامة فوق أنقاض القديمة منها أحقر في وصفها من الحد الاعتيادى • كما ان أرض السليمانية ، التي تبنى من طينها الدور ، هي من النوع الهش الذى يكون قليل المقاومة للعوامل الجوية ، فهي تتفتت حالما تترك لشأنها • فبفعل عدة أسباب وتأثيرها كادت البلدة أن تزول من الوجود تقريبا • على ان الاسواق كان منظرها أحسن مما كنت أتوقعه ، بالنسبة للحالة في بقية البلدة • لان الدكاكين معظمهـا وان كانت مشغلة من قبـل الباعة المتنقلين وباعة المفرد الذين يبيعون السلع التافهة ، فانها مع ذلك تتصف بشيء من حسن المظهر ، وكان من الممكن ان يلاحظ تجمع عدد غير يسير من الناس في الفسح المكشوفة التي تباع فيها منتجات القرى والارياف • فقد قيل لي ان السليمانية لا يزال يقيم فيها حوالي ألف الى ألف وخمس مئة أسرة ،

لكنني اذا أردت ان أحكم عليها من المظاهر أقول بأن الرقم الاول الذي ينطوي على مجموع يقدر بخمسة آلاف نسمة[1] على الاقل هو الاقرب الى الحقيقة اذا لم يكن أقل منها •

ولما كانت البلدة نفسها واقعة في منخفض من الارض فانها لا يمكن ان ترى الا من بعض المرتفعات المحيطة بها ، وأحسن منظر لها يبين للناظر من رابيتين متخذتين مدافن للموتى ـ فهما تصلحان للسكن أحسن بكثير مما تصلح له البلدة نفسها • وبنزولي من احدى هاتين الرابيتين التي كنت قد صعدت اليها لاحصل منها على منظر عام للريف المحيط بها طرق سمعي صوت نسائي يندب بنحيب عال ، فوجدت عن بعد بين القبور امرأة تجلس بالقرب من قبر حديث البنـاء كانت تبكي عليه وتعول بأشارات وحركات تنم عن أعمق الالم وأمضه • فذهبنا لنتبين أمرها ، لكنها كانت على درجة من الانغماس في حزنها وأساها بحيث أنها لم تعبأ بنا ، اذا كانت قد أحست بوجودنا حقا ، الامر الذي كان من المحتمل ان لا يقع لاننا تقدمنا الى حيث كانت تجلس • وقد كانت مشغولة بتزيين القبر بطريقة غريبة ، شائعة بين الفقراء ، وذلك بوضع أحجار صغيرة بيضاء اللون بأشكال غريبـة فوقه • ولكنها بين حين وآخر كانت تكف عن ذلك فتحرك يديها بما يدل على اليأس والقنوط ، وتتفوه بنبرات مهووسة من الغم والالم الممض الذي كان يدل على شيء غير متناه من المحبة والتعلق • وقد أثر حزنها وتدفق عاطفتها حتى على الخدم الذين كانوا يسيرون من ورائي ، وهـم القساة القلوب في الاحوال الاعتيادية • لان ذلك كله لم يكن شيئا يراد به التصنع ، او الظهور بمظهر الحزن أمام الناس • فقـد كانت المسكينة تجلس هناك وحيدة في تعاستها ، بعيدة عن سمع أي كان من الناس وبصرهم ، عدا المارة العابرين مثلنا ، وهي تصب حزنها في أذنه هو وحده ، الذي وجد من المناسب أن ينزل بها البلوى •

(١) أي بمعدل خمسة أفراد للاسرة الواحدة على ما يبدو •

فقال أحد الخدم « ان هذه المسكينة لابد أن تكون قد فقدت زوجا أو ولدا كان معيلها الوحيد ، لانك ترى يا سيدى ان مثل هــذا الندب لا يمكن أن يصدر الا ممن فقدت وحيدها . أما الذين لهم عوائل فيمكثون في بيوتهم ، وهناك يبكون ويندبون . »

وفي هذا اليوم طلبت الى الباشا أن يأذن لى بالسفر لعدم وجـود ما يدعو الى استمرار مكوثى فى عاصمته ، ولكونه هو المسكين كـــان منشغلا جدا بشؤونه الخاصة بحيث لا يستطيع أن يعير التفاتا كبيرا لضيوفه . على أنه كان قد اغتنم الفرصة وأشار الى خادمى من طرف خفى قبل هذا عما اذا كانت لدي أية بندقية أو مسدس أريد مبادلتهما بخيل أصيلة ، فانه كان يسره أن يفعل ذلك . ولما لم يكن لدي أي مانع من زيادة عدد خيولى ، باضافة حصان كردى أصيل اليها ، بعثت ببندقية زائدة كانت عندى ومسدس ذى سبطانتين لاجل أن يتفحصها ويرى رأيه فيها . غير أنــه قد تبين بأنه كان قد تنازل عن تلميحه الاول ، وربما كان السبب فى ذلك انه كان يأمل من قبل أن يجد البعض من هذه الاشياء طريقه اليه على شكل هدية ، حيث انه لم يوافق على مبادلتها بشيء فأعيدت الي . وعلى هـــذا الاساس بعثت ببعض الحاجات الصغيرة التى كنت أعتقد أنها يمكن أن تحظى بالقبول عنده كهدية . فقُبلت بتعارف وكلام لطيف . لكن التناقص القليل الذى طرأ على الترحاب الذى قوبلت به هـذا اليوم أدى بي الى الشك فى أن آمال سموه لم تتحقق على الوجه المطلوب ، فأعاقنى ذلك عن تكرار الزيارة له .

وقد اضطررت اليوم أيضا الى التعرض لاخفاق آخر من الاخفاقات المكدرة المذلة التى يتعرض لها الرحالون فى البلاد القلقة مثل هـــذه . فهناك على بعد عشرين الى خمسة وعشرين ميلا من السليمانية سهل متسع ينتهي به الوادى[1] الطويل الذى يستمد اسمه من اسم البلدة المشهورة

---

(١) لا شك انه يقصد وادي الشهرزور .

فيه ، وهو يحتوى كما يقال على بعض الآثار القديمة التى لم يرتادها الا القليل من الاوربيين حتى الآن • ومن الاشياء الاخرى التى تعطى الاهمية لهذا السهل انه يحتوى على موقع مدينة كان يسميها الاقدمون سيازورس Siazurus ، وتعرف أطلالها حتى اليوم عند الاهلين باسم شهرزور • ولابد أن يتبين لك في الحال من تقارب هذين الاسمين مقدار اللذة التى يشعر بها المختصون عند البحث فيه • ولو لم يدعو الواجب صديقي ماكنيل للعودة الى انكلترة ، فقد كنت آمل أن آتي به الى مثل هذا المكان البعيد وأنقب معه عن آثار شهزور القديمة • ولكنى حينما أحبط ذلك المشروع وعدته هو ووعدت نفسى أن أذهب الى هناك بنفسى وأقف على ما يمكن أن أجده أو أعثر عليه • وعند وصولي الى هنا قدمت طلبا الىالباشا ليأذن لي بالسفر الى هذا الموقع ويزودني بدليل يساعدني على زيارة هذا الجزء من بلاده • فلم يصدر منه أي اعتراض بادىء ذى بدء سوى بعض الملاحظات التي أبداها بعدم وجود شيء هناك غير بعض القمم والتلول الملأى بكسر الفخار والآجر ، وبعدم وجود أبنية أو صخور منحوتة • لكنه اعترف أن التلال كبيرة جدا ، وان هناك عدة مجموعات منها تقع كل منها على بعد غير يسير عن الاخرى • ولم تكن هذه الملاحظات لتثنيني عن رغبتي في مشاهدة المكان • ولذلك يمكنك أن تحكمي على مقدار ما أصابني من الكدر حين قال الباشا ، عندما بعث الخادم ليأتيني بالدليل الذي كان سيأخذني لمشاهدة المكان ، بأنه لا يمنعني من الذهاب الى شهرزور ومشاهدتها اذا كنت مصرا على ذلك لكنني اذا كنت سأقوم بتلك المحاولة فانها ستكون مخالفة لرغبته وما يشير به علي • فأنه يعتقد بأن المكان المذكور هو ملتقى اللصوص والشقاة ، واذا ما حدث لا سمح الله ان حصل شيء لخيولي فان شرفه هو سيمس بحادث ليس في مقدوره أن يمنعه أو يتلافاه • ثم قال انهم أكراد ــ بهائم ــ ومن هو الذى يستطيع الاجابة على ما يمكن أن يفعلوه بدافع الاغراء بما ستراه أعينهم من الثروة

الكبيرة التي يمكن أن تقع في قبضة أيديهم • والخلاصة أنني كان يمكنني أن أذهب على مسؤوليتي أنا لا مسؤوليته •

وهذا توسع في الاعتراض تعرف أهميته في الشرق معرفة جيدة ، وكثيرا ما ينتفع به في الظروف التي تكون فيها الغاية المنع عن القيام بشيء من الظهور بمظهر المعارض فيه • وهو يضع المسؤولية على عاتق المغامر الذي يصر على ما يريد برغم التحذير المناسب ويبرىء ساحـة اولئك الذين يحذرونه من عواقب تسرعه ــ وهي العواقب التي يعلم المطلعون على الشخصية الشرقية تمام العلم انها يمكن بكثير من الاحتمال ان يعقّدها عليه نفس الناس الذين يقدمون له الرأي فيها •

ولديّ أسباب تجعلني أشك في أن سبب احجام الپاشا عن الموافقة على زيارتي لشهرزور هو الخوف الذي كان يساوره من أن هذه الزيارة قد يكون من شأنها أن تدحض جهوده في الظهور بمظهر الفقير في نظر الرأي العام ، وخاصة في نظر الحكومة الاذربايجانية • لان تلك المنطقة على ما يقال من أغنى المناطق في باشويته ، وربما كان هو يفكر بأن غريبا مثلي يستطيع أن يخبر الجهات المعنية بالامر عن مقدار الغنى الموجود فيها • وعلى كلٍ فأنني بعد أن جربت كل وسيلة للتأثير على رأي الپاشا في هذا الشأن ، وحتى بعد أن طلبت ذلك بواسطة قائد الجند الايراني المرابط هناك ــ وهو بحكم الضرورة ذو تأثير كبير ، وكان يضحك على جميـع الاعتراضات التي اثيرت ضد الرحلة ــ قد اضطررت الى ترك المشروع والتخلي عنه • وقد كان الپاشا يصر على أن المجازفة عظيمة ، وأنه لا يسعه أن يسمح بالمحاولة ، ولذلك أكرهت على التخلي عن المجازفة بالذهاب الى شهرزور ليقوم بها بطل أكثر حظاً مني • وقد سمعت بعد ذلك أن الپاشا كان محقا الى مدى غير يسير ، لان المكان في مثل هذا الموسم يكون غاصا باللصوص الذين يتقاطرون اليه من الاصقاع الجبلية في كرمنشاه وهمدان

وأردلان ، ولذلك كانت حادثة النهب أو اللصوصية حينما تقع يصعب اكتشاف الفاعلين وانزال العقاب بهم •

وفي خلال الحديث لم أسمع سوى قليل من التفصيلات الاخرى عن شهرزور ، وها أني ألخصها على الوجه الآتي : تحد السهل من الشرق والجنوب جبال شاهقة كثيرة الوعورة ، وهو يحتوي على مواقع وأطلال خمس أو ست من المدن أو البلدان القديمة • وتسمى احداها القلعة ، وهي عبارة عن تل كبير عالٍ • وهناك بعد هذا ياسين تپه وگولعنبر ، وعربت ، وخرابة ، وغير ذلك • وقد أخبرني شخص أو شخصان أن أحجاراً ذات حجم كبير تحمل كتابات يعتقد انها مكتوبة بالحروف الاوربية (اليونانية) تستخرج أحيانا عند الحفر في هذه السهول • وهم يقولون أن أحد الباليوزات[1] من تبريز وجد حينما كان في طريقه الى بغداد حجرا من هذه الاحجار في عربت • وسمعت كذلك أن حجرا آخر من هذا النوع عثر عليه أثناء الحفر في بردكر ، وهي قرية تقع في أسفل الجبال الجنوبية الشرقية التي تحيط بالوادي • وقد حدثني أحد الشيوخ عن « بودخانة » ، أو معبد للصور ، وجد في احدى جهات السهل وكان فيه حجر مغطى بالاحرف التي لم يستطع أحد حل رموزها في هذه البلاد• وعلى هذا يبدو ان هذه المنطقة قد تصبح ذات يوم منجما للعاديات غير المستكشفة • والمقول أن السهول بأجمعه مغطى ببقايا الابنية القديمة ، ولكن من النادر أن يوجد فيها شيء غير الآجر والفخار وما أشبه •

وفي هذا اليوم أيضا جرت لي مقابلة مع محمد خان « سرتيپ »[2]

---

(١) الباليوز كلمة ايطالية الأصل ، استعملت في أيام الحكم العثماني لتدل على معنى القنصل الاوربي في البلاد التركية • وقد كانت تطلق على المقيم البريطاني في بغداد على الاخص •

(١) سرتيب كلمة فارسية تعني في الوقت الحاضر رتبة في الجيش بدرجة رئيس أول• وقد ورد اسم سرتيب محمد خان هذا في تقرير الفريق درويش باشا المعين لتعيين الحدود بين ايران والدولة العثمانية من قبل السلطان في حوالي سنة (١٢٦٠) للهجرة (طبعت

أو قائد القوات الايرانية في السليمانية ، وهذه القوة تتألف من أقل من أربع مئة رجل وثمانين مدفعيا مع خمسة مدافع عادية ومدفعي هاون • ولا شك انها قيادة صغيرة لكنها كافية تمام الكفاية لواجب ابتلاع البلاد والنهب حينما لا يستطيعون الحصول على ما يكفيهم بالطرق الاخرى • والحقيقة أن أى جزء من ايران أو البلاد المجاورة لها ليس في مقدوره بحالته الحاضرة أن يقوم بأعباء جيش فعال ويقيته • ويحاول الامير في كرمنشاه الابقاء على هذه الولاية تابعة لايران في وجه باشا بغداد الذي تتبع لحكومته في العادة ، وحينما يحاول تحقيق ذلك بأقل ما يمكن من الكلفة والمصاريف لحكومته هو يقوم بتخريب مستلكاته • على أن محمد خان بصرف النظر عن الجهة التي تؤخذ منها مصاريفه ، كان بطلا أهلا للحفاظ على سطوة سيده ضد العالم أجمع ! فأنك اذا ما أعطيته الوسائل والاذن اللازم يستطيع أن يبيد المير في رواندوز ، ويحبس باشا بغداد في داخل حدوده ما بين النهرين • حيث أنه بثلاث مئة « سرباز »[1] فقط ونصف هذا العدد من الخيالة استطاع أن يكتسح گرميان ، أو البلاد الواطئة ، على حد قوله ، من الموصل الى خانقين ومن كرمنشاد الى ما يقرب من أبواب بغداد • ولم يتوقف عن القيام بشيء هائل جدا في الحقيقة لو لم يعمد الباشا الى أتحافه بهدايا ثمينة وتقديم الكثير من العتاب والاعتذارات السلمية• والحق ان سرتيب خان ينتمي الى طبقة من الايرانيين

التقرير وزارة الخارجية العراقية سنة ١٩٥٣ بالعربية) • فهو يقول في البند رقم ٥٨ حول طوائف عشيرة البلباس : « •• وقد أرسل محمد باشا (المير محمد) قوة عسكرية الى كويسنجق واستولى عليها ••• ولم يستحسن المرحوم علي باشا (المتصود علي رضا باشا) والي بغداد هذه الحركة فارسل قوة مسلحة تحت قيادة سليمان باشا متصرف السليمانية لمحاربة محمد باشا ••• ولم يتمكن سليمان من القيام بأي عمل حازم وطلب نجدات من ايران وأرسل الايرانيون سرتيب محمد خان من تبريز مع قوة كافية وجرت معركة شديدة في قلعة دربند ••• فطلب محمد باشا الصلح فوافق الباشا المومأ اليه على ترك ثمانية قرى من كويسنجق الى السليمانية •• »

(١) سرباز كلمة فارسية تعني الجندي الراجل أو المنتمي الى المشاة

كبيرة العدد جدا ، أجاد في وصف أمثالهم موريير ، وهم أشد المتبجحين ضلالا في الطبيعة ومع ذلك لا تعوزهم الشجاعة مثل المتبجحين في معظم البلاد الاخرى • وبينما كنت استمع الى قصص الخان عن مآثره - ومقدار الثناء الذي كان قد حصل عليه من ملك الملوك والمقابلة (خلوت) التي حظي بها بالمثول بين يدي جلالته - وعن الخطابات الطويلة التي كان يلقيها الامير المالك ، والوعد الذي وعده به سمود بسيف مطعم بالذهب - وعن تذمراته المرة من عدم التقدير الذي تقابل به مزاياه ، فلا يدفع له الاجر الكافي ولا المخصصات اللازمة ، ولا يتمتع بالاجازات الضرورية لزيارة أسرته (التي فارقها منذ خمس سنوات) بل يؤمر بالعكس بالتوجه الى هنا وهناك في حملات اخرى لانه لا يمكن لاحد غير محمد خان أن يقوم بالعمل على أحسن وجه ، وبكلمة أقصر عن تذمره من الحقيقة الجلية بأن الحكومة كانت تعلم أي خادم صالح هو السرتيب خان ولكنها لم تكن تعرف كيف تستفيد منه - أقول بينما كنت استمع الى كل هذا تعلمت الكثير مما هو مهم وطريف ، الكثير مما كنت أرغب في الوقوف عليه بشأن البلاد وعدوها باشا رواندوز[1] ، وحصلت على الكثير من التسلية كذلك • هذا علاوة على انني قد أرضيت على ما أعتقد الخان النزيه الذي هو في الحقيقة رجل صادق مخلص ، يتناول كأسه كأي فرد منا •

أول تشرين الثاني

زالة[2] قرية كردية حقيرة تتألف من ستة أو ثمانية دور • أكتب اليك يا عزيزتي من هذه الحفرة الشقية التاعسة لانني قد توفرت لي ساعة من الزمن ، وليس لان عندي شيء مهم أكتبه • فقد غادرت السليمانية يوم أمس في حوالى الحادية عشرة قبل الظهر ، بعد أن بقيت انتظر

---

(١) هو كور محمد باشا - المير محمد - المار ذكره في الرسالة الاولى •

(٢) تقع اليوم في ناحية شيروانه التابعة لقضاء كفري ، ويسكنها قسم من قبائل الجاف ولا سيما الروغزادي والشاطري •

والحيوانات محملة والخيول مسرجة من السابعة صباحا . لان الباشا لم يف بالوعد الذى كان قد قطعه لي بتخصيص دليل يأخذنى فى الطريق الى بغداد . فالرجال العظام يأخذهم النسيان فيذهبون الى النوم ، ولا يتجاسر أحد على ايقاظ سموه . ولذلك جلست فى عدتى أضرب بمهمازى وأستشيط غيظا حتى حلت الساعة المعتادة التى يخرج فيها سموه من مخدعه ، فقال لخادمي ان أشغالى قد غابت عن ذاكرته ! وعلى هذه الشاكلة يؤدى طيش العظيم الى اتعاب الصغير وخسارته فى بعض الاحيان . وقد كان للمسكين شيء من العذر ، لان شؤونه الخاصة كانت تربكه . فقد اكتشفت بعد ذلك انه كان فى اليوم الذى استأذنته بالسفر قد ترأس جلسة سرية مشوشة مع أغواته ، عقدت للمناقشة فى كيفية تزويد ثلة من الجند الايرانى ببعض الضروريات التى كانت تبلغ تكاليفها حوالى مئتى تومان - فلم يستطيعوا على ما قيل جمع هذا المبلغ من السليمانية . وربما كان هذا ينطوى على جزء من البرودة التى كنت أعتقد أنها كانت بادية فى تصرف الباشا تجاهى فى تلك الحادثة .

وحينما حضر الدليل كان دليلا جيدا مناسبا ، كما كانت التعليمات التى زود بها دقيقة جدا بالنسبة لما يختص براحتى وسلامتى . فقد كان عليه أن يوصلنى الى كفرى ويكون مسؤولا عن سلامتى بقطع رأسه ، تبعا للطريقة الشرقية فى هذا الشأن . فبهذا الشكل تكتب الرسائل التى يزود بها السياح على سبيل التقديم من الامراء الى حكام الاماكن الواقعة فى طريقهم ، أو التعليمات التى تعطى للادلاء الذين يأخذونهم الى حيث يريدون . وهكذا فان عبدالله[1] خان حينما كتب عنى الى أخيه صمدخان فى سرادشت وسائر رؤساء القرى كان يرغب فى أن "أبعث فى الطرق الواقعة داخل حدود المناطق التى يشملها حكمهم بسلامة وشرف ، وان يفهم بأن أية قطرة من الدم قد تسيل من أحد خيولي يكون جزاؤها خمسة آلاف تومان .

---

(١) لابد أن يكون عبدالله خان هذا من رجال الباشا في السليمانية .

٣ تشرين الثانی

وبدلالة عول خضر أغا غادرنا السليمانية فی حوالی الساعة الحادية عشرة ، وبعد أن اجتزنا السهل تسلقنا الجبال الغربية التی تحيط بالوادی الطويل المسمی بأسمها ، الذی ربما يبلغ اذا ما اضيف اليه سهل شهرزور سبعين الی ثمانين ميلا فی الطول • ومن قمة الممر كان يمكن للعين أن تشرف علی بلاد تنفرد فی غناها ، وتنحصر بين السلسلة التی كنا نقف فوقها ، وعلی قمة بارزة الشموخ تقع علی مسافة غير يسيرة منا وتكوّن فی الحقيقة الحدود الفاصلة بين البلاد المرتفعة والمنخفضة • وقد كان عليّ فی الحقيقة ان أسمی الاراضی التی تقع بيننا وبينها واديا لانها كانت أخفض من الجبال المحيطة بها ، لكنها كانت حقا كتلة من أشد الجبال والوهاد وعورة تزينها هنا وهناك شجيرات البلوط والجوز المثمر فی الاماكن التی كانت تقوم فيها القری فی يوم من الايام ، والكروم وشجيرات الرمان والسماق التی لا تزال تنمو نموا سريعا كثاً •

ولقد شققنا طريقنا عبر هذه البلاد الوعرة الصعبة الی قرية كرَادة التی كان من نصيبنا أن نقضی فيها ليلتنا فی ذلك اليوم • فقوبلنا بكل امارات الضيافة فيها بتأثيرٍ من أوامر الباشا ، لكننا ُبلّغنا بأن نكون علی حذر تام من اللصوص الذين قيل عنهم علی الاخص أنهم كثيرون نشطون فيها • ومن صفات هذه القرية أن من المئة والخمسين الی المئتی بيت التی تكون منها يعود ما لا يقل عن ثلثيها الی سكانها اليهود • وقد ألفيت الاكراد واليهود هنا يمتزجون امتزاجا حسنا فيما بينهم •

وفی هذا اليوم وجدنا علی مسافة غير بعيدة من البلدة بركة جميلة غزيرة المياه تنبع من الارض وتتصف ، كما أكد لنا الناس ، بخاصية الابراء من الامراض • وقد كان منبعها الاصلی محاطا بسد من الحجر ، كما كان فی الماء المنحصر علی هذه الشاكلة عدد من الاسماك التی كانت تسبح

وتتحرك غير عابئة بأحد لان الناس لم يكونوا يتعرضون لها • على ان الجنود الروس الذين بعثوا الى هنا من أذربايجان كانوا قد عملوا على اصطيادها وتقليل عددها برغم الانذار بالموت الذى كان يصدر من الناس تجاه هذه الاساءة المدنسة للقدسية • فزعم أن بعض الذين أكلوا من هذا السمك قد ماتوا بنتيجة ذلك •

وقد تحدثت فى هذا اليوم مع دليلنا فى موضوع النذرگاهات ، (أماكن النذور) ، فكان تفسيره لها بسيطا • اذ قال لي « ان الشخص المريض حينما يرى فى الحلم أحدا من الائمة أو الرجال الصالحين يظهر فى بقعة خاصة فانه يعمر تلك البقعة ، وحينما ينال مراده الذى كان ينتظره يبادر الى تخليد المكان بمثل هذه الاكوام من الحجارة التى كثيرا ما نراها فى طريقنا اعترافا منه بالجميل وارشادا للآخرين عن هذه البقعة المقدسة • فيؤدى هذا الى مجيء المرضى الآخرين اليها واضافة أحجار اخرى فوقها، وبمرور الوقت تصبح الاكوام عديدة وكبيرة • وكثيرا ما يشد الذين انتفعوا بهذه الوسيلة قطعا من ملابسهم كذلك فى الشجيرات المحيطة بتلك البقع كما ترى • » وهو يقول أيضا ان قبور العظماء من الرجال ، أو الذين يقتلهم اللصوص أو يقتلون خيانة ، لا توضع فوقها هذه العلامات ، ولا تلقى مثل هذا النوع من الاحترام والتوقير • لكن عمودا يحمل علما فى أعلاه قد يرفع أحيانا ، أو قد توضع بقربه علامة غير هذه لتدل المسلمين الصالحين على المكان الذى يجب أن يترحموا فيه على الموتى •

وقد تحركنا فى السابعة من صباح اليوم الثانى • فمررنا فى طريقنا بمواقع عدد من القرى المهجورة التى كانت يوما ما تسبغ الحياة والجمال على مرابعها ووديانها الصغيرة • لان السكان قد هربوا عن هذه البلاد المنكودة الطالع وأخذوا معهم ما كان فيها من سلم وازدهار ، فخلفوها فريسة للطغاة واللصوص • وفى طريقنا هذا اليوم شاهدنا الكثير من آثار

العنف والضغينة ، لاننا في مسافة لا تزيد على اثنى عشر ميلا أبدلنا حراسنا وأدلاءنا مرتين • اذ لا يجرأ سكان القرية الواحدة على الدخول في حدود القرية الاخرى • وقد قص علينا دليلنا عول خضر أغا قصة طريفة في هذا الشأن ، وهي ان قبيلة الهماوند التي تشغل بعض الاراضي القريبة من هذه المنطقة ، والتي أكد لي أنها لا تزيد في عددها على الخمس مئة أو الست مئة أسرة ، قد جعلت من نفسها عشيرة قوية تجاه عشيرة اخرى هي عشيرة الجاف[1] التي تعد بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف بيت أو

---

(١) والجاف عشيرة كبيرة من العشائر الكردية التي تتالف من اناس مقيمين في مختلف القرى والارياف التي تمتد من لوائي كركوك والسليمانية في العراق الى منطقة جوانرورد في داخل الحدود الايرانية ، ومن قبائل رحل يتجولون في ضمن المنطقة هذه أيضا • وتتألف العشيرة من قبائل عدة تنتشر في جهتي الحدود العراقية ـ الايرانية • وليست هناك رئاسة خاصة للعشيرة كلها وانما يترأس كل قبيلة من القبائل المنضوية تحت لوائها رئيس من أسرة الامارة المعروفة عندها وهي اسرة ظاهر بك ، أو (زاير) بالكردية ، الذي يرجع بنسبه الى بيرخضر شاهو الجد الاعلى الذي قدم من ايران (منطقة جوانرود) • وهو رجل من السادة الهاشميين ، كانت له رئاسة دينية في بادىء الامر • وقد تفرعت الامارة الى ثلاثة فروع : (١) بهرام بيكيه (٢) كيخسروبكيه (٣) ولد بيكية • وقد لعبت قبائل الجاف بوضعها هذا دورا فعالا في الخصومات التي احتدمت بين العثمانيين والايرانيين حول الحدود والمطامع الاقليمية . واستفاد من ذلك على الاخص امراء البابانيين الذين كانوا يتناحرون على الحكم في المنطقة •

وقد اقتضت الاحوال السياسية في الاخير أن تنقسم قبائل الجاف الى جمهرتين أو مجموعتين : (١) جاف العراق او جاف مرادى و (٢) جاف ايران او جاف جوانرودي • وتسكن قبائل الجاف العراقية في ناحية شيروانة التابعة لقضاء كفري ، ومنطقة شهرزور التابعة لقضاء حلبجة في لواء السليمانية • ومن اشهرها قبائل الميكايلي والروغزادي والطرخاني والشاطري والهاروني والعصداني والبوداخي والبزدانبخشي والنجم الديني والكلالي وغير ذلك •

أما الهماوند فهم من القبائل الكردية المعروفة بالشجاعة والبسالة ، ويقيمون في منطقتي جمجمال وبازيان اللتين يمر منهما طريق كركوك ـ السليمانية الرئيس في الوقت الحاضر ، ولا تعد قبيلة الهماوند من القبائل الكبيرة ، ويعتقد بعض المؤرخين انهم في الحقيقة تفرعوا عن عشيرة الجاف الاصلية • وقد جاء في كتاب (عشائر العراق الكردية) ان لغتهم لا تختلف عن لغة الجاف ، لكنها تختلف عن لغة أهل السليمانية وأطرافها المعروفة بلغة الكرمانج • ومن وقائعهم المعروفة في تاريخ العراق الحديث مناوأتهم الباشوية بغداد واضطرار الوالي عمر باشا سردار أكرم الى تأديبهم بقسوة والتنكيل بهم فأدى ذلك الى عزله • ولهم موقعة معروفة مع الجاف جرت في مكان يقع بين جمجمال والسليمانية يسمى (كرده لربويه) قتل فيها ابن كيخسرو بك الجاف •

خيمـــة بحيث لم يعد بوسع أى رجل من الجاف أن يتعدى الى تخومهـا لانه اذا ما فعل ذلك سرعان ما يقتل بدم بار • بينمـا يركب الهمـاونـد بجماعات تعد الواحدة منها عشرين أو ثلاثين خيالا فيذهبون الى الجاف وينهبون بيوتهم • لكننى أعتقد ان قوله هذا فيه شيء من المبالغــة ، لان الجاف يستطيعون أن يقدموا الى الباشا ألف خيال مقتدر في وقت الحاجة• وهم يقطنون في الغالب منطقة شهرزور ، لكنهم ينتشرون أيضا على طول خط الحدود • هذا وقد اغتنم أحد اولئك التعساء من الجاف فرصة مرور قافلتنا فحمل نبالته ووجاهته سالمة الى خارج المناطق المخطرة •

وقد تم آخر تبديل لحراسنا في جعفران بالقرب من سفح ممر سگرمة، احدى بوابات كردستان الكبيرة في هذه الاصقاع • ولما كان قد رافقنا من هناك اثنان من الخبثاء الجريئين الشبيهين باللصوص فقد علق دليلنا عليهما بقوله انهما يعدان بعشرين فارسا • ثم استطرد قائلا : « ان اللصوص يخشونهما ولا يجرأون على مهاجمتنا بوجودهما ، لكننا يجب علينـــا أن نكون حذرين على كل حال ، ولتكن حيوانات الحمل غير متباعدة ، ونحن سنكلف أحد هذين بأن يسير في المقدمة • » فجدّ رفاقي في السير بعد أن صدر لهم مثل هذا الانذار ، وهم الذين يلجأون في كثير من الاحيان الى حيلة التلكؤ والتباطؤ الخبيثة ، حتى وصلنا الى شدقي الممر بالسرعة اللازمة •

فوقفنا هنا وقفة قصيرة ، لكننى سررت لذلك لانها مكنتني من أخذ رسم تخطيطي سريع لهذه البوابة الطبيعية الفريدة ، التي يسميها الاهلون تسمية في محلها فيطلقون عليها اسم « دربند » • وقد استغرق صعودنا ساعة ونصف ، وفي النهاية وقفنا فوق القمة متطلعين من الخلف الى البـــلاد الجبلية الموحشة التي اجتزناها • أما من الجهة الاخرى فقد كانت تمتد الاصقاع المنخفضة التي بقي علينا أن نجتازها قبل أن يكون بوسعنا الوصول

الى عاصمة الخلفاء العتيدة . أقول الاصقاع المنخفضة لا المستوية ، لأن البلاد التي صارت تمتد أمام أعيننا الآن كانت بعيدة كل البعد عن الاستواء على كونها من حيث الارتفاع النسبي أوطأ بكثير من المناطق التي خلفناها وراءنا . فقد كانت تقوم أمامنا قمم واطئة من التلول الجرداء المعتمة التي كانت تمتد امتدادا متسلسلا حالت كثافة الجو دون اكتشافنا لنهايته . أما الفسح التي كانت تتخلل تلك القمم فقد كانت تتقاطع معها على نفس النمط سلسلة من الروابي والآكام الصغيرة . فكان المنظر العام بذلك مقفـــرا ومعتما . ومع هذا فقد كانت هذه بلاد الآشوريين الاصليـة ، مهـــد الامبراطوريات الجبارة ، ومنبت الملوك العظام في الازمنة الغابرة . ولم يكن يدور في خلد أحد أن هذه المفازة الصخرية الجرداء كانت بلاد سميراميس العظيمة ، أو ساردانابولس[1] المترف . على انها قد تكون الموطن اللائق لـ « نمرود الصياد الجبار » .

فأدت بنا نزلة صخرية مخيفة ، ومسافة عدة أميال قطعناها في البلاد المنخفضة التي أتيت على وصفها ، الى هذا المكان المسمى زالة ، انها مكان حقير جدا كما بينت من قبل ، والحقيقة انني لم أر أسوأ من هذا المكان للمبيت .

وقد أزعجنا في هذا المكان ، وفي المنزل الذي نزلنا فيه الليلة الماضية ، ما نشب من خصام بين مهمندارنا [2] وأهالي القريتين حول الشعير والتبن الذي كان يجب أن يقدم لخيولنا ، والطعام لنا . فقد أشرت أكثر من مرة قبل هذا الى العادة الشائعة في هذه البلاد ، بأن المرموقـين من الاجـانب والاشخاص الموصى بهم من الاصدقاء أو السلطات الحاكمة يعتبرون ضيوفا عامين وليس مختصين بشخص دون آخر ، وهم والحالة هـذه يزودون

---

(١) سميراميس هي ملكة آشور الاسطورية قريبة الآلهة عشتار ، اما ساردانابولس فهو أشور بانيبال الملك الآشوري بن أسرحدون وقد ورد ذكره في الانجيل باسم اسنابر .

(٢) مهمندار كلمة فارسية بمعنى الرجل الذي يتولى شؤون الضيوف .

بالطعام والمنام على حساب الحكومة الاسمى أو الخانات وحكام الاماكن الواقعة على طريقهم • وهذا امتياز تعد مساوؤه أكثر من فوائده • فمن الطبيعى أن السائح من دونه لا تتهيأ له الفرصة للاتصال بالطبقات العليا من الناس ، وقد يمر بالبلاد من دون أن يتسنى له الاطلاع على أى شىء من عاداتهم وأحوالهم • لكنه فى كثير من الاحيان يصبح قيدا يعيق تحرك السائح وترتيباته ، لانه لا يستطيع اتخاذ ما يلزم للبقاء فى بعض الاماكن أو التوجه الى اخرى من دون مساعدة مضيفه وموافقته عليها • وقد تكون آراء المضيف نفسه مختلفة عن آراء ضيفه ، أو مؤديه الى الحيلولة دون تحقيق أعز رغباته عليه •

وفى هذه الحالة ، كنت أنا ضيفا على الباشا فى السليمانية • وتتطلب الاصول المتبعة فى هذا الشأن أن أستمر على كونى ضيفا ما دمت موجودا فى بلاده • غير انه لما كان هذا يعد شيئا باهظا فى تكاليفه فقد ُحملت القرى التابعة له على تحمل النفقات ، وحتى لو كانت هذه النفقات تقيد على حسابه من قبل خدامه فان القرويين المساكين كانوا لا يستفيدون شيئا من ذلك لان الخدام يستفيدون منها هم أنفسهم ويلقون العبء على القرويين على كل حال • أما ما حدث فى الليلة الماضية ، فبعد كل ما فعله دليلنا عول خضر أغا لم يأت القرويون بالمقدار الكافى من العلف لخيولى ، ولذلك أخبرت خدامى الخاصين بشرائه على حسابى أنا • ولا أدرى اذا كانوا قد فعلوا ذلك أم لا ، لكننى دفعت المبلغ المطلوب • وفى هذه الليلة انتشر فى القرية النحيب والعويل ـ فقد حرمت نساء الاسر الخمس أو الست التى تتألف منها القرية من ذخيرتها الشحيحة من الحبوب ، وجاءت احداهن الى حيث كنت أمكث معولةً مولولة لتسترجع دجاجتها الوحيدة التى كانت قد ُاخذت منها قسرا ليدخل ريشها فى تكوين مخدتى ، فاستعادتها حينما كانت السكين تهم بذبحها • وببضع بنسات أمكن الحصول

على دجاجة اخرى ، غير ان المهندار تدخل في الامر لان شرفه وضع على المحك حيث أنه كان مسؤولا عن اعاشتي مجانا من جميع الوجوه ، عدا الربح الذي كان ينتظره لنفسه • ولذلك استرجع الدراهم قسرا من العجوز صاحبة الدجاجة وأعادها اليّ • وقد بذلت محاولات عدة لتسوية المشاكل بشراء ماكنا نحتاجه ، لكن الدراهم وان كانت تقدم بصورة سرية فان الناس كانوا يخشون المهندار بحيث يأبون تسلمها • وأخيرا ، فبعد أن تم اعتصار كل ما يمكن استخراجه كانت الطريقة الوحيدة التي كان يترتب عليّ اتباعها لتحاشي لعنات المجتمع المنهوب هو أن أبعث أحد الخدم سرا خلال الليل الى دور المتضررين فادفع لهم قيمة ما كان يؤخذ منهم مع اضافة قليلة • وكنت أعتمد في ذلك على نزاهة خادمي — وهو اعتماد قد يكون في غير محله بلا شك • لكنني لم يكن لدي وجه آخر للاختيار ، وأعتقد انه لابد أن يكون قد نفذ ما كنت أعتمد عليه فيه جزئيا على كل حال لان معظم الناس جاءوا ، حينما كنت أهم بالركوب في صباح اليوم الثاني ، يودعونني بوداع حار وتمنيات طيبة •

كفرى ٤ تشرين الثاني

ومن زالة ، المكان الذي أرخت به كتابي الاخير ، أوصلتني مسيرة اثنين وعشرين أو أربعة وعشرين ميلا الى ابراهيم خانچي احدى القرى الكردية التابعة لرئيس من رؤساء الكرد ، حيث كنا سنقضي ليلتنا • وقد أدت بنا الاميال الخمسة أو الستة الاولى من طريقنا الى بقعة صخرية فريدة لم أر مثلها قط • لكن مقدار العشب الذي نبت برغم ذلك في الربيع والصيف كان شيئا مدهشا • فلا يزال قسم منه نابتا حتى الآن ، بينما ترك القسم الاعظم منه بعد أن اشعلت فيه النار فسحا كبيرة من سطح الارض وهي سوداء ، مرقطة بالاحجار الرمادية •

ثم صعدنا بعد ذلك جبلا كثير الصخور يعلو الى ارتفاع غير يسير ، وهو آخر موقع ذي أهمية يحجز بيننا وبين دجلة • وقد كان أجرد من

من كل شيء عدا بعض العشب ، لكن شجرةً عظيمة من أشجار البلوط كانت تنشر ظلها فوق قمته ، وهي لابد أن تكون آخر ما بقي من غابة كانت تغطي هذه الجهات بأجمعها في يوم من الايام • وهذه الشجرة مدينة في بقائها لتقليد من التقاليد لا يمكنني تفسيره ـ اذ ربما يكون أساسه قد ضاع بمرور الزمن • لان جل ما يمكن معرفته اليوم في هذا الشأن هو أن المسافرين الذين يأوون الى ظلها بعد صعود متعب سرعان ما يزول عنهم التعب وتدب فيهم القوة لمتابعة المسير • وقد كانت محاطة بجدار من حجر ، ويطلق عليها « دور المندد » •

وعلى بعد عدة أميال من الممر الصخري الذي نزلنا هذا الجبل منه وقفنا لتناول فطورنا في قرية كردية حقيرة تسمى جان ريز ، حيث يسكن سليم أغا رئيس أكراد الدلو[1] من فروع البابوات في السليمانية • وحينما أشرفنا على القرية لاحظنا وجود رماح وخيول مسرجة ، ثم وجدنا عند وصولنا ان البك كان يعد العدة للخروج الى الصيد لانه كان محاطا برجال الحاشية المجهزين للركوب ، والذين كانوا يمسكون عددا من كلاب الصيد (السلق) بأربطتها ، ويحملون فوق قبضات أيديهم الصقور الملفوفة رؤوسها بالغماء •

وقد حصلت لنا كلمة قالها الدليل ، الذي تقدمنا بعدة ياردات ، على ترحيب مفعم بالمجاملة من هذا الرئيس الذي كان شخصا محبوب المظهر ، يتجاوز منتصف العمر ، بلحية يختلط فيها الشيب وتقاسيم تدل على قوة معتدلة • ثم استنكر الاعتذار الذي تقدمت به عن تطفلنا عليه واعتراض سبيل خروجه الى الصيد • وحلف برأس الباشا وعيونه هو بأنه يرحب بنا ألف مرة لا مرة واحدة • على أنه تأسف لان معدات الراحة عنده غير

---

(١) جاء في الص ١٧١ من كتاب العشائر العراقية (ج ٢) ان الدلو يسكنون في أنحاء كفري وأنحاء خانقين ••• ومنهم بيت البيرقدار ، كان رئيسهم يحمل بيرق البابان والآن هذا البيت في أنحاء الصلاحية (كفري) •

كافية ، وطعامه غير مناسب بحيث أنه يخجل من الاحتفاء بنا بهذه الوسائل . حيث قال « لكننا نحن الاكراد أناس خشن نعيش في السهول والجبال وليس عندنا في أي وقت من الاوقات ما نفاخر به ، والآن فان القليل الذي كان عندنا قد زال ـ فنحن ما بين أمير أو باشا ننشد رغيف الخبز . . » ثم مضى يقول وهو يأخذ قطعة من الخبز الاسود الذي وضع بين أيدينا على الصينية مع شيء من اللبن « أنظر ماذا نأكل ، فنحن وخيولنا نقتات على الشيء نفسه . لقد كان بوسعنا من قبل أن نقدم لضيفنا رغيفا من خبز القمح ، لكن ذلك العهد قد انتهى وعلينا أن نقنع الآن بالرخيص . . »

واستطرد بعد ذلك يقول في نفس الموضوع الذي كنت أحـــاول اخراجه منه بأسئلة أوجهها له ، أو بعلامات الاقتناع والعطف « فقد كنا نحن الاكراد في زمن من الازمان جنودا أقوياء ، ولم نكن نفكر بغـير الركوب والتدرب على الحرب بالسيف والرمح ، وبالصيد والبزدرة ، وما أشبه من الالعاب . لاننا كان عندنا ما يكفي لمعيشتنا وكان فلاحونـــا يزرعون الارض لنا ، لكن كل رجل منا مضطر اليوم لان يضع السيف والرمح جانبا وينصرف الى « الجفت » (أي الثورين لسحب المحراث) . وما هو نفع الجندي يا سيدي حينما يأخذ بمباشرة المحـراث ؟ لـكـن الايرانيين والباشا يتمادون في مطاليبهم كلها ، فماذا تكون عاقبـة ذلك ـ لا يبقى للفلاح سوى أن يلتجيء الى الفرار والذهـاب الى روانـدوز وكرمنشاه أو الموصل أو أي مكان آخر بدلا من أن يبقى حيث لا يستطيع تحمل اخوانه ـ ولهذا تخلو البلاد من سكانها كما ترى . . »

وقد كان البك كثير السؤال على الاخص عن الانكليز والروس مع أن جهله بالفريقين كان شديدا جدا ، فتركته وهو ممتن من زيارتي له على ما آمل . لانني بعد أن أشبعت رغبته بالبرهنة على قوة أسلحتي النارية ، وخاصة مسدساتي الصغيرة التي كان يحتقرها الى أن شاهد مفعولها وتأثيرها ، قدمت له هدية من بعض المصنوعات الانكليزية التي استأثرت بلبه الى حد كبير ، ثم افترقنا ونحن أحسن الاصدقاء .

فقلت لدليلنا عول خضر أغا حينما ابتعدنا « ان هذا الرجل المدنى ، هذا الاغا الذى استقبلنا بمثل هذا الاستقبال الحار ، ورحب بنا مثل هـذا الترحيب ـ لو فرضنا أننـا لم تكن معنـا أنت ولا أى دليـل آخـر من السليمانية ، والتقينا به وبقافلته فى البادية ، فانه لا أظنه كان سيتورع عن مهاجمتنـا ولسلبنـا لو كان بوسعـه أن يفعـل ذلك ؟ » فأجاب وهـو يضحك بملء شدقيه « أقسم برأس سليمان باشا ، وبرأسك يا سيدى أنك تعرف هذا الرجل كما أعرفه أنا على ما يبدو ، وقد أصبت كبد الحقيقة • ان سليم آغا هو ابن بجدتها والرجل المعد لهذا العمل • فهو عند الحاجة يأكل الخبز معك باعتبارك ضيفـا عنده وبعـد أن يودعـك بكلمات مثل « خوش آمدى وخدا حفيظ » يعمد الى لف لحيته وتبديل لفته ويتنكر هو ورجاله بحيث لا تستطيع معرفتهـم ، ثم يركب فيقطـع الطريق عليـك ويسلبك الى حد العري ثم يتركك • أنه أشد الاوغاد شرا فى كردستان وأكثر الاوباش فقدا للضمير • ان هذا الرجل يا سيدى سلب النسـاء وتركهن عرايا هائمات فى الصحراء • • »

ثم سألته قائلا : « هلا يعد هذا شيئا شائنا حتى فى كردستـان ؟ » فأجابنى الدليل يقول : « ان هذا شائن عندنا بحيث اننى لا أعرف الكلمات المناسبة لوصفه • لكن سليم أغا هذا هو حيوان لا حياء له ولا شعور • فان عنده تحت تصرفه حوالى أربعين أو خمسين خيالا ، يستخدمهم فى قطع الطريق بحيث يتعذر على القوافل وزوار كربلا القادمين من ايران المرور منه • وهو يجرد جميع من يقبض عليهم من كل ما يملكون • » فسألته : « ولكن ماذا يقول الباشا فى كل هذا ؟ ألا يعتبر الاغا من خدام سموه ؟ » « على وجه التأكيد » أجاب عول خضر أغا « وان الباشا لابد أن يحرق أباه اذا فعل مثل هذه الاشياء ، ولكن ماذا أقول يا سيدى ؟ ان الباشا عنده ما يكفى من المشاكل فى بلده ـ اننا لا نحتفظ بالحاكم فى منصبه مدة تكفى لان يصبح قويا بحيث يستطيع المحافظة على الهدوء التام والسكينة ، ولذلك

لا يسعنا سوى أن نبذل جهدنا على كل حال • ولكن سليم أغا هذا أشد الأنذال خبثا ، ألم يرك ذراعه يا سيدى ؟ اننا نقول هنا بأن ذلك كان عقوبة من الله جوزي بها على صنيعه الشائن • »

وبعد ذلك قلت له « حسنا ولكن رستم أغا الذى سنذهب الى بيته هذه الليلة انشاء الله ، أى نوع من الرجال يمكن أن يكون ؟ هلا يفعل مثل ما يفعله سليم أغا – ألا يسلبنا هو أيضا اذا تمكن من ذلك ؟ » فأجاب بقوله « هناك شيء من هذا القبيل في الحقيقة يا سيدى • انه رئيس قبيلة الزنگنة [1] ، ولكنه ولله الحمد من خدام سليمان باشا • ومع هذا فانه سيوصلك سالما الى كفرى انشاء الله • » فرددت عليه بقولى « انشاء الله ، انشاء الله ، ولكننى لاحظت من هذا كله أن كل رئيس من رؤساء الفروع القبلية هؤلاء يعمد الى اللعب بنفس اللعبة في هذه البلاد • » فأجاب « آه بارك الله سيدى ، لقد قلت الحقيقة ، ولكن هذا لم يكن كذلك دائما في أيام عبدالرحمن باشا والد سليمان باشا ومحمود باشا ، فلم يكن يحدث في أيامه أى شيء من هذا • فقد كان من الممكن لك أن تسير والجواهر فوق رأسك والذهب في يديك من أول الپاشوية الى آخرها ، أى من سرادشت الى كفري ومن كوي الى بانه من دون أن يسألك أحد عن أى شيء • ان الدنيا كانت هنا سلام عليكم ، وعليكم السلام • ولكن النزاع بين الاخوين هو الذى جر الخراب على البلاد وأنزل بها البلايا • فمرة محمود ومرة سليمان من دون أن يبقى أحدهما أكثر من ثلاث سنوات • وبعد ذلك تدخل العجم لتسوية النزاع فأخذوا البلاد لأنفسهم وأكلوها هم وجيشهم • ثم جاء في أثرهم الطاعون ، والمجاعة ، فعملا معا على استئصال شأفة الناس وابقاء الاعداء لنا • وأصبح الحال بحيث أن السرقة حينما

---

(١) جاء في الص ٣٥٨ من كتاب الشرفنامة للبدليسى (حاشية المترجم الملا جميل روزبياني) : وتقطن هذه العشيرة اليوم منطقة زنگنة المعروفة باسمها في ناحية قادركرم ، ويبلغ عدد أسرها (٨٠٠) أسرة يقطنون ٤٥ قرية تقريبا • وكان رئيسها عام ١٨٣٤م رستم أغا واليوم عبدالكريم أغا وآخرون •

تقع يتهم بها كل فريق الفريق الآخر ، أى خصمه • فخدام سليمان ينسبون انتهاك الحرمة لخدام محمود ، بينما يرد خدام محمود عليهم بأن يعزونها الى رجال سليمان • أما الحقيقة فهى ان الباشا لم تبق لديه القوة اللازمة لمعاقبة من يجده مذنبا أو من يقترف خطأ ، ولا للسيطرة على من تحدثه نفسه بالشر ، لان الايرانيين يلتهمون كل شىء يمكن أن يقع فى قبضة أيديهم وبذلك يضطر الرجال النزهاء الى الهرب فتبقى البلاد للصوص • »

ولم يكن هناك ما يقال ضد هذا الكلام الصريح الصحيح ، ولذلك غذذنا السير الى قرية ابراهيم خانجى[1] •

وقد كنا الآن فى وسط آشور القديمة تقريبا ، التى كنا فى الحقيقة قد دخلناها حينما اجتزنا الفتحة الاخيرة التى نزلنا فيها الى سهول السليمانية • والحق أن البلاد لم يكن فيها ما يدل فى الوقت الحاضر على أنها كانت مركزا للامبراطوريات قوية الشكيمة • فان هذه القمم الجرد وتلك الوعورة التى تخترقها الوهاد الجافة فتمتد من حولنا الى بعيد أو قريب لا يمكن أن تكون قد كانت يوماً ما مسرحاً للحوادث الجسام التى ينسبها التاريخ الى امبراطورية سميراميس وأخلافها حيث كان عدد لا يحصى من المتحاربين يتقاتل من أجل النصر والممتلكات المترامية الاطراف •

ومهما كانت المزايا التى كان يتحلى بها اولئك المحاربون الآشوريون، فاننا وجدنا أخلافهم قساة خشن الطباع مثل المناطق التى يعيشون فيها • فقد كانت ابراهيم خانجى ، القرية التى يسكنها رستم أغا ، عبارة عن مجموعة تتألف من حوالى مئة كوخ مبنية من الطين والحشيش • أما الديوانخانه ، كما كانت تسمى ، التابعة للرئيس التى أدخلنا اليها فقد كان بناؤها واهيا بحيث اننى توقعت أن ندفن بين أنقاضها اذا ما هب شىء

---

(١) وهى مركز عشيرة الزنكنة

من الريح أو سقطت مزنة من المطر خلال الليل • وقد استقبلنا ابنه الذى كان حدثا لطيفا لكنه كثير الفضول قليل الخجل ، له مثلهم جميعا أصابع كصنارة صيد السمك يضعها فوق كل ما تصل اليه يده • ثم جاء رستم آغا نفسه فى المساء ، وهو رجل خفيف الروح طلق المحيا ذو سحنة سمراء داكنة ووجه مدور وضحكة لا أبالية ، فاستقبلنا بمجاملة تهويشية صخابة • وقد كان من أولئك الشرسين الذين يكونون فى أحسن حالاتهم حينما لا يعاكسهم أحد ، كما قالت الممرضة السكوتلاندية عن طفلها المدلل — فهو يبتسم دائما عندما يكون على سجيته ، ويقطب حاجبيه حالما يستاء من أحـد •

فكنا متحفظين لدرجة ما فى بادىء الامر ، ولما كنت أحاول دوما التوفيق بينى وبين الناس فى كل المناسبات على قدر ما يمكن ، فسرعان ما تم التفاهم بيننا ودخلنا فى حديث ودى • لكن ذلك بدأ بشكل غريب • فحالما انتهينا من التعارف والمجاملات المطلوبة دعى خادمى الذى كان واقفا فى داخل الغرفة فسأله : ما أسمك ؟ ومن أين أنت ؟ وكم صار لك فى معية الصاحب ؟ وهل يدفع لك أجرا أو أن أحدا بعثك معه ؟ وهل أنت سعيد فى خدمته ؟ وبعد أن أجيب على جميع أسئلته هذه أضاف قائلا بلهجة حازمة « أى المسدسات يملك سيدك ؟ أءتنى بها » فأشرت له بأن يأتى بها ، وسرعان ما أصبحت بين يدي الاغا • وعندما رأى أن الطبنجات لها عدتها الخاصة رماها جانبا بازدراء وهو يقول « انى أعرف هذا النوع من السلاح ، فان اثنين من طائفتك جاءا الى هنا قبل مدة من الزمن فقدما لى زوجين منها لكننى أبيت أخذهما ، فأى نفع فيهما لي ؟ انى أريد مسدسات من هذا النوع وأخرج مسدسين جيدين من مسدسات مورتيمر المزوجة ، لكنهما كانا متأكلين من الاستعمال • ثم قال « فلو كان عندك من هذه لاخذتهـا منك ، لكن مسدساتك هذه عديمة الفائدة • والآن قل لى هل لديك أشياء اخرى ؟ ان الاشياء التى أنا مغرم بها هى المسدسات والشال والستر مثل

هذه » وأشار الى سترته التي كانت من القماش القرمزي • « هل عندك شال كشميري مثل هذا ؟ انظر » قال هذا وهو يشير الى شال قديم مطرز بالفضة فوق رأسه • فقلت له ان السياح الذين يمرون من هنا في طريقهم الى بغداد لا يكون عندهم مثل هذه الاشياء عادة • والحقيقة انني لا أملك الآن سوى فراشي وملابسي الخاصة • فرد عليّ قائلا « لا شيء ، انظر هذا بعض ما أعطاني اياه الافرنج الذين حدثتك عنهم » وأخرج سكينــة « سپورت » من صنع انكليزي •• ثم ابتدرني قائلا « حان وقت الصلاة ، يجب عليّ أن اصلي » وفرش السجادة على الارض بجنبي وبدأ بصلاته (نماز) •

وأخيرا انتهى منها والتفت اليّ • وكنت في هذه الاثناء قد أخرجت سكينا كبيرا كنت قد خصصته لاستعمالي أنا أثناء السفر ، فقدمته له باعتباره سلاحا ذا فائدة كبيرة في القتال والسلم ، وهو من أحسن مصنوعــات انكلترة • فتقبله بلطف وبشاشة ولاح لي ان أساريره قد تفتحت بعض الشيء ، لانه أصبح ينكت ويمزح •

ثم تطرقنا الى أحاديث كثيرة من هذا القبيل ، وقد توصلت منها الى أن البك كان يعرّض بالهدايا على الدوام • فقد أشار عدة مرات الى ما كان قد أهدي له من السياح الآخرين • ولما كنت راغبا في تكوين أصدقاء كثيرين على قدر ما يمكن لفائدة الذين قد يمرون بعدي من هنا اغتنمت فرصة تذمره من مقص ايراني كان يحاول عبثا أن يقص به قطعة من الورق ، فأهديته مقصا انكليزيا ممتازا • فزاد هذا في مقدار ما كان قد سببه عنده السكين قبلا من الرضا والســرور ، وأخــذ يثني بكثرة على الانكليز وسلعهم الممتازة • ثم تطرقنا في حديثنا الى أكل لحم الخنزير وتناول المسكرات وأوجه تحريمها ، والى موضوع الاشبــاح والارواح الخبيثة فكان البك غير ملم بشيء عنها • غير أنه مع ما كان عنده من خشونة طباع وعادات افتراسية نهاية كان يؤمن ايمانا غير يسير ببعض الخرافات ،

وهذا شيء شائع بين أهل المكر وقطاع الطرق .

والظاهر ان يوم التوبة، بالنسبة للنهب وسفك الدماء، لا يزال بعيدا عند رستم بك . فقد أسهب في وصف المعارك التي خاضها ومقدار السلب الذي حصل عليه بحماسة وحرارة كانتا تدلان على مقدار الخبث والشيطنة المتأصلين فيه . ثم قال لي انه كان قد جرح عشر مرات على الاقل برغم أحسن الدروع التي يملكها . وهو يقول « عندي دروع من كل نوع ، وقد كنت استعملها على الدوام ، لكنني تعلمت أن لا أعتمد عليها الا قليلا بل أعتمد على الله وحده » . وقد ضم صوته للآخرين في ندب الايام السود التي حلت بالعنصر الكردي . فهو يقول « أن أزمنة الاكراد الذهبية قد ولت . اركب وتجول في البلاد فأية روحية وأية حيوية تجد فيها ؟ ان جميع الخيالة الماهرين والرجال الشجعان قد قضوا نحبهم ، أو هربوا الى بلاد اخرى ، أو تسلموا المحراث اضطرارا للحصول على المال الذي يدفع للپشا ولاعالة الزوجات والاطفال . وأي نفع يبقى في الجندي حينما ينصرف الى المحراث يا ترى ؟ » فصدقته على ما قال حول زوال امارات الرفاهية والازدهار من البلاد ، لكنني قلت له ان الناس كلهم على ما يبدو لم ينصرفوا الى المهن السلمية وتبرهن على ذلك أخطار الطريق . فأجابني بقول « ان هذا بسيط ، انها ليست سوى بعض حوادث للسرقة والنهب هنا وهناك ، فلا وجود الآن لعصابات الخيالة الباسلة . لكنك أرجو أن تطمئن بأنني أنا رستم بك أتعهد بضمان سلامتك ، وسوف لا يمسك أي شيء ما بين هذا المكان وكفري . أنت رجل طيب ممتاز ، واني أودك وأقدرك حيث أنك لا تشبه البعض من أهل بلادك الذين قابلتهم قبل هذا ، ممن لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا سوى الاكل والنوم ، ان عيونك مفتحة وعندك ذوق . اطمئن ، فسوف ترى كفري سالما يوم غد . »

ولا شك أنك قد عرفت الآن ما يكفي عن رستم أغا . لقد أغريت على وصف شخصيته والكتابة عنه بشيء من التفصيل لانه نموذج ممتاز

للرئيس الكردى المتوحش • وقد زودنا فى صباح اليوم التالى بدليل للطريق ورسالة الى كفرى ، مقسما فيها بعيونه وبحياة ضيفه نفسه بأن لا تمس ولا شعرة من رأسي في أى مكان تكون فيه كلمته مسموعة •
وهنا كذلك سوف أترك التحدث عن أصدقائنا الاكراد الخُشْن الذين ربما تكونون قد مللتم من تحدثى عنهم • فهم مثل سائر الامم والرجال مخلوقات من نتاج الظروف والتثقيف ، لكنهم يتصفون بصفات قومية خاصة يمكن أن تتحول الى الاعتبار الصالح • فانهم شجعان وأصحاب ضيافة الى حد معين ، لكن الصفة الاخيرة قد تضاءل شأنها فى السنين الاخيرة الى حد مؤسف بسبب الفقر والجور • وهم مثل معظم الاقوام التى تعيش عيشة الرعاة وتحكم بحكم شيخى معروف يتميزون بحب قوى للاهل والعشيرة ، مما يجعلهم شرسين عنيفين فى تخاصمهم وتشاجرهم •
فيتبنون الضغينة والثأر الناشيء عن الاساءة الحاصلة لقريب من الاقارب ويطورونها بسلسلة من القتول الخالية من الرحمة والضمير • وهم وان كانوا بعيدين بطبيعتهم عن القسوة فان هذه الضغائن ، وتولعهم بشؤون القتال والنشاط الحربى ، تميل بهم الى أن يصبحوا تحت رحمة الطيش فى سفك الدماء وتؤدى بهم الى أن يضعوا حياة الانسان من حيث الاعتبار فى مستوى أحط من المستوى الذى توضع فيه فى البلاد المسالمة • ومع ذلك فان حروبهم تكون غير مميتة ، وان نفس الشعور بالعواقب غير المتناهية المتأتية عن سفك الدماء يعمل على كبح عواطفهم كبحا ناجعا حينما يكون مجرد الشعور بالرحمة أو الحس الاخلاقى بفظاعة الجريمة أضعف من أن يستطيع الحيلولة دون وقوع القتل • وهكذا تكون الحالة فى الحقيقة بين القبائل نصف المتوحشة ، حينما ينعدم وجود قوة مهيمنة عليا تستطيع ممارسة السيطرة المطلوبة • واذا ما أراد المرء أن يكوّن فكرة قريبة الى ذهنه عن الاكراد أو التركمان أو حتى العرب ، من حيث النزاع والتعامل الاجتماعى ، فعليه أن يتصور ما كانت عليه الحالة فى مرتفعاتنا السكوتلاندية قبل قرنين من الزمن •

أما بالنسبة للاشخاص فان الاكراد فعالون وأقوياء ، ولا يختلفون الا قليلا من حيث الاساس عن جيرانهم الايرانيين • غير أن قسمات الوجه القومية لها شكلها الخاص البارز بصورة تلفت النظر • فهيئة التقاطيع حادة ، وشكل الوجه بيضوى ، والصورة الجانبية تلفت النظر من حيث بروز عظام الانف وتقهقر الفم والذقن ، الامر الذى يسبغ على الشكل العام شكلا نصف دائرى • أما العيون فمتأصلة بعمق ، وهى غامقة اللون، سريعة ومدركة • وتكون الحاجبان كثين واضحتين لكنهما تميلان قليلا الى الوراء لتكملة الشكل المفروض للصورة الجانبية • أما شكل التقاطيع العام فهو أكثر دقة ونحافة منه عند الايرانيين الذين يكونون فى العادة أقوى بنية من الاكراد • ومن النادر أن تجد الانف الافطس فى كردستان • ويكاد يكون الفم كامل التكوين ، بأسنان لطيفة دقيقة•وتكون الايدى والاصابع صغيرة ونحيفة • هذا ويمكن أن نقول باختصار أن هناك شيئا من الرشاقة والانسجام فى الشكل الكردى ، الامر الذى يجعل منهم أمة وسيمة مليحة ما بين امم العالم الاخرى •

وتنطبق نفس النقاط على النساء أيضا ، بقدر ما تدل عليه الملاحظات التى أمكننى التوصل اليها • فهن حينما يكن شابات جميلات للغاية ، لكنهن حينما يتقدمن فى السن أو حتى عندما يصلن الى دور النضج فان بروز التقاطيع الحاد الذى يتميزن به مع الرجال يبتعد بهن ابتعادا أكيدا عن حد الجمال ، وسرعان ما يبدو عليهن الكبر والذبول • فقد اتيحت لي فرص عدة لملاحظة هذه التفصيلات فيهن لانهن لا يتحجبن كما تتحجب النساء الايرانيات ، وغاية ما يصنعن من هذا القبيل هو أن يسحبن المنديل الذى يغطين به رؤوسهن الى حيث يحجبن به الفم والذقن عن النظر • لكننى آسف لاننى لم أتمكن من متابعتهن الى داخل البيوت حتى استطيع وصفهن فى عملهن البيتى • على اننى عندى ، بالنسبة لما أعرفه ، ما يحملنى على الاعتقاد بأنهن فى حياتهن ، وواجباتهن ، وأعمالهن ، يشبهن نساء

القبائل الايرانية شبها قريبا من جميع الوجوه • لكن نساء الطبقة الموسرة التي تعيش في المدن يبقين في حرم أزواجهن أو آبائهن ، ويتحجبن حينما يخرجن الى الخارج •

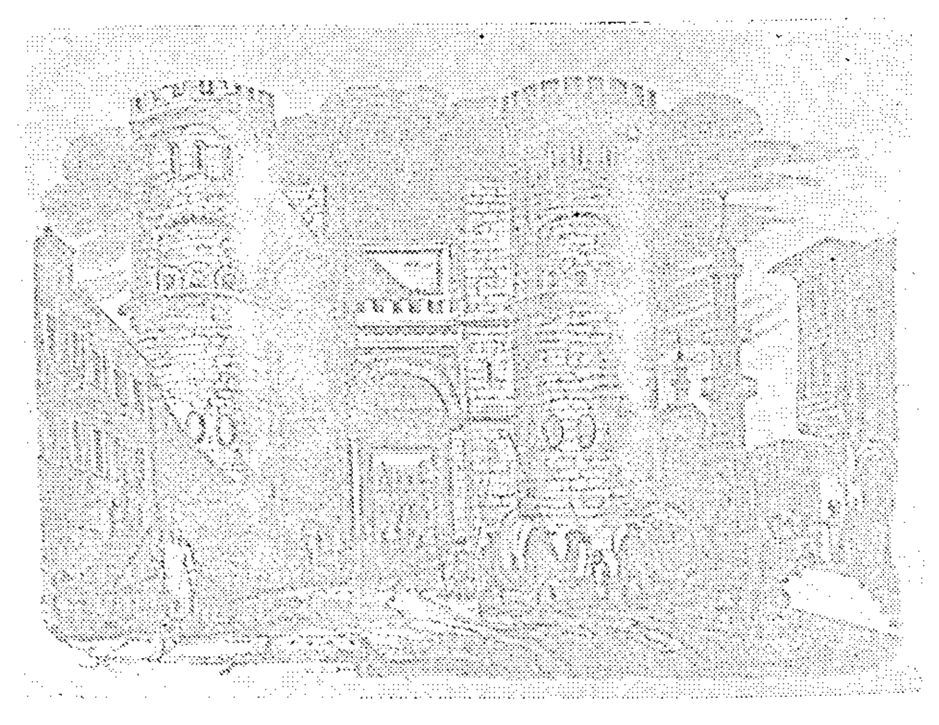
ها قد وصلنا كفرى بعد أن اجتزنا حوالى اثنين وعشرين ميلا من البلاد المقفرة غير المهمة ، التي كانت تشبه الى حد كبير المرحلة الاخيرة من الطريق ، سوى ان السهول أصبحت اكثر اتساعا هنا بالنسبة للمناطق المرتفعة • لكن الحريق العام الذى تعرضت له على ما يبدو يسبغ على وجه الارض كله مظهرا كريها • ولم نجد كذلك أية قرية من القرى في طريقنا كله • على اننا كنا غير راغبين في مشاهدة أى نوع من البشر ، فليس من المحتمل أن يكون الناس الذين نصادفهم في هذه الاوعار ممن يمكن مصاحبتهم او السير معهم •

وتقع كفرى في مدخل فتحة تنفتح في سلسلة من الجبال الواطئة ، الجرداء بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى • فهي تتألف من قمم طبقات بارزة جدا ترتفع فوق السهول وكأنها قد اتلفت بالنار الفطرية منذ الأزل • لكن البلدة نفسها ، المسورة بسور يدور حولها ، كانت تبدو بمظهر مغر حينما ينظر اليها من الفتحة التي أدت بنا اليها • وكانت أشجار النخيل المرتفعة الى ما فوق السور ، وهو أول نخيل يقع نظرنا عليه ، تشعر الجميع بدخولنا الى « عربستان »[1] • كما كان التبدل في الازياء ومظهر الناس يؤيد بأننا أصبحنا الآن في داخل الممتلكات التركية •

هذا وقد وجدنا طريقنا الى دار عرفنا انها أعدت لتكون منزلا لنا ، وكان يجلس خارجها فوق بعض السجاد عدد من العثمانلي المتزمتين الذين رحبوا بنا بأشارات تدل على المجاملة ، ولكن بكلمات معدودة • وكان الخدام من الاتراك ، كما كان كل شيء من حولنا يشير الى التبدل الذى

(١) لا شك انه يقصد بذلك بلاد العرب لا « عربستان » المعروفة في جنوب ايران

كفري فى ١٨٢٧



من أبواب السور ـ الواجهة الداخلية



حصل في البلاد والناس • ولأول مرة في هذه الرحلة لم يحصل اختلاف هذا المساء حول الشعير والتبن للخيول ، أو الزاد المقدم لنا • فقد كان كل شيء مهيأ لنا بالتمام وبكامل الحرية ، من دون كلام او سؤال • على أنني لاحظت ان عادة واحدة فقط كانت تبعث على الاشمئزاز ، فان الخدم بدل ان ينتظروا ما يمكن ان تقدمه لهم على سبيل المجاملة عند الخروج ، يهجمون عليك كلهم مرة واحدة ليطلبوا ، لا ليستجدوا ، البخشيش • وقد كان حتى السجان في هذه الحالة مع المطالبين به ، ولا أدرى على أي أساس كان يستند في ذلك • فوجدت ان الطريقة الوحيدة لمعالجة الوضع ان أعطي في الحال ما أراه كافيا وأرد بعد ذلك أية طلبات أخرى ••

٣

تحركنا من كفري ـ قره تبة ـ اخطاء الطريق ـ جبل حمرين ـ أدين كوي وجهانكير اغا ـ الادلاء العرب ـ منازل العرب ـ قلق ـ آثار الازدهار القديم ـ هبهب ـ دراج البادية ـ سهل بغداد ـ خبر غير سار ـ بغداد في حالة حرب ـ التوقف في الباب ـ الوصول الى المقيمية .

بغداد ١٣ تشرين الثاني ١٨٣٤

ها قد وصلنا في الاخير يا عزيزتي ـــ الى مدينة بغداد العظيمة ، عاصمة الخلفاء ـ عاصمة هارون الرشيد وزبيدته الجميلة ـ ومقر جعفر البرمكي ، ومسرور رئيس الخصيان ، وجميع الرجال مثل أبي الحسن وعلي خوجة ، والسيدات والحمالين ، والمفتونين والمفتونات الذين تتحدث عنهم « ألف ليلة وليلة » . فوا أسفاه ، كيف عفى عليها الزمن . لكننا لنتمهل قليلا ولا نتحدث عن الاشياء قبل أوانها .

فقد زودنا مضيفنا في كفري سليم أغا بدليل الى المرحلة التالية ، لكنه أوصانا بألحاح أن لا نبدأ برحلتنا قبل الصباح ، ولذلك لم نتحرك قبل بزوغ الفجر . والحقيقة ان هذه المرحلة كانت مرحلة مخطرة ، لان الطريق بالنظر لوقوعه على الحدود بين الاكراد والعرب تماما كان يتعرض للسلب والنهب من الفريقين معا ، ويصعب اكتشاف الفاعلين فيه . وقد كنت أنتظر أن يتصدى لنا في الطريق صديقانا القديمان سليم بك ورستم أغا ، لانهما وقد خرجنا من منطقة نفوذهما ربما كان يروق لهما أن يقوما بفحص أدق لعفشنا وكراعنا . اذ كانت هناك عدة أماكن مناسبة للكمين ، وخاصة قاع النهر الملأى بالقصب وبعض الوهاد المنتشرة في سلسلة الجبال الواطئة التي كان يتحتم علينا اجتيازها . ولذلك طلب الينا دليلنا أن نعد أسلحتنا النارية للاستعمال ونركب بحذر . على أننا استطعنا الافلات ، كما تم لنا في عدة مناسبات من قبل ، فوصلنا قره‌تبه وهي قرية صغيرة كثيرة الاوساخ بعد مسيرة عشرين ميلا . وقد ثبت أن الحيطة التي

أوصانا بها مضيفنا في كفري كان لها ما يبررها ، فقد سلبت قبل اسبوع أو عشرة أيام قافلة في النهر الذي أشرت اليه • وحينما سمع بها سليم أغا في كفري ركب بنفسه مع خمسة عشر خيالا فلحق باللصوص وقتل ستة أو سبعة منهم ثم أسر عددا مماثلا • ولأجل أن يبرهن لنا على ذلك ، على ما أحسب ، أرانا الحصان الذي ركبه حينما قام بهذا العمل الباهر • فكان كميتا جميلا يبلغ أربع سنوات من العمر ، رفض أن يبيعه على ما قال لي بمئة تومان أو ما يقابل خمسين باونا استرلينيا • وقد كنت أنا مستعدا لان أدفع له ذلك المبلغ في الحال لو كان يوافق على التخلي عن ذلك الحيوان الاصيل •

وكان بودي في هذه الليلة أيضا أن أبدأ بمسيرة طويلة ، لكن علي أغا ضابط القرية صرح لي بأنه لا يستطيع أن يسمح لي بالتحرك قبل الصباح لنفس السبب الذي قدمه مضيفنا السابق — وهو انعدام الامان في الطريق • فوفقت بين الرأيين بالركوب في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل ، لكننا تمنينا بعد ذلك لو تأخرنا في الركوب الى بزوغ الفجر برغم المسافة التي قطعناها • لاننا ما ابتعدنا عن القرية مسافة نصف ميل حتى علمنا أننا قد نسينا رزمة من أمتعتنا فبعثنا خيالا ليأتينا بها • وحينما استفسر عنها في المنزل الذي كنا فيه أنكر صاحبه كل علم بها ، لـكنـه أضاف قائلا « ان عشرة من الخيالة مروا بقرب الباب بعـد أن تركتـم المنزل ، وربما كانوا هم الذين أخذوا الرزمة • • » وحينما سأله بخـوف ووجل « من أين أتوا والى أين توجهوا ؟ » أجابه قائلا « لا أعرف ذلك ، لكنهم كانوا يتعقبونكم على ما يبدو • • »

فكانت هذه أخبارا غير سارة ، وكان لها تأثير مخدر واضح عـلى دليلنا الذي بادر في الحال الى الانحراف عن الطريق الاعتيادي وقادنا لاكثر من ساعة واحدة خلال سهل مكشوف كان على كل حال خاليا من العوائق بحيث تقدمنا في المسير من دون صعوبة • على أنه وقف في الاخير

وقال « يجب أن تكونوا على علم بأنني حتى الآن أقودكم في طريق فرعية ، ولابد لي أن أقول لكم الآن بأني لا آمن اولئك الخيالة الذين شوهدوا وهم يتعقبوننا في القرية • ولو كان هؤلاء من الاعداء فهناك مكان يتحتم علينا عبوره بعد قليل ويمكنهم أن ينتظروننا فيه ـ يجب علينا أن نجتازه في وضح النها • ولذلك أعتقد اننا ينبغي أن ننزل هنا بهدوء حتى يبزغ الفجر ، انزلوا رجاء وناموا ـ لا تتكلموا ولا كلمة واحدة ، والله هو الموفق ! ربما نستطيع أن نفلت • » وهنا تدخل خدامي فتسلموا الحديث بلهجة التبجح الايرانية المعتادة : لماذا نتوقف فنضيع الوقت ؟ لماذا نعبأ بالاكراد أو العرب ، كلاب ! حيوانات ! من هم هؤلاء حتى يستطيعوا أيقافنا ؟ دعهم يجربون لنعلمهم ان هناك ايرانيين ، رجالا يستهينون بحياتهم في سبيل حماية سيدهم • من يكن أولئك العرب حتى ولوكانوا عشرة أو عشرين ؟ گوری پیده‌ریش ! وغير ذلك • لكنني لاحظت ان الدليل كان متخوفا في الحقيقة ، فأسكتّ هذه الفورة البطولية وعلى هذا الاساس بقينا في مكاننا ساعة كاملة من الوقت فكانت ساعة شديدة البرد ومزعجة •

وبعد انقضائها خطرت للدليل فكرة جديدة في الموضوع ، أو تشجع بتوفيق من الله ، فوافق على متابعة السير وفعلنا ذلك محاذين نهرا صغيرا ذي عمق غير يسير كان يجري في مجرى كثير التعرج • وبعد قليل مررنا بمنزل ، من منازل العرب ، ومن حسن حظنا انه كان يقع في الجانب الآخر من النهر • فهاجت كلابه مكوّنة جوقة هائجة من النباحين ، لكننا لم يقلقنا أي شيء آخر • وقد قضينا فترة شاقة متعبة حتى طلع النهار ، وعندئذ عبرنا النهير وسرنا في طريقنا الى بقعة التلال المنخفضة التي كانت تحد السهل في هذا المكان • فكانت هذه تلال حمرين التي تعد فرعا من جبل حمرين الذي يمتد من كردستان حتى يتصل بسلسلة گودريان • وقد انتهى ركوبنا الطويل الشاق خلال الوهاد الجافة

المغفدة ، التي كانت تتخلل هذه التلال ، بمسيرة لقينا فيها نفس المقدار من المشاق خلال سهل واسع غير متغير المظهر ، يمتد من سفحها الى دجلة وعلى طول ضفافها الى خليج البصرة • لاننا الآن قد تخلصنا من آخر الحدود الصخرية وأصبحنا في السهل الرسوبي غير المنقطع الذي يتكون من دجلة والفرات • فبان في الافق البعيد خان دلي عباس والنخيل المحيط بعدة قرى أخرى ، فلوينا عنان خيولنا نحو القرية المتشاملة منها •

فتبين انها أدين كوي[1] ، وهي قرية جميلة جعلنا منزلنا فيها لتلك الليلة في دار الضابط العجوز جهانكير خان ، التركي النزيه المضياف • ولم نكن مقيدين هنا بالطعام اللازم للبشر والخيل على حد سواء ، لان خدامنا كان لهم مطلق الحرية بأن يأخذوا ما يشاؤون منه لهم ولحيواناتهم • وأمر الضابط ان تكون حصتي الخاصة من هذه الغنيمة شيء من الرز الفاخر • وقد كان جهانكير أغا هذا كرجيا بالولادة ، وحينما كان فتى يافعا أخذ أسيراً في أيام أغا محمد خان ثم ارتقى في خدمة عدد من الاسياد حتى أصبح في النهاية ملتزما لهذه القرية التي يدفع عنها الى الحكومة شيئا يتراوح بين المئة تومان والثلاث مئة • وهو مثل غيره يتذمر من عناء الزمان وتعسف الحكومة في الابتزاز ، لكن الحقيقة انه لم يكن يعوزه شيء للراحة في بيته على ما يبدو وان كل ما كان عنده كان مستعدا ليشاركه غيره به عن طيبة خاطر • وقد كان من الواجب المحبب الى النفس ان يبرهن لمثل هذا الرجل على ان السياح الانكليز لم يكونوا ميالين الى عدم تقدير الجميل الذي يعاملون به ، فكانت الهدية التي قدمتها له من جراء ذلك تفوق حد التصور على ما اعتقد • ولا بد لي ان أقول هنا ان الاتراك حتى الآن قد فاقوا الايرانيين ، أو حتى الكرد ، في معاملتهم للضيف من حيث المجاملة او التحرر • على ان هناك نقطة واحدة كنت أود في بعض

---

(١) الأرجح أنها المنصورية الحالية في لواء ديالى •

الحالات أن يتم اصلاحها • فهم يعتبرون من واجبهم في الضيافة ان يتكرموا بالكثير من صحبتهم على ضيفهم ، مما قد يكون شيئا حسنا للغاية فيما لو كان الضيف يفهم لغتهم لان ذلك يمكن ان يتيح الفرصة لحصوله على الكثير من المعلومات ، لكنه اذا كان من سوء حظه ، كما هي الحالة في قضيتي ، ان يكون غير ملم بلغتهم فان ذلك يصبح ثقلا خطيرا عليه • لان حضورهم يحول دون قيامه بانجاز مختلف الاعمال التي لا بد له من اغتنام الفرصة السانحة لانجازها •

وفي حالتي أنا ، استطعت بواسطة خادم من خدامي الذي قام بدور الترجمة ان استخرج شيئا من المعلومات من صديقي جهانگير أغا ، الذي كان قادرا على تقديم المعلومات بقدر ما كان مجاملا ولطيفا • فقد تعلمت شيئا عن الطريقة الخالية من التبصر التي تتبعها حكومة بغداد في تأجير أراضي الباشوية ، وتأيدت لي الفوضى ، وما أدت اليه من تناقص في السكان ، التي شهدت عليها أعيننا نحن وآذاننا منذ أن دخلنا في حدودها •

وهكذا كان رأي مضيفنا الكريم حول فوضى الطريق وأخطاره ، حتى بالقرب من العاصمة ، بحيث انه رفض بتاتا ان يسمح لنا بمتابعة السرى في تلك الليلة قائلا أنه لا يسمح لنا بالسير قبل طلوع الصبح حتى ولو اعطي ألف تومان عن ذلك ، لانني كنت كالمعتاد راغبا في التحرك حالما تكون قد ارتاحت خيولنا • فان البلاد كلها على ما يقول قد اكتسحها العرب الرُحّل ، وان السرى في الليل من دون دليل يعتمد عليه يعد ضربا من الجنون • ولما كنا نعتمد عليه في ايجاد الدليل المطلوب ، الذي يستحيل السير من دونه في مثل هذه الطرق غير المنتظمة ، فقد تحتم علينا أن نذعن للامر الواقع آملين فقط ان نتحرك في ساعة مبكرة من النهار •

على ان ايجاد الدليل كان على ما يظهر أمراً يسهل التكلم فيه ويصعب وضعه في موضع التنفيذ • فلم يحضر الشخص المهم الذي كان عليه ان

يسير بنا في الطريق قبل السادسة والنصف • وكانت هناك مراوغة غريبة حول الشخص الذى كان يترتب عليه الذهاب أو عدمه ، مما لم استطع ادراكه أو فهمه • ولكننا أخيرا بدأنا بالرحيل ، وعلى بعد ميل واحد من القرية وصلنا الى منزل من منازل العرب توقف فيه دليلنا ليحصل على خيالين اثنين منه يقومان بمرافقتنا للحماية ، اذ بدونهما لا يستطيع التقدم فى الطريق ولا خطوة واحدة ، هكذا كانت أوامره • وقد ظهر الآن مضيفنا ارتأى من الاسلم لنا ان يكون مرافقونا من العرب لا من العثمانلي ، وخاصة بالنسبة للرعب العظيم الذى كانت تشعر به البلاد فى تلك الجهات من وصول جماعات كبيرة من الاعراب وضرب خيامها فى الاراضى المنخفضة التى كانت تمتد بيننا وبين دجلة • وعلى هذا ذهب دليلنا مع أحد خدامي للتفاوض فى هذا الشأن مع الاعراب الذين اقتربنا من خيامهم ، بعد ان تركنا راكبين على ظهور خيولنا بالقرب من أحد الجداول • وكان الاعراب جميعهم جالسين أمام خيامهم وهم يدخنون شطوبهم ويشربون قهوتهم ، وفي باب كل خيمة كانت تقف مهرة جميلة مسرجة ومهيأة للطوارىء مع رمح صاحبها مغروزا فى الارض بجانبها • وقد قيل لي ان هذا المخيم كان بوسعه تقديم أربعين او خمسين خيالاً يعتمد عليهم • لكننا بعد ان مرت علينا ساعة كاملة بهذه الحال لم نستطع الحصول الا على اثنين فقط منهم ، اما لعدم الرغبة فى مثل هذه الخدمة أو من جراء الكسل ، فكان ذلك مضيعة للوقت تبعث على الانزعاج •

على ان مقدار التأخير قد جعل على ما أحسب متناسبا مع العزة المنطوية فى النتيجة ــ فقد عاد الخادم وبصحبته شيخان او كبيران من كبار ذلك المخيم العربى ، وتوجه أحدهما الي شاهرا رمحه بطريقة تهديدية وهو يقسم برأسه ويقول أنه سيوصلني سالما الى منزلي برغم كل ما يحدث فى الطريق • فكان هذا كله شيئا حسنا على ما يظهر ، لكنني أرى ان الطمع

فی المكافأة المرتقبة هو الذی حـدا بالشيخين ان يركبـا جواديهما فيأتيان معنا ٠

فتابعنا السير بعد ذلك ، لكنني دهشت حينما علمت ان دليلنا الاول الذی جاء معنا من القرية فی بادیء الامر لـم يكن يرغب فی مرافقتنا الی أبعد من هـذا ٠ علی أنه رد علی اعتراضي يقـول ان بقاءه لا فائدة فيــه بالكلية ـ لان الدليلين الاعرابيين لم تكن فيهما الـكفاية فقط وانمـا هما الدليلان الوحيــدان اللذان يمكنهمـا ان يجتازا بنا الطريق الی هدفنـا ٠ والانكی من ذلك ان هذين الدليلين لم يكونا يفهمان غير العربية التی كنا نجهلها نحن تمام الجهل ٠ غير اننا لم يكن لنا محيص عن هذا ولذلك تابعنا السير عبر حقول القرية المحروثة وما بين السواقی الجافة والرطبة حتی جئنا الی جدول عميق غير عريض علمت بعد ذلك انه كان جدول الخالص الذی جذبنا ضفافه المتعرج لعدة أميال فی سيرنا ٠

وعلی بعد فرسخ من القرية مررنا بسحطة دلي عباس ، مع الجســر المسدود علی الخالص فيها ، وقد تعجبت حينما عمد دليلانا فيها الی تركها الی يسارنا والتمادي فی السير علی الضفة الشمالية ٠ وبعد ذلك مررنا بعدة قری تستقی ماءها من الخالص ، ويتكون سكانها كلهم من العرب ٠ وقد كان بالقرب من احداها مخيم كبير من منـازل الاعراب فسرني ان اری الجدول يحجز بيننا وبينه ٠ وكانت هناك منازل أخری تنتشر بعيدا وقريبا الی مسافة كبيرة ، وعند ذلك اتضح لي ان الدليلين عمدا الی تعقيب الضفة الشمالية من الجدول عـلی طول هذه المسافة ليتحاشيا المرور بهـا او بما يقرب منها ٠

وقبل ان نصل الی هذه القرية بقليل استدعاني أحد خدامي من الخط الامامي فی السير الی الوراء لمراقبة الدليلين اللذين أصبح تصرفهما غريبا علی حد قوله ، اذا لم يكن مريبا ٠ اذ انضم اليهما رجل آخر من الاعراب

كان يركب فرسا جميلة فأفزعنا ان نسمع بانه كان شيخا آخر يمنعه قلقه على سلامتنا من البقاء وراءنا ، ولكنه قفل راجعا لاهله فقيل لنا انه وجد البلاد غير آمنة . على ان تردد الدليلين الباقيين وتخلفهما الى ما وراء القافلة هو الذي كان يفزع خدمي . وحينما عوتبا على عدم التفاتهما الى شؤون السير والطريق أجابا بفزع غير يسير بأن هناك كثيرا من خصومهما العرب في هذه الانحاء . ثم تقدما بأنواع مختلفة من الطلبات للبخشيش أو الهدايا . فوجدت من الاحسن ان أتصنع الحزم والغضب ، بينما تفوه أحد خدامي بكلمة او كلمتين للتملق . وما بين هذه وتلك اقتنعا بمتابعة السير مع كثير من الاحجام مرددين كلمة انشاء الله عدة مرات ، ومبدين كثيرا من علامات التخوف . ولم ينفع ذلك كله في تهدئة المخاوف التي كانت تساور زجالي الذين لم يستطيعوا كتمان قلقهم حينما كانوا يتصورون انهم يمكن ان يضربوا في هذه الجهات ويجردوا من ملابسهم ، اذا لم يقتلوا بدم بارد . ولم تكن حالتي الفكرية أنا على أكثر من ذلك هدوءً واستقرارا ، فلم يكن بوسعي أن أحكم فيما اذا كان تصرف الدليلين مبنياً على الخوف أم على الرغبة في المساومة واستغلال المخاوف التي قد يثيرانها فينا . فمرت علينا ساعات ثلاث ما بين منزل الاعراب الذي مررنا به وظهور النخيل المحيط بالقرية ، التي كان علينا ان نقضي ليلتنا فيها ، في الافق البعيد فكانت أشد الساعات التي عرفتها قلقا وازعاجا . على انها مرت على كل حال مثل غيرها من الساعات المزعجة الاخرى ، وكان من بواعث الارتياح لنا أن نسمع دليلينا في النهاية يعلنان بأننا قد تجاوزنا المنطقة المخطرة وصار بوسعنا متابعة السير بأمان . وقد تبين ان ذلك كان من بواعث الارتياح لهما كذلك ، لان تشوقهما للسير كان لا يقل عن احجامهما عن التقدم بادىء ذي بدء .

ما أعظم السهول الوسيعة من الاراضي الغنية القابلة للزراعة التي اجتزناها هذا اليوم ولاحظنا وجودها وامتدادها من جميع الجهات ــ الاراضي

التى كانت كلهـا تنبت زرعا يانعا فأصبحت يباباً بلقعاً بالـكلية ! وما اكثر مجارى المياه والقنوات التى شاهدناها ـ انها آثار الري القديم فى هـذه البلاد ـ وما أعظم القابلية على الازدهار الزراعى وتكاثف النفوس ، المهملة اهمالا كليا ! لقـد كان كل ذلك فى الحقيقـة منظرا محزنا ، وكان مما يفرج عن العين المتعبة من النظر الى مناظر المدنية الراحلة والثروة المندثرة ان نلتفت الى الموطن المريح للسكان الحاليين فى المكان الذى سنقضى فيه هذه الليلة • فدخلنا هبهب ، احدى القرى التى تتكدس بيوتها بمجموعتها على ضفاف دجلة ، قبل ان تميل الشمس الى المغيب بساعة واحدة تقريبا • وبعد ان قدمنا بعض الايضاحات استقبلنا بأدب ولطف نائب الضابط اسماعيل أغا ، وهو سيد من السادة ، فزودنا بجميع ما كنا نريده تزويدا وافرا • وتقع القرية نفسها ما بين بساتين ممتدة من النخيل ـ وكان كل بيت يوجد فى ساحته عدد منها • فذكرتني المناظر هنا ببعض أنحاء بومبي •

وفى أثناء ركوبنا هذا اليوم اصطدنا عددا كبيرا من الطيور ـ ولا سيما من الدراج الاسود والرمادي • كما لاحظنا من بعيد كثيرا من الغزلان ، لكن الاسراب الـكبيرة من الدراج البري التى مرت بنا كانت من أعظم ما رأيت من هذا القبيل اثارة للدهشة والعجب • فكانت هذه الاسراب تأتي كالغمام ، عـلى شاكلة الجراد ، وكان أحدها عـلى الاخص ، وهو الذى استغرق عدة دقائق فى مروره ، يكوّن قوسا من فوقنا يمتد جـانباه من الطرفين على مدالنظر ـ ربما كان هذا السرب وحده يحتوى عـلى آلاف مؤلفة من الطيور • وهناك نوعان من هذا الطير يشيع وجودهما فى أواسط آسية ـ نوع كبير ونوع صغير ، وهذه كانت من النوع الصغير • لكنني لم أرَ هذه الطيور من قبل تجتمع بمثل هذه الاسراب الجسيمة ، أو فى حالة الهجرة كما كان يظهر مما رأيت[1] •

---

(١) من المؤسف أن يقل وجود هذا الطائر المفيد في هذه الايام ، وسبب ذلك بلا شك اصطياد الناس له في جميع أوقات السنة من دون مراعاة القانون الذي يحدد اصطياده في أشهر معينة حماية له وحرصا على عدم انقراضه •

وقد قررت العمل على تلافي الوقت الضائع ان أمكن ، ونظرا لما قيل لي من عدم وجود ما يدعو الى القلق في الطريق ما بين موقعنا هنا وبغداد فقد حصلت على دليلين راجلين من الاعراب وتحركنا في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، وتمادينا في السرى حتى وصلنا الى المدينة العظيمة • فكان طريقنا كله في أراض مستوية بالمرة ، ومررنا بعدة قرى قبل طلوع الصبح الذي بزغت علينا أشعته الاولى ونحن نشاهد منائر بغداد وقبابها ترتفع في الافق البعيد • ويبدو ان سهل بغداد على طول امتداده ينطوي على منتهى الخصب ، لكنه يتطلب جر الماء اليه ليكون منتجا حقا • فقد جعله نظام الري البديع ، الذى لا تزال آثاره الكثيرة باقية حتى اليوم ، حقولا يانعة وبساتين غناء • اما الآن فيما عدا التفاح المر الذى يغري العين بصبغته البرتقالية الغنية والنباتات المنتجة للصودا [1] التي لا تصلح الا علفا للجمال ، فلا تستبين العين فيه شيئا ناميا مطلقا • ومع اننا سرنا سيرا مسرعا ، فقد مرت علينا فترة متعبة قبل ان ترتفع أسوار المدينة أمام أنظارنا ـ وبارتفاعها تجدد استبداد القلق والريبة بنا • لاننا علمنا ان قبيلة من الاعراب المعادين قد نصبت خيامها على مقربة من المدينة وان جيوش الباشا كانت مرابطة تجاه العدو ـ وان عدة مناوشات قد حصلت من قبل ، وان جماعات من الاعراب صارت تملأ البلاد وتقوم بالسلب والنهب ، بحيث لم يكن من الاكيد مطلقا ان يسمح لنا بالوصول الى الاسوار من دون مضايقة وازعاج برغم وقوعها على مثل هذه المسافة القصيرة عنا •

ومع ان هذه الحالة هي على درجة من الاعتياد في هذه الجهات بحيث لا تستدعى الكثير من الدهشة لدى السكان المحليين فاني أعترف بأن الخبر قد افزعني ، خاصة بعد ان تأيد الخطر لنا من اطلاق عدة اطلاقات من المدافع وسقوط النار المنطلقة من البنادق في نفس المكان الذى أشير الى كونه

---

(١) لعله يقصد بهذا نبات الشمنان البري المعروف •

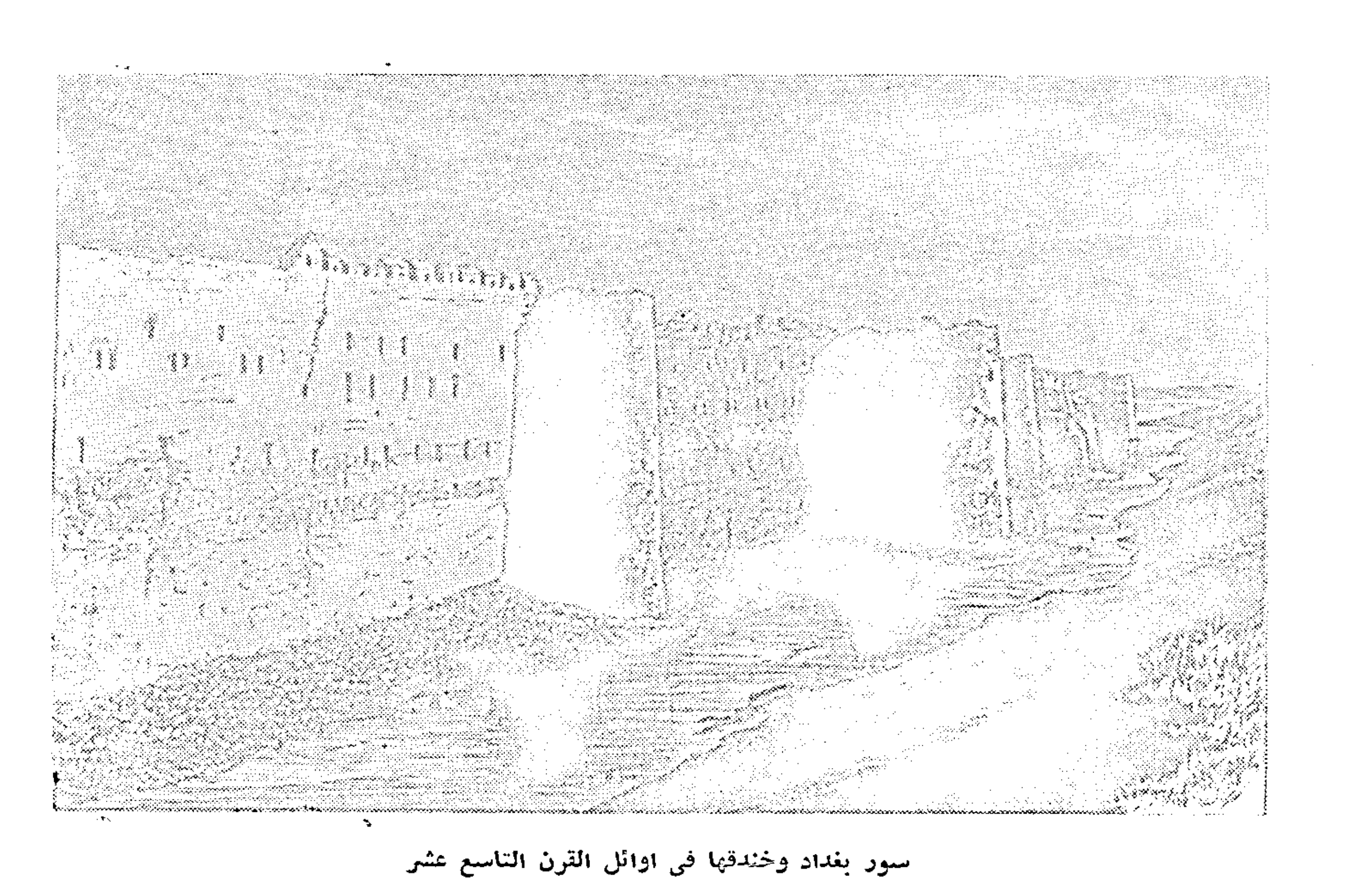
موقعا للمخيم المعادي • ونظرا لانه لم يكن عندنا ما يمكن ان نفعله سوى ان نصل بأسرع ما يمكن الى حيث نستطيع الاحتماء بالاسوار ، فقد سرنا سيرا أسرع ومع اننا التقينا بعدد من جماعات الاعراب الصغيرة التي كانت مدججة بالسلاح أو مررنا بهم فقد وصلنا الى باب كركوك[1] من دون مضايقة او تحرش • وقد حصل في الباب توقف على جانب غير يسير من الازعاج لأن قافلة من القوافل كانت تهم بالخروج ، ولان موظفي الباشا كانوا يقومون باستيفاء الرسوم والضرائب المطاوبة • غير ان تطمين الضباط المسؤولين باننا انكليز ، واننا كنا في طريقنا الى مسكن الباليوز أو المقيم ، كان كافيا لانقاذنا من لجاجتهم والحافهم • لكن تخليص أنفسنا من زحمة البغال والقافلة كان شيئاً على جانب أقل من السهولة ، فاستغرق وقتا أكثر مما كان يتحمله جزعي وقلة صبري • على اننا في الاخير تمكنا من العبور بشق الانفس ، وحصلنا على دليل يوصلنا الى دار المقيمية • وبعد سياحة طويلة عبر الازقة والاسواق ، كانت مملة بالنسبة للظروف ، وصلنا الى مبتغانا • وقد عرفت بهزة من الفرح السباه[2] الهنود الذين كانوا يرابطون في الباب — لقد كانوا كأنهم أصدقاء قديمين في بلاد غريبة — وبعد خمس دقائق كنت الفيت نفسي جالسا على مائدة الفطور مع الكولونيل تايلور[3] ، بكل مسليات الترحيب الحار والفطور الشهي لتحيتي وانعاشي • ولا أراني بحاجة للقول بأن بقية اليوم قد تقضت بأطرف الحديث وأكثره متعة مع الاصدقاء الذين اجتمعت بهم ، لأننا كان عندنا كثير مما يجب ان نقف عليه ونقوله • غير انه لما كانت هذه الاخبار لا يمكن ان تحظى عندكم بنفس الاهتمام الذي تحظى به عندي سوف اكفيكم مؤونتها في الوقت الحاضر ، واستودعكم الى تلك الراحة الهنيئة التي تقصر عن زيارة وسادتي هذه الليلة •

---

(١) لعله يقصد الباب الوسطاني (الظفرية) الذي يوجد فيه الآن متحف الاسلحة •

(٢) Indian Sepoys وهم الحرس الهنود الذين كان يؤتى بهم من الهند لحراسة المقيمية البريطانية في بغداد •

(٣) المقيم البريطاني في ذلك الوقت • والمعتقد ان الدار التي كان يقيم فيها تقع في مكان دائرة كمرك بغداد الحالية التي كانت تلتحق بها أيضا الفسحة التي بنيت فيها بناية مديرية التلفونات الحالية والبدالة كذلك •



سور بغداد وخندقها فى اوائل القرن التاسع عشر



٤

لذة الراحة بعد التعب ـ الانطباعات الاولى في بغداد ـ اسوارهـا ـ شوارعها ـ نهر دجلة وضفافه ـ الأسواق وفسح البيع ـ وصف بكنغهـام للمدينة ـ الجوامع والمنائر ـ البيوت ـ داخلية البيوت والاحوال فيهـا ـ المرأة التركية ـ المظهر الشخصي ـ الوشم ـ النساء الكرجيات ـ سكان بغداد ـ عاداتهم ـ الازدهار في أيام داود باشا ـ الشؤون العسكرية ـ الاسواق ـ التجار الاتراك ـ العرب ـ عاداتهم ـ اصوات بغداد •

عزيزتي ـــ

أن أول يومين أو ثلاثة بعد الانتهاء من رحلة غير قصيرة ، وعند الوصول الى مكان غريب ، لابد ان تنقضي بنوع من الدوامة المحمومة الخاملة ، التي لا يمكن ان تكون مؤاتية للحصول على المعلومات الصحيحة أو تكوين فكرة عما يحيط بالمرء • ففيها يتم تبادل الاستفسارات والاجوبة ويتطرق المرء الى الحديث عن أشياء شتى • لكن شيئا من المعرفة عن الامكنة والمواقع يعد ضروريا له قبل ان يكون بأمكانه استيعاب المعلومات التي تنقل اليه • والراحة كذلك ـ الراحة البسيطة والهدوء ـ هي التي تبعث الانشراح فينا ، بعد أن نكون قد شققنا طريقنا خلال بلاد صعبة وطريق شاق متعب ، بحيث يصعب علينا ان نوافق لوقت ما على تهيئة أنفسنا للجهد المطلوب للسعي وراء العجائب ومشاهدة المناظر • ولابد لكل من يجد نفسه في هذه الظروف ان يكون قد شعر بهذا ـ اى بالاحساس اللذيذ الذي يلازم هذا « التكاسل » ، وخبر نفس الاحجام القوي الذي شعرت به في نقض هذا التأثير السحري •

اما حالتي أنا فلم تكن تتحمل الأنهماك الطويل • اذ لا يزال هنالك الكثير مما يجب ان أجتازه ، ولا يمكن الا تخصيص قليل من الوقت لمشاهدة المناظر أو التمعن في الاشياء الغريبة • ومع ذلك فها هو دجلة الخالد يجري من تحت شباكنا ، ويعج بالزوارق والأكلاك ، ويمتد من فوقه جسر الزوارق المعروف الذي يوصل بين ضفتيه • وترتفع من حولنا

منائر الجوامع وقبابها ، ومراقد القديسين والأولياء ، وهي تحدثنا عن الايام الغابرة حينما كانت بغداد عاصمة الاسلام وموئل قوته ومنعته • وها هي بابل وسلوقية[1] وطاق كسرى تقع في مواقع قريبة منا ، وتغص البلاد المحيطة بنا كلها بالأشياء المهمة التي تلفت النظر وتستدعي الاستكشاف • ولذلك أعددنا أنفسنا للاستفادة من وقتنا القصير بأحسن وجه ، وبدأنا بجولاتنا •

فبالنسبة للذين يأتون من ايران ، وخاصة الذين يكون قد أضجرهم تعاقب الدمار والخراب الذيأتعب عيوننا وأنهكها ما رأيناه من آثاره ، يعتبر منظر بغداد لأول وهلة منظرا بديعا يبعث على الانطباع الحسن بالتأكيد • فللأسوار أولا منظر مهيب يؤثر في النفس ــ فهي مشيدة بالآجر المحروق بالنار ، ومدعمة من كل زاوية بأبراج مدورة لها فتحات (مزاغل) خاصة للمدافع ، بدلا من السياج الحقير المبني بالطين ، المتهدم على الدوام تقريبا ، الذي يحيط بالمدن الايرانية • ولا يعني هذا ان سور بغداد هو سور كامل، فالأمر ليس كذلك • وانما أنا أتكلم عن مظهره الخارجي • والابواب ايضا ، فمع انها متهدمة للغاية فأنها على وجه التأكيد أعظم من أبواب المدن الموجودة في البلاد المجاورة •

وحينما يدخل السائح القادم من ايران الى المدينة فأنه علاوة على ذلك يبتهج بمنظر البيوت المبنية ، مثل أسوار المدينة ، بالآجر المفخور التي ترتفع في علوها الى عدة طوابق • ومع ان عدد الشبابيك المطلة على الطريق غير كثير بحال من الاحوال فان العين لا يزعجها باستمرار ذلك التعاقب الكريه من الكتل الطينية الحقيرة الواطئة ، المتداعية ، المتعرجة وغير المنتظمة ، التي تحجزها عن بعضها ممرات متربة موحلة لا تستحق حتى

(١) هي المدينة التي بناها سلوقس في الجانب المقابل من دجلة تجاه طاق كسرى • وسلوقس هو القائد اليوناني الذي حكم هذه الجهات بعد موت الاسكندر المكدوني في هذه البلاد •

ان تسمى أزقة ، مما يتكون منه القسم الاعظم من كل مدينة ايرانية •

ولا ينكر ان الشوارع ، حتى في هذه المدينة ، تكون في الغالب عبارة عن أزقة ضيقة غير مبلطة ، وموحلة في الشتاء من دون شك ، لكن المرء حينما يسر راكبا فيها وخاصة في المواسم غير الممطرة يتأثر حتما بفكرة ان الجدران المتينة القائمة على يمينه وشماله لابد أن تحتوى في داخلها على مساكن مريحة جيدة تقاوم الاحوال الجوية ، بينما تؤيد الابواب ذات الحجم المناسب والقبضات الحديد التي تحافظ على مدخلها ما يختلج في مخيلته من فكرة المتانة والأمان • اما في ايران فالأمر يكاد يكون بعكس ذلك ، اذ تكون مداخل البيوت ، وحتى بيوت الاشخاص المرموقين ، أشبه بفتحات الكهوف أو المغاور بدلا من أن تكون ابوابا لبيوت يأوى اليها أناس من البشر •

ولا تعدم شوارع بغداد بالمرة الفتحات التي تسمح بدخول النور والهواء اليها • فليست الشبابيك المطلة عليها كثيرة فقط بل توجد ايضا شرفات مطلة ، أو شبابيك بارزة[1] ، تخيم على الشارع فتسمح بدخول الضوء الى الغرف التي يجلس فيها عادة عدد من الاتراك المتزمتين الذين يقضون الوقت بالتدخين • واذا كنت محظوظا فقد تجد نفسك صدفة هدفا لأشعة نفاذة توجهها اليك من وراء المشبك[2] نصف المغلق زوجان من العيون المشرقة • وقد ترى هذه الأجنحة المعدة للجلوس ممتدة احيانا عبر الشارع لتتصل بالبيوت من الجانبين ، فتضفي بذلك تنوعا مبهجا على طراز البناء وخاصة حينما تشاهَد وهي نصف مظللة بسعف النخيل الذي يعلوها من ساحة الدار في الداخل • وقد كان هناك في الجو العام المتكون من التنوع البارز ، وطراز البناء ، والملابس الغريبة ، واختلاط الخضرة ، وخاصة سعف النخيل ، ما يعيد الى الذهن ، حينما ينظر اليه من وسط

(١) شناشيل •

(٢) القيم •

الشوارع الاكثر استقامة ، ذكرى مشوشة عن بلاد اخرى اكثر اشتهارا في العالم ـ بلاد عليها مسحة ما ديرا في جزر الهند الشرقية والغربية أو ما أشبه ـ بلاد تولد في النفس مقدارا من البهجة والانشراح يزيد ، على كل حال ، على المنظر الحقيقي الذي أراه امامي .

هذه هي الانطباعات التي تكونت عندي عما رأيته أثناء مروري بالبلدة ، لكن ضفاف النهر كانت ترينا منظرا مختلفا تمام الاختلاف وأكثر جاذبية وجمالا من كل ذلك . فأن تدفق نهر جليل معروف يعد شيئا طريفا في جميع الأزمان ، لكنه حينما تكون ضفافه مزدانة بخط طويل من الابنية المؤثرة في النفس اذا لم تكن جميلة تمام الجمال ، ومظللة ببساتين النخيل وارفة الظلال ، فضلا عما يزيد في رونقها من مئات الزوارق وضجيج الآلاف من الناس ، وحينما يكون مجراه قد مُد من فوقه جسر من الزوارق يعبر عليه سيل دائم التدفق من الناس والخيل والجمال والقوافل ، وتمر من فوقه حركة نقل عظيمة من جميع الانواع والاشكال ، فان اللمحة المتكونة من جماع هذا كله يصعب عليها ان تقصر عن رسم صورة حية جدا في مخيلة الرائي . وهذا بطبيعة الحال هو المنظر الحقيقي لدجلة حينما تنظر اليه من أية نقطة كانت على ضفتيه ، حيث تستطيع ان تحصر في مدى رؤيتك جميع الحيز الذي تشغله المدينة الحالية .

ولم تكن النظرة الاولى التي ألقيتها على دجلة تدل على ما كنت أتوقعه على وجه التأكيد : فلا يمكنني ان أقول انني قد خاب أملي تماما فيه لكنني كنت أتوقع أن أرى نهرا أكثر عرضا واتساعا مما رأيت . على أنني اعتقد انه أحسن بعرضه الحالي لأن العين تستطيع في الوقت الحاضر ان تشرف على الجانبين بسهولة . أما جبهة البلد المطلة على النهر فقد كان عجبي فيها مفعما بالبهجة والسرور . فلم نجد فيها الا القليل من الجدران العارية ، لأن معظم البيوت لها عدد كبير من المشابك (القيم) والشرفات (الشناشيل)

أو الشبابيك البارزة التي تطل على النهر • ويوجد بالقرب من الجسر جامع جميل بقبابه ومنائره ، وهو شيء يبعث في النفس السرور والارتياح[1] • وهناك بوجه عام شموخ يستحق الاعتبار في خط الابنية المطلة على النهر من ضفته اليسرى ، فيضفي تنوعا ظريفا على المنظر • وليس الجانب الايمن، أو الغربي ، من النهر على مثل هذا الجمال في طراز الابنية وامتدادها ، لكن بساتينه[2] الوسيعة ونخيله المتشابكة المختلطة بالابنية تسبغ عليه منظرا مبهجا اذا ما نظر اليه من الجانب الآخر المكتظ بالسكان •

على أنني يجب أن أعرف بانني قد خاب أملي بأسواق بغـــداد • وليس السبب في ذلك افتقارها الى السعة والامتداد ، لأنها على مقدار كاف منهما ، ولا خلوها من الناس ، أو عدم وجود حركة فيها ، لأنها تكون في كثير من الاحيان مكتظة اكتظاظا كافيا فتظهر بمظهر يزيد تنوعا وبهاء عما يلاحظ عادة في الاسواق الايرانية • وأنما هناك من ناحية البناء والعمارة فقر في التخطيط وحقارة في التنفيذ ، ومظهر من مظـاهر التهدم ، الذي يعزى جزئيا الى الكوارث التي أصابت المدينة مؤخرا بطبيعة الحال ، لكن كثيرا منه يرجع السبب فيه الى عيب أصيل وُجد في طراز البنـاء منـــذ البداية • على ان بعض الاسواق ، ومنها صف ثلاثي أو رباعي ممتـد الى مسافة غير يسيرة من تشييد داود باشا ، قد بني بناء جيدا بالجص والآجـر المفخور ، وظلل عن الشمس بسقوف ذات طوق عالية مبنية بالمواد نفسها • لكن اسواقا أخرى كانت خربة جدا ، وكانت سقوفها مصنوعة من مرادي الخشب الممدودة بصورة وقتيـة غـــير منتظمة والمغطاة بالسعف أو القش

---

(١) اذا كان هذا الجسر في نفس الموقع الحالي لجسر الشهداء ، أو الجسر القديم ، وهو الارجح فان الذي يحاول عبوره من هذا الجانب (الشرقي) يجد في رأسه من الجهة اليمنى جامع الوزير او جامع حسن باشا العتيق الذي بناه كوجك حسن باشا خـــــلال ١٦٤٢ ــ ١٦٤٤ . ومن الجهة اليسرى جامع الآصفية (تكية المولوية) •

(٢) ذكرنا في حاشية اخرى من حواشي هذه الرحلة أن تيبور الذي زار بغداد في منتصف القرن السابع عشر وجد في جانب الكرخ حوالي الفي بستان وحديقة معمورة •

والقصب • اما الدكاكين نفسها فهي دكاكين حقيرة رثة ، غير مرممة في كثير من الحالات ، وكثير منها فارغ غير مشغل • وقد كان يلاحظ في معظم الأماكن ذلك الجو المتسم بالاهمال والقذارة الطائشة ، الذي يدل تمام الدلالة على الجنوح الى الانحطاط والاهمال العام •

وهناك في مختلف أجزاء البلدة عدة فسح أو « فضوات » مكشوفة يباع فيها البعض من أنواع السلع ، وقد سميت بأسمائها ، مثل « سوق الغزل » و « سوق الموسلين » و « سوق الحنطة » وما أشبه[1] • ومن بين هذه كلها كانت أكبرها وأزهاها السوق القريبة من الباب الشمالية الغربية، أو باب الموصل[2] • غير ان أية سوق من هذه الاسواق لا يمكن ان تمت بصلة الى أي رونق أو بهاء ، وحتى الى النظافة بالذات • والحقيقة ان السوق التي ذكرت لآخر مرة هي « ميدان »[3] المدينة الكبير • وتعرض الخيل هنا للبيع ، وهو محاط بالمقاهي الممتلئة على الدوام بجمهور من جميع أنواع الناس الذين يجلسون فيها للتدخين وشرب القهوة وما أشبه • وهو في الوقت نفسه الميدان العام للاستعراض ، وتنفيذ احكام الاعدام كذلك ، لأن المجرمين يعاقبون هنا بقطع الرأس والشنق أو الجدع (قطع الايدي والأرجل) • فكثيرا ما يلاحظ المارة أمامهم جذعا مقطوع الرأس ، أو جذعين ، يعرض على الناس خلال اليوم تنبيها لفاعلي الشر • على أن التركي

---

(١) لقد زار الكوماندر فيلكس جونز بغداد في ١٨٤٦ ، أي بعد مجيء فريزر صاحب هذه الرحلة باثنتي عشرة سنة فقط ، وذكر قائمة بالاسواق والمحلات التي كانت في بغداد يومذاك فيما نشره ، في مجلة جمعية بومبي الجغرافية ما بين سنتي ١٨٤٩ و ١٨٥٦ ، فلم أجد ذكرا لسوق الموسلين وسوق الحنطة فيها ، ولعل الاخير هو سوق العلوجية • لكنني وجدت ذكرا للكثير من الاسواق التي لا تزال تسمى بنفس الاسماء (أي بأسماء السلع) مثل سوق الصياغ وسوق التمارة (الشورجة) وسوق الصفافير وسوق القز وسوق البزازين وسوق الكبابجية وسوق الخباطين وسوق الاسكجية وسوق اليمنجية وسوق الجوخجية وسوق اليورغانجية وسوق التوتونجية وغير ذلك •

(٢) لعله يقصد « باب المعظم » التي كان موقعها بالقرب من باب وزارة الدفاع الحالية بامتداد الجدار الذي يحجز بين تلك الوزارة وبناية قاعة الشعب • وقد كانت تسمى قبل ذلك باب سوق السلطان أو الباب السلطاني الذي هدم في ١٩٢٥ •

(٣) لا شك انه ساحة الميدان الحالية •

المتزمت ، الذى لا يتأثر بهول المشهد ، يدخن شطبه بهدوء أو يسر بما يشاهده من دون ان يعبأ به ، أو يغمغم بكلمة لا اله الا الله • وحتى هذا المكان الذى يستعمل لكل شيء لا يحتوى على أكثر من أيكر[1] ونصف من الارض على ما اعتقد •

هذا وتستحق بغداد ، من حيث شهرتها القديمة وأهميتها الحالية ، ان يؤتى على وصفها بأكثر مما أنا مستعد لتقديمه اليكِ من الوصف التفصيلي الدقيق • ولما كنت أعتقد انكِ يمكن أن تنزعجي اذا ما أقدمت على ترك القصة وهي مبتورة غير كاملة ، أجد نفسي مدفوعا الى الاستعانة بشيء من المصادر الاخرى لأجل أن يتسنى لي تقديم فكرة أوضح عما تكون عليه هذه المدينة التي سارت بذكرها الركبان ، أو عما كانت عليه قبل ان تنزل بها الكوارث الاخيرة • ويبدو لي ان الوصف الذى عمد اليه بكنغهام فى كتابه « رحلات فى بلاد بين النهرين[2] » هو على درجة من الجودة بحيث أنني سوف لا أترك مجالا متيسرا من دون أن أبادر فيه الى اقتباس شيء منه ، لأنكِ قد لا يتسع لك المجال لمطالعته •

فيقول المستر بكنغهام « ان ما فى داخلية البلدة من الاشياء ذات الاهمية يقل عما يتوقعه المرء من الشهرة الجديرة باسمها كمركز شرقي كبير للثروة والأبهة • فان قسما كبيرا من الارض الداخلة فى ضمن الاسوار غير مشغل بالابنية ، وخاصة من الجهة الشمالية الشرقية • وحتى فى الاماكن التى توجد فيها الابنية والعمارات ، وخاصة فى محلات المدينة التى يكثر فيها السكان بالقرب من النهر ، تلاحظ وفرة خاصة بالاشجار •

---

(١) الأيكر يساوي (٤٠٠٠) متر مربع •

(٢) J. S. Buckingham, Travels in Mesopotamia (London 1827) والجزء الثاني من الكتاب هذا يختص بالرحلة من الموصل فكركوك فبغداد فبابل • وللمؤلف كتاب رحلة آخر عنوانه Traveles in Assyria, Media. and Persia, (London 1830) هذا وقد زار بكنغهام بغداد في أيام داود باشا ، أي قبل أن يفتك بها الطاعون ويهدمها الغرق الذي وقع في ١٨٣١ كما سيأتي في هذه الرحلة•

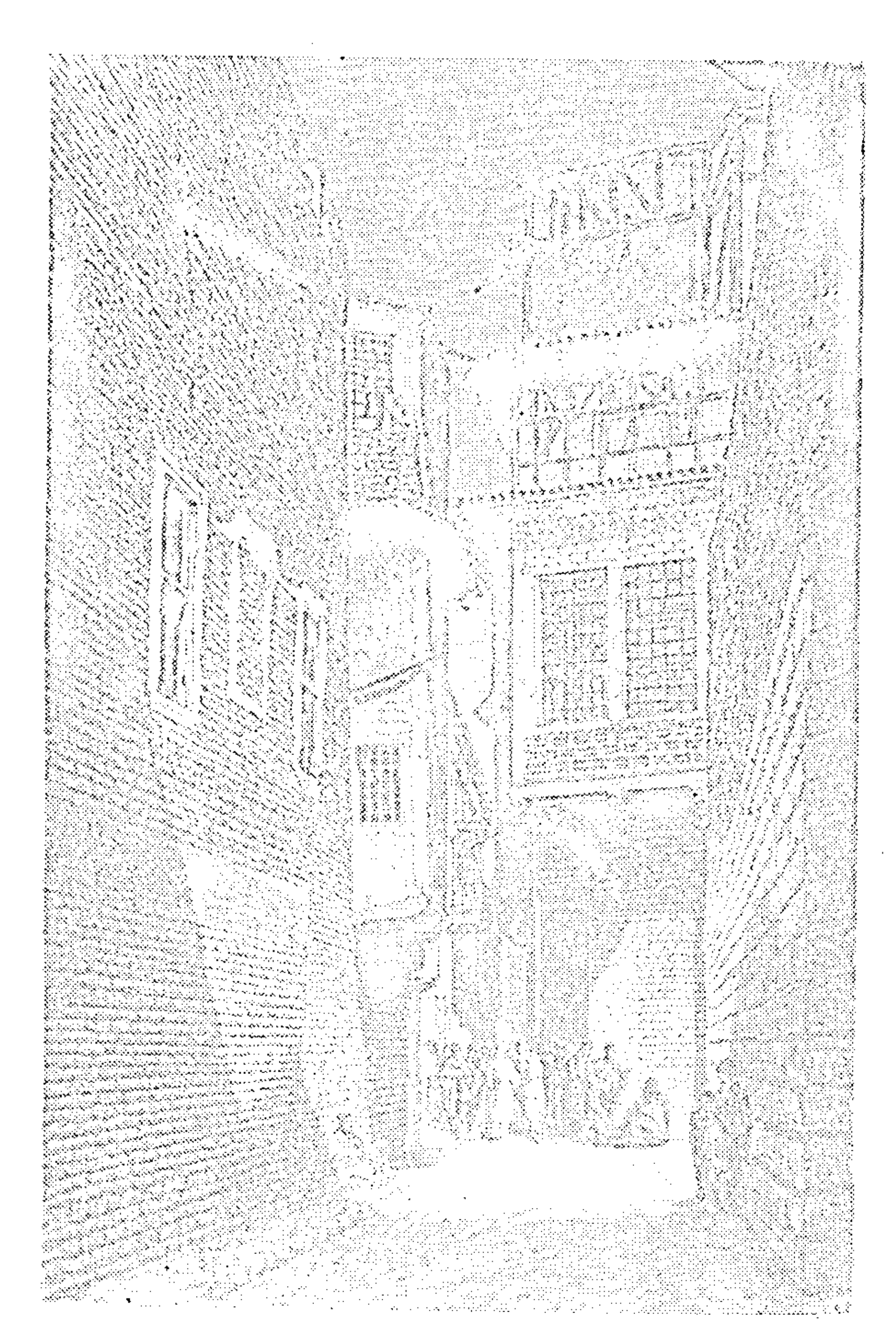
وعلى هذا فحينما كان يُنظر الى كل ذلك من سطح أيـــة دار من الدور الكائنة في داخل الاسوار كانت المدينة تبدو كأنها قائمة في بستان كبيرة من النخيل ، أو مثل ما كانت بابل عليه من كونها أقليمـــا مسورا وليس بلدة واحدة •

« وقد بنيت الابنية كلها ، العامة والاهلية ، بالآجر المفخور ذي اللون الاحمر الضارب الى الصفرة ، والحجم الصغير ، والزوايا المدورة الدالة على ان معظم هذا الآجر كان قد استُعمل عدة مرات من قبل لأنه ربما كان قد أخذ من خرائب أبنية قديمة لتشييد ابنية اخرى بها • وفي الحالات القليلة التي يكون فيها الآجر جديدا يكون له مظهر نظيف مرتب لا وجود لـــه مطلقا في الآجر القديم • ومع ذلك فحتى هذا يعد أدنى جدا من الحجر • وشوارع بغداد ، مثل شوارع جميع المدن الشرقية الاخرى ، ضيقة غـير مبلطة تقوم على جانبيها بوجه عام جدران غفـــل من أي شيء ، اذ نادرا ما تلاحظ الشبابيك[1] مفتوحة عـلى الازقة والطرق العامـة ، بينمـا تكون أبواب الدخول المؤدية الى المساكن صغيرة حقيرة • وتكون هذه الشـــوارع أكثر تعقيدا وتعرجا من كثير من شوارع المدن التركية الكبيرة • وفيما عدا بعض الاسواق وخطوطها التي تنتظـم انتظـاما محتملا ، وبعض الفسحات المكشوفة ، فان داخلية بغداد عبارة عن متاهة من الازقة والممرات •

« اما الجوامع التي تعد على الدوام أبرز الاشياء في المدن الاسلامية فهي مبنية هنا بطراز يختلف عن طراز الجوامع التي شاهدتها في معظـم اجزاء تركية الاخرى • وأقدمها على ما يعتقد يسمى جامع سوق الغزل ، لكن هـذا لم يبق منـــه سوى منـــارة سميكة ضخمة وقسم من السور الخارجي » •

---

(١) ان المستر فريزر صاحب الرحلة هذه قد ذكر عكس هذا في بداية هذه الرسالة • والغريب انه هو نفسه يعمد الى اقتباس هذا القول من بكنغهام الذي زار بغداد قبل المستر فريزر بمدة لا تتجاوز الخمس عشرة سنة ، وكانت عند مجيئه عامرة من دون أن تكون قد تعرضت لنكبة الطاعون وكارثة الفيضان التي هدمت القسم الاعظم منها (١٨٣١) •



من أزقة بغداد القديمة



وللمنارة حوض واحد فقط ، ينشأ بروزه كما يقول المستر بكنغهام من تحت مركز العمود ثم يصعد الى أعلا بسلسلة من الحنيات المعقدة والتزيينات المدلاة على شاكلة المقرنصات « الستالاكتايت » التي تنتفخ بالتدريج الى الخارج وتنتهي بالحوض من حوالى ثلث ارتفاع المحور • وتكون النهاية مدورة غير رشيقة ، فيبين المنظر العام للرائي منظرا سمجا •

ويعد هذا الحوض أعلى نقطة يمكن الارتقاء اليها ومشاهدة منظر المدينة العام منها • وهو في الحقيقة يشرف على معظم السطوح والساحات لمسافة طويلة من حوله • وقد استغربت حقا ان أجد ان كفاراً مثلنا يسمح لهم بالصعود الى ارتفاع يتفرجون منه على المسلمين • ووجدنا شيئا من الصعوبة في الصعود بسبب الظلام المخيم على السلّم وذروق الخفاش والحمام المتراكم فيها ، ذلك الحمام الذي كان يأوي بالآلاف الى الأماكن التي تأكلت فيها الحنيات والشقوق المتكونة بتأثير العنف والزمن • ومن المعتقد ان المنارة وجامعها المتهدم يبلغ عمرهما شيئا يزيد على ست مئة سنة[1] • ولما كنت أشك في ان يكون وصف جوامع بغداد مسلياً لكم سوف أقتصر في الوقت الحاضر على ذكر ان عدد هذه العمارات المقدسة يتجاوز المئة[2] على ما يُعتقد ، أو كان قد تجاوز المئة في يوم من الايام ، برغم ان حوالي عشرين أو ثلاثين منها فقط تستحق الملاحظة والاهتمام لدرجة ما • اما

---

(١) جاء في كتاب (دليل خارطة بغداد قديما وحديثا) للدكتورين مصطفى جواد وأحمد سوسه ان الخليفة المكتفي بالله العباسي أنشأ هذا الجامع خلال المدة (٩٠٢ ـ ٩٠٨) ميلادية وسمي بجامع القصر • ثم « شيد في جامع القصر هذا في سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩م) مئذنة لا تزال قائمة الى يومنا هذا وهي تعرف بمنارة سوق الغزل •• وشيد سليمان باشا الكبير والي بغداد (١٧٧٩ ـ ١٨٠٢م) جامعا في غرب المنارة بقي قائما الى سنة ١٩٥٧ ويعرف بجامع سوق الغزل ••• » •

(٢) لقد أورد الدكتوران في المرجع السابق قائمة تحتوي على (١٦٠) من الجوامع والمعابد والمساجد القائمة اليوم في جانبي بغداد مع التي خربت قبل عدة سنين ، ومعظم هذه كان قائما حينما زار صاحب الرحلة هذه البلاد على ما نحسب •

القباب فلا أظنك تستطيعين ان تجدي ما يزيد على الدزينة منها بحجم يعتد به، وأنا متأكد ان عدد المنائر يقل عن أربع وعشرين • وهناك عدد من المنائر والقباب المغطاة بالآجر المصقول ، الملون في الغالب باللون الاخضر والابيض والاصفر والاسود ، الموشى بالفسيفساء (الموازييك) ليدل على الأوراد والارقام والكتابة التي يكون لها ، على حد تعبير المستر بكنغهام ، تأثير مبهج بدلا من تأثير الروعة والفخامة • ويمكن ان يقال بوجه عام ان جوامع بغداد ومراقدها تنحط في طراز عمارتها عن جوامع ومراقد المدن الاسلامية الكبيرة في الهند بقدر ما تمتاز أبنيتها بوجه عام على أبنية المدن في ايران • وقد تحدثت عن الاسواق من قبل ، وأني اؤيد هنا المستر بكنغهام تمام التأييد في كونها حقيرة حقارة نسبية • أما الخانات والحمامات فلا استطيع ان أذكر الا النزر اليسير عنها ، لكن الخانات التي رأيتها كانت تبدو وهي على درجة كافية من الرثاثة •

ويقول المؤرخ المشار اليه عن دور السكنى في بغداد « انني لم أرَ منها سوى جدرانها الخارجية وسطوحها • وقد لفت نظري بوجه خاص أنني على طول هذه المدينة الواسعة وعرضها لم أجد ولا عقداً مدبباً واحدا في أبواب أي مسكن من المساكن • فقد كانت العقود كلها مدورة ومنبسطة مع شيء من الزينة بالآجر الصغار فوقها • وحتى الاسواق القديمة والجوامع المتهدمة التي كان يلاحظ وجود العقد المدبب فيها يكون شكله أقرب الى شكل العقد القوطي من العقد الاسلامي ، وهذا ما لاحظته في الموصل أيضا • ولذلك لا يمكن ان تكون بغداد نفسها قد كانت مقراً لفن العمارة الاسلامية الذي ربما يكون قد نشأ في بلد يبعد عنها من جهة الغرب •

« وتتألف البيوت من صفوف من الغرف تنفتح أبوابها الى باحة داخلية مربعة • وفي الوقت الذي تشغل فيه السراديب ، وهي غرف تبنى تحت سطح الارض ، أثناء النهار للاحتماء بها من الحرارة الشديدة

تستعمل السطوح المكشوفة لتناول العشاء وقت المغرب والنوم فيها خلال الليل • فمن سطح المسكن الذي كان يقيم فيه المستر ريج الذي كان منقسما الى عدة أقسام ، يكون لكل منها مسرها الخاص للصعود والنزول ، بحيث يتكون منها في الحقيقة عدد من الغرف غير المسقفة ، كان بوسعنا ان نشرف عند انبلاج الصبح على منظر من مناظر بغداد يشبه منظر مدريد الموصوف في « لاديابل بواتو » حين يرينا أسر البيوت المحيطة بنا جميعها في مخادعها المكشوفة ، وهي في حالات على جانب غير يسير من الطرافة في بعض الاحيان • فقد كانت تتعرض لنا من هذا الموقع المنيف ثمانية او عشرة مخادع مختلفة تقع في عدة محلات محيطة بنا • ونظراً لان الاسر جميعها كانت تنام في العراء خلال الصيف بطبيعة الحال كانت تتعرض أمام أنظارنا مناظر بيتية خصوصية كثيرة من دون ان يكتشف أحد ولا مرة واحدة ، أو يشك ، بكوننا كنا نتطلع اليه • فقد كان الزوج في الاسرة الموسرة ينام على سرير مرتفع تفرش فوقه حشية ووسائد من الحرير ، مغطاة بلحاف سميك من القطن من دون ان تحاط بستائر او كلة تقي النائم من البعوض • كما كانت الزوجة تنام على فرشة مماثلة ولكن على الارض بصورة دائمة ــ أي من دون سرير ، وعلى مسافة من زوجها ــ بينما كان الاطفال ، الذين يصل عددهم الى الثلاثة او الاربعة ، يشغلون فرشة واحدة • اما الخدم او المماليك فقد كان كل منهم ينام على حصيرة منفردة تفرش على الارض ، لكن الجميع كانوا ينامون أو ينهضون من الفراش على مرأى من بعضهم البعض • وكان كل فرد ينهض من نومه في ساعة مبكرة بحيث لا يبقى أحد في الفراش بعد طلوع الشمس ، فيطوي فراشه وغطوته ووساداته لتؤخذ الى الدار عدا الاطفال الذين كان يتولى هذا العمل عنهم امهم او احد الخدم •

« ولم يكن أي من هؤلاء يخلع ملابسه كما يفعل الاوربيون عامة حينما يذهبون الى الفراش • فقد كان الرجال يحتفظون بقمصانهم ولباسانهم،

وقفاطينهم أحيانا ، عند النوم • وكان الاطفال والخدم ينامون بنفس المقدار من الملابس التي كانوا يلبسونها أثناء النهار • أما الامهات والبنات الكبيرات فقد كن يلبسن سراويل الاتراك الحريرية الكاملة مع الرداء المفتوح ولفات الرأس اذا كن من الاسـر الغنيـة • وكانت الفقيرات منهن يلبسن جلبابا (دشداشة) فضفاضاً أحمر وغطـاءً بسيطا للرأس • وفي معظم الحالات التي رأيناهـا كانت الزوجـات يساعدن ازواجهن في ارتداء الملابس أو خلعها ، والقيام بكل واجبات الوصيف •

« وقدكان الزوج عادة يؤدي الصلاة بعد ان يكون قد ارتدى ملابسه، بينما يكون المملوك منصرفا الى اعداد القهوة والشطب له • وبجلوسه على سجادته بعد ان تكون هذه قد أُحضرت كانت الزوجة تقوم عـلى خدمته بنفسها ، فتتقهقر الىمسافة مناسبةلتنتظر الكوب بعد تقديمالماء ، وتكون واقفة بين يديه علىالدوام ، وكانت تكتنف بحضوره كذلك في بعض الاحيان ، وحتى انها كانت تقوم بتقبيل يده عند تسلم الكوب منها كما يفعل أحط خدم الدار ومباشريه • وحينما كان الزوج يتكيء على وسائده أو يجلس على سجادته بوضع ارتياح وتراخ لينعم بشطبه او غليونه الصباحي كانت نساء الاسرة ينصرفن الى الصلاة بصورة عـامة • وفي العدد الاكبر من الحالات كن يصلين على انفراد كما يصلي الرجال تماما ، ولكننا لاحظنا مرة واحدة أو مرتين أن ربـة البيت وبعض النساء الاخريـات ، كالاخت مثلا أو احدى القريبات ، كن يؤدين الصلاة معاً معقبة احـداهن اشارات الاخرى التي تقف بجانبها ،كما يحصل حينما يقوم الرجال بصلاة الجماعة خلف الامام • ولم تكن أية امرأة ، سواءً أكانت الزوجة أم الخادمة أم المملوكة ، تهمل هذه الفريضة الصباحية ، لكنني لم أجد بين الاطفال الذين تقل أعمارهم عن اثنتي عشرة سنة من كان يقوم بتأديتها •

« وعلى الرغم من العزلة الظاهرية التي تعيش فيها المرأة هنا ، وفي جميع انحاء الامبراطوريـة التركية في الحقيقة ، فانها غير محرومة من

بالحرية الحقيقية التي يساء استعمالها لدرجة غير يسيرة في بعض الاحيان كما يحصل في أماكن أخرى • ولا يمكن ان ينكر بأن التسهيلات للاجتماعات السرية المريبة هي أكثر في المدن التركية منها في أية مدينة اوربية كبيرة • فان تنكر المرأة التركية او العربية في زيها ولباسها هو على درجة من الكمال بحيث ان زوجها لا يستطيع التعرف عليها من ورائه• وهذا يؤدي بناء على ذلك الى أن تذهب السيدة اينما تريد عند الحاجة •

« وتعد الكرجيات والجركسيات من بين نساء بغداد أجملهن بالطبيعة على وجه التأكيد ، وأقلهن تشويها بالمساحيق • اما نساء الطبقة العليا من سكان البلاد الاصليين فتكون سحنهن أقل طراوة وصفاء ، بينما تكون نساء الطبقتين الوسطى والدنيا ، بشرتهن السمراء وقلة جمال محياهن الا من حيث العيون السود المعبرة ، قد وشمن أنفسهن وشماً وحشياً يكسبهن مظهراً منفراً في بعض الاحيان • وتقوم نساء جميع الطبقات والمراتب بصبغ شعرهن بالحناء ، كما تصبغ راحات ايديهن صبغا قويا بها بحيث تبدو وكأنها أيدي البحارة المكسوة بالقطران » •

والى هذا الحد أكتفي بهذا المقدار مما ذكره المستر بكنغهام • ومن المؤكد ان نساء الكرج والجركس هن أجمل النساء واكثرهن تقديراً هنا ، لكنهن أصبحن أكثر ندرة من قبل • فان تركية لا يسعها بعد هذا ان تشجع تجارة الرقيق مع هذه البلاد التاعسة المضطهدة (القفقاس)، حيث ان أهاليها يرزحون الآن تحت وطأة الحكم الذي يمارسه طاغية أشد قسوة من الحكام السابقين وهو عاهل الروس المطلق المستبد • ويسير القضاء على السكان هناك سيرا حثيثا ، ولكن ليس بالسرعة التي يريدها المغتصب • فحينما كنت في تبريز تناهى الينا ان حملة كانت على وشك أن تجرد من تفليس ضد الأباظة بنية استئصالهم •

وليس من المحتمل كذلك ان يتكاثر العنصر الكرجي هنا ، لأن

المعروف اليوم معرفةً قاطعـة ان قليـلاً من نساء تلك البلاد من يمكنهن تربية الاطفال وتنشئتهم فى هذه الجهات • فهم يموتون عادةً قبل اكمـال الثالثة من أعمارهم ، ويعزو البعض القسم الاعظم من هذه الوفيات الى ولع الأمهـات الخـالي من التبصر بتحشية أطفالهن الصغار بالحلويات وسـائر الانواع غير المناسبة من الغذاء •

ولقد قدر بكنغهام نفوس بغداد حينما كان موجودا فيها بما يتراوح بين الخمسين والمئة الف نسمة • وهو يعتبر عدد نفوسها أقل من عـدد نفوس حلب وأكثر من نفوس دمشق ، بحيث انه يجعل الحـد المقارب للحقيقة ثمانين الفا • على أنه من المؤكد ان عدد النفوس قد ازداد ازدياداً كبيرا فى أيام داود باشا ، ولذلك فانه على ما اعتقد لم يكن يقل قبل طاعون ١٨٣١ عن مئـة وخمسين الف نسمة • وكان القسم الاعظم من هؤلاء أتراكا وعربا ، لكنه كان هناك ايضا عدد كبير من البغداديين الاصليين وهم يكادون ان يكوّنوا عنصرا خاصا يختلط فيـه الدم الايرانى والهنـدى بالأرومات الرئيسة • ومعظم التجار الآن هم من أصل عربى ، وهناك عدد من اليهود والارمن والنصارى التابعين للكنيستين الكاثوليكية والسريانية • ويلاحظ وجود الاكراد والايرانيين والبـدو بكثرة فى الاسواق ، لكن البـدو لا يودون قضاء ليلتهم ما بين الاسوار • اما القسـم الاعظـم من الايرانيين ، الذين هم فى الغالب من زوار العتبات فى كربلاء ومشهد علي ، فيرجعون فى آخر النهار الى الكاظمية وهى قرية وعتبة مقدسة تقع على بعد أربعة أميال فى الجانب الغربى من النهر ، أو يخيمون خارج أسوار المدينة، فى الجهة الشمالية منها •

ويصف المستر بكنغهام أزياء بغداد وألبستها بكونها أقل رونقا وبهاءً بكثير مما هى فى مصر او القسطنطينية فى ذلك الوقت • علىانني لا استطيع الحكم على ذلك بشيء ، لكن منظر الأزياء فى الوقت الحاضر أبعد من ان

يكون شيئا باهراً على وجه التأكيد . وقد أكد لي الكثيرون ان هذا المظهر يختلف اختلافا غير يسير عما كان عليه فى أيام داود باشا . فقد كان الباشا يحتفظ ببلاط زاهر وتأسيسات فاخرة ، كما كانت الحلل والبزات العسكرية على عهده شيئا زاهيا ومتألقا تمام التألق . فان الثمان مئة كرجى من أتباعه، المتزيين بالألبسة الزاهية والمسلحين بالسلاح الفاخر ، الراكبين على الجياد العربية الأصيلة ، المطهمة بالجهاز المزركش ، لا بد ان تكون قد كونت منظرا باهرا في عهده . وكان ضباطه، وهم يقتدون بسيدهم ، يتنافسون فيما بينهم من حيث فخامة العُدد وكثرة الأتباع . اما الآن فلا يوجد شيء من ذلك مطلقا ، اذ تقتصر القوة العسكرية الحقيرة اليوم على عـــدد قليـل من الهاية ، أو الخيالة الألبانيين ، المختلطين بخيالة آخرين من أهل البـــلاد ، التى تتزيا بالالبسة الرثة والاسلحة الحقيرة . وتحتوى كذلك على مفرزة من « النظام » أو الجند النظامى الجديد ، وهذه قطعة عسكرية على آخـــر ما تتصوره المخيلة من عدم الانتظام ، فقـد أفقدها لباسها نصف الاوربى منظر الاتراك المهيب من دون ان يسبغ على أفرادها أناقة الجنـــد الاوربى ومظهرهم المهني . وليس هناك سوى مئات قليلة من هؤلاء الابطال الشواذ ، الذين ذكرني زيهم غير المهندم ، و « الفيس » الاحمر الذى يضعونه فوق رؤوسهم ، بالمساجين الفرنسيين القدماء الذين كانوا يلبسون قبعاتهم الليلية الحمراء وسترهم المتعفنة . اما السراى ، أو قصر الباشا ، فلا ضجة فيـه ولا مظهر يعتد به ، واما الموظفون الفاسدون ذوو المستوى المنحط التابعون للرجـــل التاعس الذى كان يضطلع بمنصب الباشــا فيقتدون بسيدهم فى الرثاثة وقلة الحاشية وفى جميع الوجوه الاخرى .

غير ان الاسواق ما يزال فيها الآن شيء من الحركة واللون . لأن الاتراك والعرب معا مغرمون بالاحمر بمختلف أطيافه ودرجاته ، وبالالوان الزاهية الاخـرى . يضـاف الى ذلك ان الاصباغ والزينات التطريزية ،

وعمائم الشال ، والالبسة الفضفاضة ، مع الخناجر المطعمة بالفضة والمسدسات المدلاة من المحزم ، تعمل كلها على رسم صورة حية مبهجة .

على ان الركوب عبر الاسواق يعتبر عملا فيه شيء من الخطر . فهي، على كونها تؤلف الممرات والطرق العامة في البلد ، ضيقة بحيث أنك تضطر على الدوام الى التوقف فيها بسبب الخطوط الطويلة من الجمال والبغال المحملة التي يحتمل جدا ان تؤدي الاحمال الموجودة فوق ظهورها الى كسر رأسك أو ركبتيك حسب ارتفاع الحيوان الذي تصادفه ، بينما تكون أنت منشغلا بشق طريقك بينها وبين الاعراب الجفاة الذين يمتلىء بهم كل شارع أو زقاق . وقد ذكرتني مجموعات الحمير ، المحملة بالحطب، بسيدة مآدب « ألف ليلة وليلة » التي عزت الجرح الموجود في خدها تظاهراً الى صدمة أصابتها من احدى القوصرات التي كان يحملها حيوان من هذه الحيوانات . فعرّضت بذلك حيوة مجتمع الحطابين كلهم الى الخطر . وتبرهن الخروق المختلفة في سراويلي الآن أكثر من مرة على امكانية وقوع ما جاء في تلك القصة . وكم أتمنى ان يكون بوسعي أن أقول ان دكاكين الطباخين تذكرني على الشاكلة نفسها بدكان سي مصطفى وحلوياته اللذيذة . لكن الحقيقة ان رائحة السمن الزنخ كانت منفرة جدا ، ولم تكن دكاكين الحلواتية كذلك مغرية مثل دكاكين الحلواتية في استانبول .

ومن بين الاشياء التي تلفت نظر الغريب في بغداد الهدوء الرزين ، والجمود الذي يبدو على التاجر التركي[1] وهو يجلس فوق المنصة العالية المنصوبة بالقرب من بابه ، مدخناً شطبه في وسط الضجيج المحيط به ،

---

(١) يلاحظ مما يكتبه صاحب هذه الرحلة انه يعتبر الكثيرين من سكان المدن في العراق اتراكا ويقتصر في الغالب على تسمية أهل الريف والبدو (الاعراب) بالعرب . واعتقد ان القارىء المدرك يمكن أن يكتشف ذلك بسهولة .

كأنه لا يسمع شيئا منه ولا يملك الاهتمام الذي يجب ان يكون عند التاجر ببيع ما عنده من سلع • وحينما يراجعه أحد الزبائن يعرض عليه السلعة المطلوبة ببطء وسكون وينهي المعاملة اذا تم الاتفاق على السعر ــ والا فيتابع تدخينه للشطب • ولو كان في مكانه تاجر ايراني لسألك دزينة من الاسئلة عما تريد ، ولعرض عليك بالتعاقب خمسين شيئا من الاشياء التي لا تحتاجها ، ولقفز من مكانه وعاد اليه عدة مرات ، خلال المدة التي يستغرقها التركي الملتزمت في سحب « الجبوق »[1] من فمه بقصد التحدث اليك • على انه لا بد من الاعتراف هنا بأن الباعة اليهود والارمن يعوضون بسرعتهم وطلاقة لسانهم عن تثاقل الاتراك وتكاسلهم • فأنهم مدركون نشطون في التأكد من طلبات الزبائن وتزويدهم بها •

والمزية الاخرى التي تلفت نظر الغريب في شوارع بغداد واسواقها كثرة العرب ، من البدو وسكان المدينة ، التي ألمعت اليها من قبل • ويتألف لباسهم من قميص خشن يلبس فوقه الناس المتمكنون قفطاناً (زبوناً) مصنوعا من نوع من أنواع القماش الحرير أو القطن ، المخطط في الغالب • وكلهم يضع على كتفيه عباءة من شكل خاص ، فتكون عريضة من دون أردان لكنها مزودة بفتحتين تمد منهما اليدان عند الحاجة ، وتصنع من الصوف المحبوك في حياكته ، المخطط بخطوط عريضة متعامدة بيضاء اللون وبنيته ، لكنها تكون بيضاء أو سوداء اللون في بعض الاحيان • وهي اللباس القومي الخاص ــ أي العباءة العربية المعتادة • ولا يقل لباس الرأس انفراداً وتخصصاً عن العباءة • فليس هو عمامة على ما يعتقد البعض ، ولا شيئا يشبهها • وانما هو يتألف من كفية[2] حرير مربعة الشكل محبوكة

---

(١) الجبوق كلمة تركية بمعنى الشطب وجمعه شطوب وهو عود يحفر بسفود محمى ليدخن به •

(٢) يظهر من هذا ان « اليشماغ » الحالي الذي يلبس تحت العقال في الغالب لم يكن قد ظهر يومذاك •

الحيـاكة ، تخطط بخطوط متسعة صفراء وحمراء ، وتبرم لحمتهـا من الحاشية الى خيوط متينـة قصيرة • وتطوى هذه الكفية بشـكل مثلث ثم توضع فوق الرأس فيتدلى طرفاها على الكتفين أو أمامهما ، بينما يتدلى الطرف الثالث الى الوراء • وفيما حـول قمة الرأس المغطى بهذه الطريقة تلف حزمة من وبر الابل البني[1] اللون ، المبروم برما جـزئيا مرتين أو ثلاث مرات ، بحيث يبدو الرجال لاول وهلة وهم يرتدون العباءة الفضفاضة معه أشبه ما يكون بالنساء الساحرات من الرجال • وليس من الممكن من دون الاستعانة بالرسم ان أنقل اليكم ما يكوّن عندكم فكرة تامة عن التأثير الفريد الذي يحدثه لباس الرأس هذا ، حينما يساعده في التأثير زوجان من العيون السود النفاذة التي تحدّق من بين خصل شـعرهم الاسود • لان العرب ، مثل سائر المسلمين لا يحلقون الرأس ، وانمـا يضفرون شعرهم الطويل الخشن الاسـود بسـواد الفحم (الذي يتدلى عـلى أكتافهم وظهورهم) ويخفونه تحت الغترة[2] • على انه لباس رأس مفيد للبادية ، يخفف من تأثير الحرارة والبرودة وخاصة حينما يلبسون تحته طاقية مصنوعة من الوبر • لانهم يتلثمون بطرفي الكفية في الطقس البارد ، ويتلفعون بها الى ما فوق الوجه والعيون حينما يشتد تأثير الشمس وازعاجها ، وبذلك يُنتفع بهـا للحماية في كلتا الحالتين • ومع ذلك فان هؤلاء البدو قد تحمصت بشرتهم الى حد السواد التام • وأؤكد لكم أنهم يكونون بهذا أشكالا فريدة في وحشيتها حينما يطوفون فوق جيادهم النحيفة ، فتتطاير ملابسهم الفضفاضة في الهواء وتهتز رماحهم فوق اكتافهم • وان المرء قـد يعتبرهم حتى في داخل المدن اشـخاصا تخطر ملاقاتهم ، لانهم يندفعون في سيرهم بهيئـة

---

(١) من الغريب أن لا يذكر بين هذا الوصف لون العقـال الاسود الشائـع الآن ، ولعله لم يكن شائعا في تلك الايام •

(٢) أعتقد ان صاحب الرحلة ربما يكون مخطئا في هذا التعميم المطلق الذي قد ينطبق على البعض من رجال القبائل في البادية وغيرها • ولا يخفى انه يقصد بالعرب هنا أبنـاء العشائر •

الاستقلال الفظ • فان العربي يعتبر نفسه في كل مكان سيد الارض التي يحل فيها ، وهو في الحقيقة يكاد يكون كذلك هنا أيضا • ثم ان صراخهم وهديرهم حينما يسرون قد يؤديان بالمرء الى الاعتقاد بأنهم يهمون بسلب كل من يصادفونه في الطريق • لان العربي لا يتكلم الا بأعلى[1] صوته ، ولذلك يرتفع صوتهم أثناء الكلام بحيث يخيل للغريب أنهم يتشاجرون فيما بينهم • وقد أدت هذه الخصلة في بعض الاحيان الى حصول أغلاط مضحكة • فقد كان أحد النوابين المقيمين في بغداد متشبعا بالخوف من الهيضة (الكوليرا) بحيث لا يخرج من البيت الا وهو يحمل معه الادوية الواقية • وقد حدث ذات يوم بعيد وصوله الى هنا انه بينما كان جالسا في احدى المقاهي أو الاماكن العامة الاخرى ، طلب الى مغن كان موجودا فيه أن يسلي الناس بالغناء • لكن المسكين وجد صعوبة في ذلك وأخذ يخرج أصواتا مبحوحة وأنغاما غريبة ربما كانت تبعث الفزع في نفوس البعض منهم • غير ان النوّاب الذي كان يجهل لغة البلاد تصور ان الرجل قد أصيب بالهيضة الوبيلة التي كان يقال انها قد بدأت تصيب بعض الناس في بغداد بشرها • فهجم النواب عليه والادوية بيده ، وأخذ يقنعه بتناول الحبوب والشرب مما كان في القنينة التي كانت معه فرفض المغني المتعجب ذلك وهو يستغيث بقوله « لا لا لا » لكن النواب ظل يلح عليه بتناول الدواء حتى أفهم بحقيقة الامر •

غير ان العرب ليسوا وحدهم هم الذين يصخبون بمثل هذا الصخب، وانما هو شيء عام في بغداد التي تعد من بين جميع الاماكن الاخرى التي ذهبت اليها غريبة جدا من حيث وجود كل نوع من أنواع الاصوات التي

---

(١) لا شك ان صاحب الرحلة قد تسرع في تعميمه هذا أيضا ، فليس من المعقول أن يقيس المرء قوما كلهم ببعض الاشخاص الذين يرتفع صوتهم في السوق في بعض الحالات •

يمكن تصوره فيها ، ويعد سكانها بوجه عام أشد الناس صخبا • فالغرفة التي أسكنها الآن لها شرفة تطل على الشارع وشباكان ، بحيث ان كل شيء يمر من تحتها يسمع بحذافيره كما لو كان يحصل في داخل الغرفة نفسها• ولذلك يعزف عندي قبيل طلوع النهار جوق من الديكة والدجاج الموجود في ساحة مجاورة ، وترتفع أصواته • ويعقب هـذا بوق النهوض الذى يدق في جناح الحرس السباهيين التابعين للمقيمية ، فيثير بدوره نباح عدد من الكلاب • ويظل النباح مستمرا حتى تبدأ الحمير بالنهيق • وما يحل ذلك الوقت حتى يكون الاعراب المجاورون الذين التجأوا الى المدينة بسبب اضطراب الحالة في خارجها قد شمروا عن سواعدهم وأخذوا يسوقون الى المرعى قطعان الاغنام والماشية والجمال التى جاءوا بها معهم طلبا للامان• ولا بد ان تكون هذه الحيوانات أكثر حيوانات العالم صمما تجاه الرعاة ، أو ان الرعاة يسيئون معاملتها اساءة غـير يسيرة • لانها تنادى بمختلف الاصوات العالية بقصد اقناعهـا بالحركة والخروج الى الخارج ، فيؤدي ذلك كله الى تكوين هدير وثغاء لا مثيل له في أي مكان آخر • وعلى هذه الشاكلة يتجمع قطيع بعد آخر فيزداد الهرج والمرج وتعلو الضجة فتشتبك الاصوات • وما تبدأ بالحركة ويقل الضجيج حتى تعقبه أصوات أخرى ويتعالى ضجيج من نوع آخر، فهناك أصوات المارة والمستطرقين والشحاذين، والاصوات المتعالية من بعيد وغير ذلك • ولا أظن ان هذه الاصوات يمكن ان تضاهيهـا أصوات بيكاديللي بكل عرباتـه ، ولا شـارع كوكسبر او تشرينغ كروس ، ولا سميث فيلد في يوم السوق الخاص • ولا غرو فهذه بغداد الوريثة الحقة لبابل القديمة •

٥

أسباب الخراب في بغداد ـ ظهور الطاعون في المدينة ـ انتشاره ـ المقيم البريطاني يغادر بغداد ـ اعتذار المستر غروفز عن مرافقته ـ تفاقم الوباء ـ دخول الماء من الاسوار وغرق المدينة ـ سقوط سبعة آلاف دار مرة واحدة ـ دفن خمسة عشر الف ـ ذعر الباشا ـ احاطة الماء بالقوافل ـ توقف الفيضان والطاعون ـ دخول الطاعون الى بيت المستر غروفز ـ موت زوجته وطفله ـ حوادث الموت الكاسح واسبابها ـ تأثير الطاعون في الاماكن الاخرى ـ بغداد بعد الطاعون والغرق ـ طاعونان آخران في سنتين اخريين ـ الوفيات في البصرة •

عزيزتي ـــ

كنت حينما اقتطفت مما كتبه بكنغهام[1] قد وصفت بغداد كما كانت عليه في أيام أسعد[2] باشا • وقد أشرت أيضا الى ازدياد النفوس وحلول عهد زاهر تحت حكم داود من بعده • ولو كنت أقف عند هذا الحد فقد يؤدي ذلك الانطباع بكم الى الاعتقاد بأن بغداد قد بقيت على حالتها تلك • فوا أسفاه ! كم تكونوا مخطئين بذلك ! ـ آه كيف يتجندل الابطال ! ـ فان بغداد الآن خراب قفر ، نسبيا ! وقد تم هذا التبدل بتعاقب الكوارث عليها تعاقبا مخيفا كان يمكن ان يحصل في أية مدينة من المدن الحديثة • فقد قضى الطاعون والغرق والمجاعة ، بأبشع اشكالها ، على السكان وقوّض أسوار هذه المدينة العظيمة وعماراتها • وجور الانسان ، وهو أشد نكالا من نقمة القدرة الالهية ، كان ولا يزال يكتسح ما تخلف عن كل ذلك بسرعة •

ففي أواخر عهد داود باشا ، أي في خلال سنة ١٨٣٠ ، تكاثر أعداؤه

(١) يقصد ما جاء عن بغداد ووصفها في الفصل السابق •

(٢) الصحيح هو سعيد باشا ، وسعيد هذا هو ابن سليمان باشا الكبير من ولاة العراق المماليك المشهورين • وقد حكم بين أيار ١٨١٣ وكانون الثاني ١٨١٨ ، ثم أعقبه في الحكم داود باشا آخر الباشوات المماليك في العراق كما لا يخفى بعد أن قتله ، وربما سمي أسعد على سبيل التحبب •

فى مجالس الباب العالي وأواسطه ، فتقرر اسقاطه على كل حال • ولكنه كان قد ثبت أقدامه فى مكانه بحيث ان جميع القوى الموجودة فىاسنانبول ما كان فى مقدورها ان تفعل ذلك لو لم تتدخل فى الامر يد جبارة فتنزله من عليائه • فكان داود قد عمد منـذ مدة طويلة الى تشكيل جيش كفء ونجح نجاحا كان يمكنه ان يهزأ فيه الى حد الازدراء بجميع الاستعدادات العسكرية التى كان بوسع السلطان ان يجردها ضده • وهكذا بقيت الحال الى ان ظهر فى بغداد ، فى أوائل ١٨٣١ ، الطاعون الذى كان يفتك فتكا ذريعا فى ايران • فقد كانت بعض الاصابات الفردية قد وقعت على ما يقال منذ تشرين الثانى المتقدم ، ولكنها اخفيت أو اهملت • ولم تصبح حقيقة الطاعون المميتة ، التى كان يتزايد ظلها فى بغداد ، شيئا مخيفا حتى حل شهر آذار من سنة ١٨٣١ •

ففى اليوم الاخير من آذار أغلق الكولونيل تايلور[١] بيته تبعا العادة الاليمة ، الضرورية ، التى يتبعها الاوربيون الذين يجدون بالتجربة ان هذه الحيطة اذا تم اتخاذها فى الوقت المناسب فانهم يفلتون فى الغالب من المرض الذى لا ينتقل على ما يبدو الا بالملامسة[٢] أو الاتصال الوثيق بالشخص المصاب • وفى مثل هذه الحالات يتم تسلم الاشياء كلها عن طريق خوخات تفتح فى الجدار ، ولا تمس مطلقا قبل ان تغسل غسلا جيدا بالماء • فاللحم والخضروات والدراهم كلهـــا تمر بهذه العملية التطهيرية ، والرسائـــل والاوراق يتم تسلمها بملقط طويل من الحديد وتبخر قبل ان تلمس باليد • ولو كان من الممكن لسكان هذه البلاد ان يضبطوا بحيث يمكن ان يخضعوا لمثل هذه الاجراءات الوقائية لكان من الممكن ان يجرد هذا المرض من تأثيراته، ولقل عدد ضحاياه الى حد كبير • لكن التراخي وعدم المبالاة الممتزج

---

(١) المقيم البريطاني يومذاك •

(٢) لم يتوصل العلم الحديث الى معرفة « باسيل » الطاعون وطرق عدواه الاكيدة الا فى ١٨٩٤ ، أي بعد وقوع هذه الرحلة بسنين عديدة •

بعقيدة واهية بالقضاء والقدر يمنعانهم من اجهاد أنفسهم في هذا الشأن ، مع ان هرب الآلاف من المدينة بأمل التخلص من الوباء الذي تسرب الى مساكنهم يبرهن بطريقة لا تقبل الجدل بان اعتقادهم بالقضاء والقدر غير راسخ أو تام بأي حال من الاحوال ٠

وقد تم هذا القرار في الوقت المناسب ، وهرب اللاجئون ولكنهم هلكوا في مكان آخر وفرصة أخرى ٠ وفي غيرها نقل الهاربون المرض معهم ونشروا سمومه هنا وهناك حتى ماتوا ميتة تاعسة في البر أو البادية ٠ ومع كل ما كان يبذله الاوربيون من عناية او حيطة لم تكن هذه في بعض الاحيان كافية لدرء العدوى وابعادها عنهم ٠ فالفايروس[1] على درجة من الدقة بحيث ان أقل اتصال يحصل يكون كافيا لايصاله من شخص الى آخر، ويستطيع أصغر حيوان نقله من محل لآخر ٠ ولذلك تكون القطط والجرذان والفئران حيوانات مخطرة في هذا الشأن ، وتصبح القطط على الاخص وهي تألف الانسان أشد خطرا عليه ، ومن أجل هذا يقوم الذين لهم عقيدة بأهمية الحجر والعزل باتلافها حيثما توجد ٠ ومن الحوادث المميتة المسببة عن الاتصال بمثل هذه الحيوانات الحادثة التي وقعت في بيت أحد نصارى بغداد المتصلين بالمقيمية البريطانية ٠ فقد كان هذا ممن يقتدون بالمقيم في غلق داره ، وعدم فتحه لاحد ٠ غير ان ابنته في هذه المرة لمست قطة كانت تتردد على البيت ، وكانت هذه القطة قد خرجت الى الخارج أو اتصلت بقطة أخرى فأدى ذلك الى نقل المرض الى البيت واصابة البنت به فقضت نحبها ٠ وقد كانت الطفلة المسكينة منذ اللحظة الاولى على علم بمصيرها ، حيث كانت تقول « أصبت بالطاعون ، وسوف

---

(١) لقد أثبت العلم الحديث في نهاية القرن التاسع عشر أن الطاعون مرض يسببه ميكروب خاص من نوع الباكتيريات العصوية (باسيلس) ، وهو ليس من نوع الفايروس ، كما أثبت ان عدواه تنتقل بطريق الجرذان والبراغيث وما أشبه في الغالب ٠

أموت » فأيدت الاعراض التي ظهرت عليها ما تنبأت به واسلمت الروح بعد أيام أربعة .

ومن المحتمل ان يكون المرض قد جيء به الى بيت الكولونيل تايلور بطريقة عرضية مثل هذه ، مع أنه هو وجميع من كان يسكن معه كانوا على علم بأن البيت ومداخله كلها كان مغلقا غلقا محكما . ففي اليوم العاشر من نيسان مات أحد الحرس السپاهيين به ، واصيب أربعة من خدامه . وكان المرض قد انتشر في هذه المرحلة انتشارا أدى الى موت سبعة آلاف شخص في القسم الشرقي من المدينة ، وهو القسم الذي كان يقع فيه مسكن الباشا والبعثة البريطانية وجميع الناس المعروفين . وكانت أخبار الجانب الثاني على جانب أقل من الفظاعة ، لكن هلع السكان اشتدت وطأته بارتفاع مستوى المياه في دجلة ، التي انبثقت من السدود المقامة على جانبيها فغمرت الاماكن المنخفضة من الناحية الغربية ، ودخلت المدينة حيث كانت ألفان[1] من البيوت قد تهدمت من قبل على ما يعتقد . وقد حيل دون الكثير ممن كان يمكن لهم ان ينجوا بأنفسهم لا بانتشار هذه المياه فقط بل بوجود الاعراب أيضا ، الذين أخذوا يتجمعون الآن حول المدينة فيسلبون الخارجين منها جميعهم الى حد العري .

فبالحصار الذي تم على هذه الشاكلة تسنى للوباء ان يفعل ما يفعل بكل حرية ، ووقع الناس فريسة له بسرعة لا تصدق . ولما وجد الكولونيل تايلور ان داره قد تسللت اليها العدوى لم يبق لديه سوى ان يستخدم الوسائل المتيسرة عنده للفرار في الوقت الذي كانت لا تزال هناك امكانية يستغلها لذلك . وكانت زوارقه ، التي كان قد جاء بها من

---

(١) جاء في « أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » في هذا الشأن « .. وفي ليلة السادس والعشرين (نيسان) انهار قسم من المسناة الواقعة في الجهة الشمالية من المدينة وقسم من القلعة ، ففاض الماء وتساقط على أثر ذلك من الدور ألفان في بضع ساعات .. »

البصرة هو وأسرته ، لا تزال مشدودة بجدران القيمية من جهة النهر بحالة استعداد للخدمة الآنية • فقرر ان يستقلها في الحال ، وكان من حسنات هذا الوضع والموقع ان تلك الزوارق قد ارتفعت بارتفاع المياه في النهر حتى صارت في مستوى الباب الخلفي للدار ، وان سكان الدار كان بوسعهم ان يتخذوا الاستعدادات المطلوبة وينتقلوا الى الزوارق من دون ان يتعرضوا الى أي تدخل كان من الخارج • وحينما تم كل شيء على الوجه المطلوب دعى الكولونيل تايلور المستر غروفز ، المبشر المعروف لديكم ، الى ان يصطحبه وأسرته الى البصرة حيث يمكن بالالتجاء الى بيت في الريف تحاشي العدوى •

على أن المستر غروفز[1] رفض استغلال الفرصة المتاحة له عن تقصد بالغ ، ولم ينزل عند رغبة الكولونيل تايلور في ذلك • وكان الرجل الجليل هذا قد تعهد بالعناية بعدد معين من الاحداث ، وهم أطفال بعض الاسر المسيحية في بغداد ، فمنعته دوافع القيام بالواجب من اتخاذ خطوة كانت تعد في نظره تخليا عن الواجب • فقرر البقاء في مكانه ، وبعد ان وضع ثقته بالعلي القدير الذي أنزل البلوى وهو قادر على انقاذه او القضاء عليه ، أغلق داره التي كانت تحتوي على اثني عشر شخصا ، من بينهم معلم أرمني وأسرته ، وظل ينتظر النتيجة • ويمكن الحصول على أحسن أخبار هذه الفترة المرعبة من يوميات هذا الرجل الكريم • وعلى هذا فأنني سأعمد الى ان أقتبس منها ما يختص بالطاعون والغرق من الاخبار خلال ما يأتي من سرد القصة الموجزة عن الحالة في بغداد •

فقد غادر الكولونيل تايلور بغداد في الثاني عشر من نيسان • وفي

---

(١) Rev. A.N. Groves ، مبشر انكليزي اقام في بغداد عدة سنين وفتح مدرسة فيها لأيتام النصارى من أرمن وغيرهم ، وله كتيب يصف فيه أيام الطاعون الكبير هنا في بغداد الذي وقع في ١٨٣١ • والكتاب اسمه
Journal of a Residence in Baghdad (London 1832)

اليوم السابق لذلك علم بأن عدد الموتى قد بلغ حد الألف والمئتين ، وفي يوم السفر بالذات تأكد لدى العارفين بأن ألفاً واربعين حادثة موت قد حصلت في الجانب الشرقي من المدينة وحده • وفي اليوم التالي لذلك علم المستر غروفز بكل ألم ومرارة بأن المرض قد تسرب الى الدار المجاورة لداره ، التي كان قد تجمع فيها ثلاثون شخصا ، وكأنهم قد فعلوا ذلك لغرض تزويده بالضحايا المهيأة لا غير • وفي ذلك اليوم بالذات كانت الوفيات تتراوح بين الألف والألف وخمس مئة ، وكان معظم من مات في هذا اليوم في خارج أسوار المدينة • ثم ازداد عدد الموتى الى ألف وثمان مئة• وقد أخذ الهلع والخوف من الاحياء الباقين مأخذه بحيث كان يندر اقناعهم بالبقاء لدفن موتاهم • واتخذ الكثيرون الاستعدادات اللازمة للمصير الذي كانوا ينتظرونه بتهيأة الأكفان لهم ولأسرهم ، قبل ان يؤدي الطلب المتزايد عليها الى استهلاك المتيسر منها كله • واصبح الماء شحيحا أيضا ، لان كل سقاء كنت تطالبه بالوقوف كان يرد عليك بأنه كان يأخذ حمله من الماء لغسل جثة أحد الموتى • وقد روت بنت أرمنية للمستر غروفز خبرا قالت فيه انها كانت قد عدت خمسين جثة وهي تنقل للدفن في فسحة لا تزيد مساحتها على ست مئة ياردة • ولم يكن السكان قادرين على بذل أي نوع من الجهد ، لان الحيرة على ما يبدو قد شلت أيديهم وأذهانهم فأفقدتهم رشدهم • فجلسوا في بيوتهم ينتظرون الموت الذي كان آتيا لا محالة ، وكأنهم قد صعقوا مما كان يمر أمامهم ، ونادراً ما كان يتخايل أحد في الشوارع في هذا الوقت عدا حَملة الموتى والاشخاص الذين كانوا يأخذون الاكفان لهم ، وعدا السقائين الذين كانوا يأخذون الماء لغسل الجثث •

وبقي عدد الوفيات ثابتا لا يتغير ما بين السادس عشر والحادي والعشرين من نيسان ، على قدر ما يمكن التأكد منه ، وظل محافظا على مستواه المقارب لألفي وفاة في اليوم الواحد • لكن حوادث كثيرة تنفرد بنوع النكبة التي

تؤدي اليها كانت تحدث هنا وهناك • فان أسرة ً ينتمي اليها أحد طلاب المستر غروفز الصغار قد اصيب أربعة أشخاص من مجموع الستة الذين كانت تتألف منهم ـ اذ أصيب الوالد والأم مع أحد الاولاد واحدى البنات ، ولم يبق منهم سوى بنت وابن فقط • أما كتائب الباشا المعروفة التي كانت تتألف واحدتها من سبع مئة رجل ، فان بعضها قد بلغ عدد الذين أتى عليهم الطاعون حد الخمس مئة • وكانت أخبار المناطق المجاورة للمدينة على أسوأ مما كانت عليه في داخلها • كما كانت المياه الطاغية في النهر يعلو مستواها علواً سريعا كذلك ، حتى أصبح خطر الغرق العام وشيكا كل يوم •

ففي اليوم الحادي والعشرين من الشهر انبثق الماء من سراديب المقيمية ، ووصل الى أوطأ من قمة السدود المحيطة بالمدينة بقدم واحد • وبأمل التمكن من تقديم المساعدة ذهب المستر غروفز الى المقيمية • لكن المناظر التي شاهدها في الطريق كانت تبعث في النفس التألم والكدر الى أقصى الحدود ، ولم يكن من الممكن مطلقا الحصول على أي نوع من المساعدة للمصابين الذين كانوا يصارعون المرض • فمن الناس من كانت زوجته تعاني سكرات الموت ، ومنهم من كانت أمه تفعل ذلك ، ومنهم من كان مضطرا لان يذهب بنفسه الى الشط فيحمل الماء منه ليغسل طفلا ميتا • لان السقاة الاعتياديين انعدم وجودهم ، واذا ما وجد منهم أحد كنت تجده مصحوبا بخادم يسوقه الى بيت حدثت فيه حادثة وفاة • وقد امتلأت ساحة الجامع بالقبور الحديثة وأخذ الناس يدفنون الموتى في الشوارع العامة • ويقول المستر غروفز « ان الموت قد أصبح الآن مألوفا بحيث ان الناس صاروا يدفنون أقرب الناس اليهم من دون اكتراث يعتد به ، كما لو كانوا يقومون بعمل اعتيادي • • »

ولم تكن المناظر القريبة على أقل من ذلك اثارة ً للألم والانزعاج • ففي مقابل شبابيك الدار التي كان يقيم فيها المستر غروفز كانت هناك

دربونة تؤدي الى ثمانية بيوت ، ومن هذه البقعة الصغيرة فقط كانوا يشاهدون الجثث تنقل الى الخارج يوما بعد يوم حتى صعد عددها الى سبع عشرة جثة • وفي اليوم الثالث والعشرين توفيت أم السيد ، صاحب البيت الذي يسكنه المستر غروفز ، في بيتها ولما لم يكن من الممكن الحصول على مساعدة أحد لنقلها الى مدفنها في الخارج قبرت في بيتها من قبل خادمتيها اللتين سرعان ما أتى الموت عليهما من بعدها • ونظراً لعدم وجود أحد له علم بمصيرهما فقد بقيت جثتاهما في مكانهما ، تملأ رائحتهما الجو ، حتى نهبت الدار بعد ذلك بمدة وجيزة وكسرت بابها فأصبح أمرها معروفا [1] •

وفي هذا اليوم نفسه شوهدت بنت صغيرة عمرها اثنتا عشرة سنة وهي تحمل طفلا بين ذراعيها في الطريق ، وحينما سئلت عنه أجابت بأنها لم تكن تعرف من هو — لقد وجدته في الطريق وعلمت ان والديه قد توفيا • وقد كان عمل الطفلة هذا ضربا من العمل الخيري الشائع جدا يومذاك ، وخاصة بين الاناث من الناس ، لكنه كان شيئا مميتا في كثير من الاحايين • اذ ذكرت امرأة أرمنية جاءت تستعطي شيئا من السكر لطفل التقطته على هذه الشاكلة ان جارتها كانت قد أنقذت طفلين بنفس الطريقة

---

(١) جاء في الص ٣٩ و ٤٠ من كتاب (تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في أيام داود باشا) لمؤلفه عبدالقادر الخطيبي الشهراباني الذي نشره الأب انستاس الكرملي في ١٩٣٦ : « •• فوقع الطاعون في بغداد وكثر الموت فما بقي شعور عند الأحياء من دهشة ما حل بهم • يكفيك الوالدة لفظت ولدها في الطريق • والخلاصة مابقي أحد ليغسل الموتى ، ولا بقي من يحفر حفائر حتى يلقون الاموات فيها • فبذلك الوقت المهول المرحوم بكر افندي كان متوفى فما التقى أحد يغسله ويدفنه ، ومن بعد ثلاثة أيام التقى رجل من الغرباء مر على بيته فشم رائحة نتنة فافتكر فرأى هذا قرب بيته مسجد يقال له مسجد بير دود ، فأتى به الى ذلك المسجد فرأى حفرة فرماه فيها ••• ومن بعد عشرين يوم خلص الطاعون وتراجعت الناس وأمر داود باشا الى من بقي من معسكر الحيطة (الهاينه) أن يدوروا في البلد ، وكلمن منهم اذا رأى ميتا ملقى على الارض فيرمونه في الشط وعلى رأس كل ميت الذي يرمونه في الشط يعطوهم مئة قرش اجرة • فتفرق هؤلاء المأمورون في البلد ، وبقوا يسألون الناس عن الأموات الذين باقين على وجه الأرض من غير دفن فيحملونه ويرمونه في الشط •• » (نلاحظ ركاكة اللغة) •

بعد ان وجدتهما متروكين في قارعة الطريق • فمات الطفلان كلاهما ثم أعقبتهما هي نفسها • ومن بين جميع الحوادث المؤلمة المقترنة بالحملات الخيرية التي كان يتولاها المستر غروفز أحيانا عند خروجه من البيت ، كان منظر الاطفال العديدين المتروكين على هذه الشاكلة أشد المناظر ايلاما وازعاجا • فقد كان الآباء والامهات ، حينما يجدون أنفسهم قد اصيبوا بالمرض ، يعمدون الى أخذ ابنائهم المرشحين لليتم ويتركونهم بالقرب من أبواب البيوت المجاورة « الى رحمة الغرباء في وقت قضت فيه التعاسة الشخصية على كل احساس بشري • » كما يقول المستر غروفز • ثم يتابع وصفه قائلا « وكان الكثيرون من مئات الاطفال المتروكين على هذه الشاكلة لا يزيد عمرهم على عشرة ايام • وقد وجدت في طريقي الى المقيسية ثمانية أو عشرة من مثل هؤلاء • ولم يتيسر أي عون أو أمل انساني لهم ، الا اذا كان بوسع الذين تركوهم ان يعودوا اليهم فيسترجعونهم من الطريق بعد ان يئسوا من عطف الغرباء عليهم • وقد خابت جهودي المخلصة كلها في ايجاد أي نوع من المساعدة المثمرة لنجدة اولئك الصغار الابرياء ، الذين كانت أسرتي أنا أيضا ليست في وضع تستطيع فيه تقديمها لهم حتى لو خاطرت بجلب العدوى الى بيتي » •

وفي الرابع والعشرين من الشهر أدى سقوط أحد جدران المقيسية بسبب المياه المترشحة في داخلها الى قيام المستر غروفز بزيارتها مرة اخرى • فلم يصادف في طريقه الى هناك ولا نسمة واحدة من الناس في الشوارع ، عدا الذين كانوا يحملون الجثث والاشخاص المصابين بالطاعون الوبيل • وكانت صرر الملابس ، من مخلفات الموتى ، ملقاة بالقرب من كثير من الابواب • وقد اُغلقت ساحة الجامع الكبير ، اذ لم يبق فيها مكان لهم • ولذلك كان الناس يحفرون القبور في جوانب الطرق ، وحتى في الطرق نفسها ، وفي كل بقعة فارغة أخرى • وبينما كان المستر غروفز يتحدث الى الخادم الوحيد الذي بقي حياً من خدم الكولونيل تايلور في

المقيمية تناهى اليه ان عمته ، التى كانت ثامن شخص من أقاربه يصاب بالعدوى ، قد قضت نحبها مثل غيرها • ومات هذا اليوم كذلك بائع مشهور من باعة قطن الاكفان ، بعـــد ان كان يستغل حلول النكبة ويبيع القطن بأسعار مرتفعة • ولذلك لم يبق فى المدينة شيء من هذه السلعة • وارتفع سعر الحبال ايضا الى أربعة أضعاف سعرها الاصلى • وبدلا من ان تدفن الجثث بموجب مراسيم الدفن المعتادة ، صارت تلقى حتى جثث الموسرين من الناس على ظهور البغال او الحمير ثم تؤخذ لتدفن فى حفرة من الحفر • ومما يذكره المستر غروفز أنه صادف فى طريقه نساء عربيات كن يقمن بأيماءات غريبة تلفت النظر ـ وكأنهن كن يخاطبن بها الله عز وجل متعجبات من بقاء الافرنج والكفار مثله على قيد الحياة ، بينما كان يموت ذلك العدد الكبير من المسلمين • فكان تأثير ذلك عليه شيئا مرعبا ومؤلما ، خاصة وقد كان فى تلك اللحظة محاطا بالموتى والمائتين وزمجرة الكلاب التى كانت تنهش بالجثث (حتى قبل ان يسلم أصحابها الروح أحيانا الى بارئها) ، المختلطة بصراخ التاعسين من الاطفال الملقون فى قارعة الطريق ، الامر الذى كان يتكوّن منه منظر مفزع فظيع لا يمكن أن ينمحي من ذاكرته •

وقد ازداد عدد الوفيات فى هذه الاثناء ازديادا ملحوظا • اذ تأيد فى اليوم السادس والعشرين من الشهر لدى المسؤولين فى السراي بأن عدد الموتى بلغ خمسة آلاف نسمة فى يوم واحد ـ ولا شك ان العـــدد قد ازداد بمقدارأربعة آلاف على ما يبدو ، وكان هـذا من مجموع السكان الذى لم يكن يتجاوز فى ذلك الوقت الخمسين او الستين ألفاً • لأن ثلث السكان على الاقل كانوا قد غادروا المدينة أولاً وآخرا • ثم ارتفع مستوى الماء ارتفاعـا مخيفا كذلك ، فكان توقع مـا يمكن ان يؤدى اليه تدفقه الى المدينة شئا فظيعا • على ان جميع ما كان يتوقعه الناس بفظاعته قد تجاوز التحقق فى اليومين التاليين • ففى تلك الليلة تهدمت كتلة كبيرة من السور فاندفع المـاء بكل قوته الى داخـل المدينـة ، وغمر محلة اليهود بسرعة ،

فتهدمت مثلا دار من دورهم في الحال • وقد سقط كذلك قسم من سور القلعة ، ولم يكن هناك أمل كبير بامكان بقاء أي بيت او جدار قائما عند تسرب الماء اليه بالنظر لطبيعة الملاط الذي تبنى به الجدران معظمها وقابليته للتفتت • وما حلت الليلة الثانية حتى كان القسم الاسفل من المدينة بأجمعه تحت الماء ، فسقطت على ما يقال سبعة آلاف دار مرة واحدة ، دافنة بذلك المرضى والذين كانوا يعانون سكرات الموت والاموات والاضحاء في رمس مشترك • والمقول استنادا الى مراجع غير قليلة الثقة ان ما لا يقل عن خمسة عشر ألف شخص ، مريض وغير مريض ، أتى عليهم الماء فأغرقهم بلجته في هذه الحادثة وحدها • واذا أخذنا بنظر الاعتبار احتشاد السكان في الاماكن التي كان يمكن الالتجاء اليها من المدينة ، وتعذر الهرب على الناس في الخارج بسبب الطوفان الحاصل ، نجد ان هذا الحسبان ليس مما لا يمكن تصديقه على كل حال • وقد جاء القليلون الذين نجوا من هذه الكوارث بمخلفات اسرهم المحطمة الى الدور التي بقيت سالمة في الاجزاء المرتفعة من المدينة وخالية بسبب الهجر او الطاعون ، وبهذه الوسيلة زودوا الوباء الفتاك الذي كان لا يزال مرابطا في المساكن التي أشغلوها بغذاء جديد • ويعلق المستر غروفز على هذا الحادث بقوله « ليس هناك شيء يمكن ان يعطي فكرة مثيرة حقا عن مقدار تعاسة الافراد وبؤسهم في هذه الفترة اكثر من مرور هذه الحادثة المخيفة من دون ملاحظة تذكر ، أو جهد يبذل للتفريج عن المصابين بوطأتها ، بينما كانت حادثة مثل هذه اذا وقعت في أي وقت آخر لا يتردد ذكرها على كل لسان فقط وانما تبذل أيضا أشد الجهود وأعظمها لمساعدة المتضررين بها » •

وقد بلغت صعوبة الحصول على المؤن أشدها في هذه المرحلة • اذ صار الاشخاص المحترمون جدا يدورون على الابواب ليستجدوا شيئا من أبسط الضروريات اللازمة للعيش • وكذلك ازداد عدد الموتى المتروكين في الشوارع الى درجة مخيفة ، وتعذر وجود الوسائل اللازمة لرفع جثثهم

يدفنها • وقد شارك في هذا الوضع الذى وصلت فيه الشدة حدها الاقصى مشاركة تامة عاهل المدينة المبتلاة وسيدها الهمام • اذ أصبح السراي شبيها بمساكن القسم الاعظم من رعاياه ـ أى كومة من الانقاض يقبع فيها هو نفسه ، وهو على أشد ما يكون من الرعب والحيرة • وقد صرح لخادم من خدام المستر غروفز بأنه كان لا يعرف أين ينام فيضمن سلامة نفسه • حيث انه كان يخشى فى كل ليلة ان يدفن بين أنقاض القسم المتبقى من مسكنه • ولذلك بعث يطلب الزورق الباقي لدى المقيمية لعله يستطيع الهرب به من المدينة ، لكن نوتيته لم يكن قد بقي منهم فى قيد الحياة سوى رجل واحد ، وحتى الباشا لم يستطع تأمين الرجال اللازمين لتشغيله • ويقول المستر غروفز فى هذا الشأن « ان الخوف منه لم يعد له أثر بين الناس ، ولم يعد لمحبته وجود » • فكان حتى فى قصره مجردا عن السلطة ، لأن الموت كان يعمل جاهدا فيه كما كان يعمل فى أى مكان آخر ، وتضاءلت السلطة التى كانت مطلقة فيأيام الحكم البشري حتى أصبحتفيحكم العدم تجاه تأثيرات القدرة الالهية • فمن مجموع المئة كرجي الذين كانوا يقفون فى خدمته لم يبق على قيد الحياة سوى أربعة فقط • وجل ما كان يمكن عمله هو ان يرمى الموتى من الشبابيك الى النهر لئلا تسري عدواهم الى الاحياء وليحال دون التأثير على نفسيتهم • ثم تهدمت اصطبلات القصر كما تهدم القصر نفسه ، فصارت خيول الباشا جميعها تهيم على وجهها في الشوارع حيث كان بوسع كل أحد ان يقبض عليها ، فبيعت معظمها الى الاعراب • ولذلك علق المستر غروفز على وضع الباشا يقول « اذا كان الباشا على مثل هذا الحرمان من العون والمساعدة فأى بؤس وشقاء كان لا بد ان يرزح تحتهما الجمهور الاعظم من الناس الذين تركوا ليصارعوا الموت وحدهم » •

وفى أثناء هذا الصراع الرهيب مع الموت كانت المناظر المحيطة ببيت المستر غروفز وأسرته على مقدار كبير من الكآبة والعسر ، مع كل

ما حبتهم به العناية الالهية من تحاشي المرض الحقيقي وأخطاره • فمن الدربونة الصغيرة المقابلة لهم كانوا قد شهدوا بأم رأسهم خمسة وعشرين جثة تحمل الى الخارج، وكانوا على علم بوجود عدة أشخاص مرضى فيها• وفي احدى الدور التي كانت تحتوي على ثماني أنفس لم يبق سوى شخص واحد على قيد الحياة ، وعلى الشاكلة نفسها لم يبق من الثلاثة عشر شخصا الذين كانت تضمهم دار أخرى بقربها سوى نفر واحد • ولم تكن هذه حوادث فريدة في بابها بأي حال من الاحوال • فمن مجموع الثمانية عشر خادما وسپاهيا الذين كان الكولونيل تايلور قد تركهم لرعاية المقيمية لم يبق في نهاية الشهر غير أربعة ، وحتى هؤلاء أصيب اثنان منهم بعد ذلك ففارقا الحياة • وكان في المؤسسة التابعة للمستر غروفز خمسة معلمين للغتين العربية والارمنية ، فأتى الموت على كل واحد منهم وأزالهم من الوجود • ومع كل هذا السيل الجارف من الموت الذي كان يكتسح الناس زرافات ووحدانا ، لم يقلل المرض من ضراوته ولم يتناقص عدد الوفيات اليومية • فقد تجمع السكان الباقون في بقع أضيق فأضيق من المدينة بتأثير الغرق الذي داهم الكثير من محلاتها ، فهيأ ذلك لسهام الطاعون ونباله أهدافا أوضح ومقاتل أسهل نيلاً • ولا غرو فان تدفق السكان من المناطق المغمورة بالماء على البيوت الملوثة من قبل قد هيأ للوباء ضحايا جديدة ، فبقيت جثث الموتى وهي تنفث سمومها في جميع باحات البيوت وفسح المدينة ، وتملأ الشوارع فتربك الحالة فيها •

ولم يكن هذا القضاء المخيف على الارواح البشرية مقتصرا على المدينة وحدها • فان قافلة كبيرة الى دمشق كانت قد غادرت بغداد في بداية أمر الطاعون ، لكنها أخذت العدوى المميتة معها وصادفت في طريقها بالاضافة الى ذلك عدوا آخر لا يقل عن الطاعون قدرة على الفتك والدمار، وهو الفيضان • فالتجأت الى بقعة من الارض مرتفعة ارتفاعا نسبيا وبقيت محاصرة هناك لمدة أسابيع ثلاثة كان الماء خلالها يضيق الخناق عليها

باستمرار ويقلل عدد أفرادها يوميا ، فكان رئيس القافلة « قافلة باشي » في عداد الموتى منهم • وقد حاول الكثيرون ان يعودوا فيجربوا حظهم فيعيشوا في بيوتهم من جديد لكن الزوارق كان يندر الحصول عليها ، كما كان القليل الذي يمكن الحصول عليه منها يسام غالياً بحيث لا يستطيع الاستفادة منه الا القليل منهم •

وعلى الشاكلة نفسها ، خرجت قافلة من بغداد متوجهة الى همدان في ايران وهي تتألف من ألفي شخص • فحملت الوباء معها وأدى ذلك الى موت نصفهم في الطريق • فكانت هذه القافلة تترك في كل منزل تنزل به من ستين الى سبعين جثة ملقاة على الارض ، كما كان عـدد غير يسير يموت في أثناء المسير على ظهور الخيـل والبغـال او يقع من فوقها حينما يمرض فيترك ليموت على قارعة الطريق ، وتسلب لوازمه من قبل الذين لم تستد اليهم يد الموت •

والأنكى حتى من كل ذلك ما كانت عليه حالة الالوف الذين تأخروا بالفرار من الطاعون فأحاطت بهم المياه الفائضة وقضت عليهم • فقد اضطروا الى التراجع الى البقع المرتفعة من الارض ، وظلوا يرقبون المياه وهي تطغى وترتفع من حولهم حتى صعدت الى ارتفاع نصف ياردة في كل خيمة • ولم يتيسر لهم الطعام ولا الوسائل اللازمـة لاشعال أي نوع من النـار • ولذلك لم يكن بوسع المريض ولا المعافى ان ينام أو يستلقي ، والأسوء من هذا أنهم لم يكن لديهم من الوسائل ما يستطيعون به ان يدفنوا الموتى الذين كانوا يزدادون بينهم • وقد حاول البعض وهو نصف مخبول من اليأس أن يعود فيموت في بيته ، لكن المياه لم تترك له أي سبيل وتعذر الحصول عـلى الزوارق بأي ثمن • ومما كان يزيد في حراجـة الموقف الذي كان يقف فيه هؤلاء اللاجئون ان الذين كانوا يتوقفون في الافلات من حصار الماء كانوا على يقين بأنهم لا بد ان يقعوا في أيدي السلابين من الاعـراب

الذين كانوا يسلبون جميع من يصادفونه ، نساءً ورجالا ، من دون تمييز ٠

وفي أثناء تراكم هذا المقـدار الكثير من التعاسة والشقاء البشري لم يكن هناك أروع من الهدوء الشبيه بهدوء الموت الذى كان يخيم على المدينة فى جميع أرجائها ٠ فقد كف الملالي عن الآذان للصلوة ، وتخلى النادبون عن ندب الموتى ٠ ووصف المستر غروفز ذلك بقـوله « أن البلية ألجمت الناس بحيث كان المرض يستولي على اللب حينما كان يفكر المرء بها » ٠

وقد كانت أول لمحة من لمحات الفرج فى مضاعفات الالم هذه ومعاناته تنطوي في هبوط مستوى المياه الذى حصل فى بداية أيار ٠ وبعـد ذلك بمدة وجيزة جيء بشـيء من الرز من الجانب الآخـر ٠ وكان محتكرو الحطب الذين استغلوا احتياج السكان المساكين وعوزهم قد وقعوا فرائس للوباء فأصبح الحصول على ما كان عندهم من وقود شيئا ممكنا ٠ ثم تسنى للمساكين التعساء الذين لم يتذوقوا طعاما مفيدا مدة طويلة من الزمن ان يطبخوا طعاما مناسبا ٠ وبعد قليل ، أي فى الرابع من أيار ، ظهرت بوادر التخفيف من وطأة الطاعون نفسه ٠ اذ كانت الايام التى سبقت ذلك جميلة وسماؤها صافية الاديم ، وبشر ارتفاع الحرارة بالحد من ضراوته ٠ وفى ذلك اليوم نفسه قل عدد الحالات المرضية الجديدة وهبط عـدد الوفيات أيضا ، بينما تطاولت قائمة المتماثلين الى الشفاء ٠ « وقد سرت أنظـارنا » على حد قول المستر غروفز «حينما رأينا ثلاثة أو أربعة من السقائين يعودون للعمل وهو أول منظر نشاهده من هـذا القبيل خلال عشرة أيام ٠ كمـا شوهد المزيد من الناس يمرون بالازقة والشوارع ، وفى هذه الليلة سمعت لاول مرة منذ ثلاثة أسابيع الملالي يؤذنون للصلاة » ٠

ومنذ هذا الوقت فصاعدا كانت أخبار المدينة تتحسن بالتدريج ٠ غير ان ما يؤسف لـه ان المرض الذى لـم يتعرض لبيت المستر غروفز حتى الآن ظهر فيه فى اليوم السابع من أيار ، وكما هو معروف تمام المعرفة كان

على ذلك الرجل الممتاز والمسيحي المتفاني ان يتحمل المصاب المؤلم بفقد زوجته وطفله • ثم أصيب شخصان آخران هناك فماتا كذلك ، وقد كان أحدهما المعلم الذى سبق له ان فقد على هذه الوتيرة من قبل أربعين قريبا من مجموع أربعة وأربعين •

هذا وبوسعنا ان نستمر في سرد حوادث الموت الكاسحة التى عرف بها سير الطاعون في هذه الفترة ونتمادى في ذلك من دون توقف • فقد محيت مئات الاسر عن آخرها ، ولم يبق من كثير من الاسر الاخرى التي كان يبلغ عددها عشرين او ثلاثين شخصا سوى شخص واحد أو شخصين فقط على قيد الحياة • وذكر أحد الارمن للمستر غروفز ان سكان المئة والثلاثين دارا التى كانت تتكون منها محلته لم يبق منهم حيا سوى سبعة وعشرين شخصا فقط • كما أخبر ابن الملا المتصل بالمستر غروفز ان المحلة التي يقيم فيها هو لم يبق فيها حيا ولا شخص واحد ، فقد ماتوا كلهم • اما السيد ابراهيم ، الخادم الوحيد الذى بقي على قيد الحياة من خدام الكولونيل تايلور ، فلم يسلم من أسرته البالغ عددها أربعة عشر شخصا سواه هو وحده • ومن حوادث الوفيات الفريدة في بابها ، التي حصلت في جهات الباشوية الاخرى ، يمكنني ان اذكر ان الحلة لم يكد يبقى فيها أحد من الناس بسبب الطاعون ، بعد ان كان عدد نفوسها قبل الطاعون يناهز العشرة آلاف نسمة • ويبدو مما استطعت ان أحصل عليه من الاخبار ، ومما يرتأيه المستر غروفز ، انه من المحتمل جدا ان يكون الطاعون قد أتى على ثلثي[1] السكان كلهم في بغداد ، وان عدد الذين وقعوا فريسة لهذا

---

(١) لقد ظل الطاعون خطرا مرعبا في جميع أنحاء المعمورة على مر الدهور وكر القرون. وظل شبحه المخيف يقض مضاجع الامم ويقضي على الملايين من نفوسها حتى استطاع العلم الحديث تشخيص ميكروبه وتعيين طريقة عدواه في نهاية القرن التاسع عشر • فقد بلغت ضحايا الطاعون في روما سنة (٨٠) للميلاد عشرة آلاف نفس في اليوم الواحد • وقضى الطاعون الذي انتشر في أوربة كلها عام ١٣٤٨ على خمسة وعشرين مليونا من البشر ، أي على ما يقرب من ربع السكان فيها جميعهم • فهبط عدد نفوس روما بهذا السبب الى عشرين الف نسمة فقط • ومات في مدينة فلورنس وحدها ما يزيد على المئة الف نسمة • هذا وقد كانت ضحايا هذا الطاعون الوبيل تبلغ الملايين في البلاد الاسيوية ، وخاصة الكبيرة منها مثل الهند والصين •

المرض لم يكن أقل من مئة ألف نسمة اذا لم يكن أكثر • ولا شك ان عدد الوفيات قد ازداد بصدفة الفيضان المؤسفة ، فقد وقع أولاً في الريف فحال دون هروب الناس من الطاعون وحاصر القسم الاعظم منهم ما بين الاسوار • ثم تسربت المياه الى المدينة نفسها وعند ذلك لم تغرق الالوف من الناس او تدفن في خرائب البيوت فقط وانما احتشد من بقي على قيد الحياة منهم في مساحة ضيقة فوق البقع الجافة من الارض ، واضطروا على الهجوء الى البيوت الملوثة بجماعات يتراوح عدد افرادكل منها بين العشرين والثلاثين ، وهم محاطون بالفساد والتفسخ ، ومحرومون من الملابس والمؤونة ، او وسائل اشعال النار • وقد كان تراكم الجثث غير المدفونة كذلك مؤديا الى تفاقم التأثيرات الناجمة عن تفشي الطاعون ، بتلويث الجو وجعله أشد ايذاءً وأهلاكاً للنفوس[1] •

---

(١) لقد وقعت قبل هذا الطاعون المخيف في العراق طواعين اخرى كان لها تأثيرها البين في أماتة الروح فيه خلال تلك الايام الخوالي • وأذكر فيما يلي ما وقع منها في الحقبة المنحصرة بين العقد الأخير من القرن السابع عشر للميلاد وسنة ١٨٣١ ، أي السنة التي وقع فيها هذا الطاعون • فقد حدث قبيل وصول والي بغداد الحاج حسن باشا الكبير الى العراق أن تفشى الطاعون فيه سنة ١٦٨٩ وظل يفتك بالناس وتشتد وطأته مدة تزيد على الخمسة أشهر • وبلغ من ضروراته وكثرة ضحاياه أن صار يسميه البغداديون « أبو طبر » ، والمعتقد عند بعض المؤرخين ان هذا الطاعون قد فتك بمئة الف نسمة من السكان وقضى عليهم • وقد سرت عدواه الى بغداد من مندلي على أثر مجاعة كبيرة بدأت بالموصل والمناطق المجاورة لها ، ثم امتدت الى العراق الأوسط والجنوبي نظرا لقلة الامطار وجفاف الحقول • فأدى تقاطر السكان على بغداد بهذا السبب الى انتقال المرض اليها وانتشاره في محلاتها • ثم عاد هذا الطاعون الى بغداد في السنة التالية (١٦٩٠) ، فكان أشد فتكاً وضراوة من قبل على ما يقال واستمر مدة تناهز الثلاثة أشهر فمات من جرائه خلق كثير • ثم سرت عدواه الى الجنوب حتى وصل الى البصرة • وتقول بعض الروايات ان ضحاياه فيها قد زادوا على عدد الضحايا التي جند لها في بغداد بحيث أن الناس في البصرة قد عجزوا عن دفن موتاهم ، فصاروا يوارونهم التراب في المحل الذي كانوا يقعون فيه • وفي أواخر سنة ١٧٣٧ تفشى الطاعون في الموصل وبقي مقيما فيها الى السنة التي تلتها ، فبلغت اصاباته الف اصابة في اليوم الواحد • ولم تمض سنتان على ذلك حتى ظهر الطاعون في بغداد أيضا ، فقضى على خلق كثير من سكانها •

وفي سنة ١٧٧٢ تسلل الطاعون من استانبول الى بغداد وظل فيها مدة تناهز الستة أشهر • ومن أجل هذا خرج الكثير من الناس الى القرى والارياف فرارا من شره ، ومن جملتهم الوالي عمر باشا الذي خرج الى ضواحي الاعظمية وخيم فيها مدة تزيد على الشهرين • =

ومع هذا ، فحتى في حالة عدم وجود مثل هذا الاتفاق في الاسباب المؤسفة كان لا بد لوباء مثل هذا ان يحدث في أية مدينة شرقية أخرى تأثيره المعروف الذي لا يمكن ان يحصل في المدن الاوربية ، في أيامنا هذه على الاقل ، بوجود قوة نظامية من الشرطة . فان فائدة حجر الناس وعزل البيوت عن العدوى أصبحت حقيقة لا جدال فيها . اذ من النادر أن يصاب أحد من الاوربيين في استانبول او غيرها حينما تتخذ مثل هذه الحيطة .

= وفي رحلة أبي طالب ان سبعين الفا من الناس قد ماتوا في أول أدوار الاصابة . وبذلك قضى الموت بهذا المرض الوبيل على عدد يسير من البيوتات والأسر . وارتبكت أحوال البلاد بتأثيره فانعدم الأمن وتوقفت التجارة وقلت الحركة . ومع هذا فقد سرت عدواه بعد ذلك الى البصرة وبوشهر أيضا ، والى القرى والبوادي .

وقد أمحلت الدنيا وانقطعت الامطار في شتاء سنة ١٧٨٥ فعم القحط بسرعة ، لان انقطاع الامطار في هذه السنة كان قد حصل في السنة التي تقدمتها أيضا . ولذلك ارتفعت الاسعار ارتفاعا فاحشا بلغ فيه سعر الوزنة من الحنطة ثمانية قروش ، ومن الشعير ستة قروش . فاضطر الوالي سليمان باشا الكبير الى توزيع المخزون من الاطعمة على الاهلين بأسعار واطئة ، ومع هذا كله لم يكن ينفع هذا التدبير . فهاج البغداديون ، وهاجموا سراي الحكومة فاضطرت الى ردهم بالسلاح وتأديب المحرضين منهم . وفي نهاية هذه السنة بالذات تفشى الطاعون فكان فتكه بالناس ضغثا على ابالة . وقد استقام عدة أشهر وقضى على ما لا يحصى من الارواح .

وفي السنة الاولى من سني القرن التاسع عشر ظهر الطاعون في بغداد أيضا فقضى على الكثير من معالم الحياة فيها . وقد صادف ظهوره هذا قبيل وفاة الوالي سليمان باشا الكبير ، فاضطر الى الفرار والتوجه الى بلدة الخالص حيث خيم مع حشمه وحاشيته في مكان يدعى « ميدان السلق » وكان يشكو من داء المفاصل الذي اشتد عليه في وقت ظهور الطاعون . ولم تمض سنتان على ظهوره هذا في بغداد حتى داهمها من جديد في سنة ١٨٠٣ ، واستقام فيها مدة تزيد على الثلاثة أشهر . وقد عاث فتكا وفسادا في بغداد وما جاورها ، فاضطر الوالي علي باشا ان يؤخر عودته الى عاصمته المنكوبة من حملته التي ذهب على رأسها لتأديب العصاة في سنجار .

وفي سنه ١٨٢٠ وصلت الهيضة (الكوليرا) ، او الهواء الاصفر ، من الهند الى البصرة ففتكت فتكا ذريعا فيها وقضت على ما يزيد على الخمسه عشر الف نسمة من اهاليها . ومن ثم اخذ هذا المرض يزحف الى الشمال بالتدريج فوصل سوق الشيوخ والعرجة والسماوة ، وانتشر بعد ذلك بين عشائر الشامية ، ومنها وصل الى الحله وكربلاء ، ثم الى بغداد نفسها . وبعد ان قضى على الكثير من الانفس فيها زحفت عدواه الى الشمال كذلك ، فتفشى في كركوك وقضى على نحو من الف نسمة فيها . وانتقل من هناك الى السليمانية وما جاورها ، ويروى في هذا الشأن ان الوالي داود باشا طلب من طبيب المقيمة الانكليزية في بغداد جلب الادوية اللازمة لمكافحة الهيضة هذه فجيء بها متأخرة من الهند .

ولو كان من الممكن اقناع الاهلين هنا باتخاذ تدابير واجراءات مماثلة لكان من الميسور لتأثيرات هذا المرض المميتة ، وربما لمدة بقائه أيضا ، ان تتناقص على وجه التأكيد •

وقد تكلمت باسهاب عن الطاعـــون في بغداد عـلى الاخص ، لان تأثيراته ازداد وقعها فيها أكثر من أي مكان آخر نظرا لما شاهدته بنفسي منها • غير انه من النادر ان تجد مدينة من المدن الايرانية لم يحصل فيهـا مثل ما حصل هنا ، باستثناء ما حصل من الغرق وفيضان المياه • فقد فقدت كرمنشاه وهمدان وكردستان كلها نسبة أكبر من سكانها ، وكذلك فعلت مازندران واستراباد • كما هبط عـدد النفوس في منطقة كيلان كلها الى خمس العدد الاصلي ــ ويدعي الاهلون ان هذا الهبوط في عـدد النفوس وصل الى حـد العشر فيها • وأقفرت رشت فخلت من سكانهـا بالكلية ، وكذلك فعلت لاهيجـان وفومن وتيريكوزام ومـا أشبه • تصوروا هـــذا الاكتساح الرهيب للحياة البشرية، وهذا المقدار الهائل من العذاب والمعاناة ، أنه يعزى في الدرجة الاولى الى الجهل وسوء الادارة ! وفكروا بنعم المدنية وبركاتها ــ فبجهـاز حـكومي منتظم ، واجـراءات مستمدة من الادراك والخبرة ، يمكن بعون الله وتقديره التخفيف من وطأة هذا الوباء المخيف وحدته ، اذا لم يمكن تحاشيه بالكلية •

اما بالنسبة لبغداد نفسها ، فقد فر الطاعون منها في الاخير أمام حرارة الصيف المتزايدة • فبحلول اليـوم السادس والعشـرين من الشهر انقطع ظهور الاصابات فيها • ففتح المستر غروفز بيته بعد ذلك في الحال، وخرج القلائل من السكان الباقين على قيد الحياة من البيوت ليتفرجوا عـلى حطام مدينتهم المهيضة الجنـاح • وقد كان المنظر يبعث على شيء غـير يسير من الكآبة وانقباض النفس • فلم يبق قائما من بنايات بغداد كلها سوى مجموعة صغيرة على ضفاف النهر حيث كان مستوى الارض مرتفعا ، وجامع واحد

أو جامعين كانت جـدرانهما وأسسهما قـد شيدت بمزيد من المتانة منذ البداية • وحتى البنايات التي بقيت قائمة بعـد كل ما حدث يندر ان توجد واحدة منها لم يحصل فيهـا شيء من التصدع أو التخريب • وقـد استمر سقوط الدور وتداعي الجدران حتى بعد هبوط منسوب المياه في النهر ، بالتأثير الذي أحدثه الماء في مواد البناء والانخساف الذي أخذ يحصل في الارض • وفيما وراء هذه المجموعة من الابنية كان يمتد الى جميع الجهات فضاء خـالٍ يصل الى الاسـوار نفسها ، ويتسم ببقايـا الجدران المهـدمة وخرائب الدور التي يتكون منها ما يزيد على ثلثي المدينـة • وكانت توجد هنا وهناك بحيرات كبيرة تخلفت في البقع المنخفضة من الارض بعد انحسار المياه الفائضة • ومن بين خطوط الاسواق الطويلة ، أصاب الخراب العام عددا غير يسير منها ، وقد مرت مـدة طويلة قبل عودة الاسواق التي بقيت غير مهدمة الى الامتلاء ، والدكاكين الى فتح أبوابها من جديد بمقدار يعتد به • فان معظم التجار ، وجميع الصناع وأرباب الحرف تقريبا ، قد أتى عليهم الموت فأزالهم من الوجود • وانك في هذا اليوم لو أردت ان تحصل على بعض الحاجيات المصنوعة ، التي كانت تشتهر بصناعتها هـذه البلاد ، يقال لك « آه ، ان ذلك لا يمكن الحصول عليه الآن لان جميع من كانوا مختصين بصنعه قد ماتوا » • ولذلك فقد انمحت من هنـا صنعات معروفة بأكملها ، ومر وقت غير يسير قبل أن يصبح من الميسور للسكان الباقين على قيد الحياة الحصول على ضرورياتهم الاعتيادية ، كالاغذية والملابس •

وبعد ذلك جاءت المجاعة الشريرة تكشر عن أنيابها فقضت على قسم من الاحياء الذين بقوا في المدينة بعـد الطاعون ، لـكنني سوف لا أتطرق اليها بشيء • على ان خراب القرى المحيطة بالمدينـة ، وتأثيرات الحرب وما سببه الجشع الانساني من حمل سـكان المناطق المجاورة على الالتجـاء الى البلدة ، كان من شأنه ان يكسو هيكل بغداد الخاوي بمقدار من السكان

الذين كانوا ، على قلة عددهم بالنسبة لما كانوا عليه من قبل ، كافين ليصبحوا أهدافا جديدة لهجمتين جديدتين من هجمات الطاعون ويقدموا لهما خمسة آلاف ضحية في الاولى وسبعة آلاف في الثانية[1] • وكان السبب في وافدة الطاعون الاخيرة التي انتهى أمرها في شهر أيار الاخير طمع حاكمها الحالي الذي ، بدلا من ان يمنع كل اتصال ممكن مع كرمنشاد لتفشي الطاعون فيها في مثل هذا الوقت ، عرّض المدينة لوافدة وبائية كان يمكن ان تضاهي وافدة ١٨٣١ بفظاعتها ، برغم تحذير المقيم البريطاني وتذكيره بالعواقب الوخيمة ، لانه كان يطمع بالاتاوى التي يقبضها من الزوار الايرانيين • وسواء أكانت طبيعة الوباء نفسها على جانب أقل من الضراوة في هذه المرة ، أم كان الغذاء المتوافر لها قد تناقص مقداره ، لان التربة التي ينهكها الحاصل الزراعي يندر ان تغل في أعقابه حاصلا وفيرا آخر ، فقد كانت الوفيات في هذه المرة أقل من وفيات الطاعون الاول بكثير • ومن أسباب هذا الفرق المقترن بالخفة تيسر الحرية للناس في الهرب الى الخارج هذه المرة عند اول ظهور المرض • لانهم لم يصادفوا أية معارضة لامن الانسان ولا من المياه الفائضة عند خروجهم ، فاستغلوا هذه الحرية الى أقصى حدودها • ولذلك هربت مناطق وجماعات بأسرها الى الخارج ، مع جميع متاعها ، عند أول ظهور المرض • فخرج اليهود كلهم على الاخص ، وكان من نصيب الخارجين جميعهم ان شملتهم العناية الالهية برعايتها فلم يمسسهم ضرر • اما في حادثة الطاعون الاولى فان الباشا نفسه كان قد تدخل في الامر ومنع الناس من الحركة بأمل الحيلولة دون ما حصل من انتشار الذعر والهلع بين جميع طبقات الناس عند أول ظهور الوباء في المدينة ، ثم جاء الفيضان بعد ذلك فحاصرهم حصارا تاما • وقد بذلت نفس المحاولة

---

(١) لابد أن تكون الطواعين الثلاثة هذه هي التي يتحدث عنها جمهور البغداديين اليوم فيضربون المثل بها في شتى المناسبات •

في البصـرة كذلك ، حيث أغلقت أبواب المدينـة فكانت عواقب ذلك شيئا على أشد ما يكون من الرزء والنكبة • لان الخوف والهلع قد أديا الى اشتداد أمر الوباء على السكان المحاصرين في الداخل ، فتجاوزت الوفيات ما حصل منها ببغداد نسبيا • وكان من بين الضحايا الحاكم[1] المخطىء نفسه الذي ذاق جزاء ما صنعت يداه •

---

(١) جاء في (مختصر تاريخ البصرة) لعلي ظريف الأعظمي أن والي بغداد عـين عبدالقادر باشا متسلما للبصرة في سنة ١٢٤٦ للهجرة ، وهي سنة الطاعون ، بعـد عـزل عزيز آغا عنها • وقد مات عبدالقادر باشا هذا بالطاعون بعد أن تولى الحكم فيها بضعة أشهر فقط •

٦

عواقب الطاعون السياسية ـ سخط الباب العالي على الباشا ـ القبوجيون والفرامين ـ قتل صادق أفندي بأمر من الباشا ـ تخوف الباشا ـ تعيين علي باشا لبغداد ـ محاصرة المدينة ـ الباشا يسلم نفسه ـ تسليم المدينة بطريقة الخيانة ـ ارسال داود الى استانبول ـ الاجراءات التي اتخذها علي باشا ـ قتل المماليك الكرج ـ طبيعة حكومة علي باشا •

لم تكن عواقب الوباء السياسية أقل أهمية من تأثيراته المهلكة على السكان ، ومن الممكن ان يقال انها كانت شيئا قاضيا على باشوية بغداد • فقد ذكرت قبل هذا ان داود باشا قد أصيب بكراهية الباب العالي له • لأن روحية الاستقلال المخطرة والتشامخ اللذين كان يبديهما قد أيقظا في السلطان الخشية والحسد منذ أمد طويل ، فحملاه على أن يعتزم القضاء على داود عند سنوح أول فرصة مناسبة لذلك • لكن الذنب المباشر الذي أثار السخط عليه في هذا الوقت بالذات لم يكن سوى قتل الموظف الملكي الذي كان قد أوفد من الباب العالي بمهمة رسمية الى الباشا • ولا ينكر ان الغرض من هذه المهمة كان تدميره هو ـ وربما موته ، لكن العمل الذي اقترفه كان شيئا لا يقل عن القتل والخيانة أزاء سيده السلطان • لأن الاصول الرسمية في تركية كانت تقضي ان يقابل الرسول ، الذي يبعث به جلالته لتقديم الخلعة او تدبير القتل ، بنفس الاحترام والتقدير وكان من واجبات الوظيفة كذلك ان يحني الموظف رأسه بنفس المقدار من التقبل في كلتا الحالتين •

على ان هذا الاتقان للخضوع لا يمكن ان يتم ما لم يكن للرئيس الأعلى القدح المعلى في السلطة ، ولا بد ان ينقطع حينما تكون سلطته قد تضاءلت وقل شأنها • وهذا ما حدث بالذات للسلاطين في هذه الايام التي اختلت فيها الامور ، فقد أصبح من اسلوب الباشوات ان تهمل حتى أبسط أوامر السلطان وأسهلها تقبلاً وان تعامل بمقت وازدراء على الرغم من مظاهر الاحترام التي تقابل بها • ومع هذا فقد كانت العادة ان يحافظ

الجميع على المظاهر ، لانه كان لا يزال هناك في انحاء الامبراطورية كلها شعور مستديم بتوقير اسم السلطان وسلطته ، حينما يذكر على الملأ ، بحيث يندر ان يجرأ أي رئيس أو باشا مهما كان قويا على انتهاك حرمته . وعلى هذا فحينما كان يعلم ان قبوچياً [1] او رسولا قد توجه لاداء احدى المهمات تتخذ الاجـراءات لاستقباله تبعا لطبيعة مهمته التي يخبر الباشـا بالغرض منها قبل ان يصل الوفد بمدة طويلة ، من قبل صديق أجير موجود في الباب العالي عادة . وحينما تكون المهمة في صالحه يكون استقبال الرسول وديا مفعما بالتكريم ، اما اذا كان الامر على العكس من ذلك فتتخذ التدابير عادة لتأخير وصوله حتى تسنح الفرصة المناسبة لتنحيته عن مهمته ـ فيدبر أمر وقوع حادث عرضي له في الغالب ، ولا يعد هذا شيئا صعبا في بلاد تكثر فيها العصابات والعشائر السلابة .

واذ يكون القبوچيون أنفسهم على علم تام بالخطر الذي يتعرضون له من جراء مهماتهم ، يعمدون الى اتخاذ الاستعدادات الخاصة بهم فينشأ عن ذلك كله عرض منتظم للمناورات التي تصدر من الطرفين . فيحاول الباشا تحاشي النزال والتصادم ، بينما يبذل القبوچي كل جهد للوصول الى مجلس الباشـا . لانه ما ان يكون هنـاك حتى يكون الاحتـــرام لفرمان السلطان ، الذي لا يزال التمسك به قويا كما ذكرت من قبل ، ويستطيع تقديم أوراق اعتماده الى الباشا حتى اذا كان محاطا بحرسه ، فان الحرس أنفسهم سيساعدونه على تنفيذ ما جاء من أجله . لكن هذه المحاولة تكون محفوفة بالخطر لان الفشل فيها يؤدي في الغالب الى هلاك القبوچي الذي يعد بناءً على هذا نوعين من الفرامين عادة . فاذا وجد الباشا قويا بحيث يصعب تحديه ، وخطره عظيمـا بمقتضى ذلك ، يصـــدر أمراً بالتنصيب

---

(١) القبوچي كلمة تركية تعني « البواب » بالعربية ، أما في العرف الاصطلاحي لذلك الزمان فقد كان يراد بها حاجب السلطان أو رسوله الذي يوفده في مهمات رسمية .

والخلعة على سبيل الحيلة حتى تسنح فرصة ملائمة لتنفيذ ارادة سيده الاصلية •

وكان داود باشا قد تمتع بالوزارة مدة سبع عشرة سنة[1] ، واستخدم وقته ذلك كله بكد واجتهاد في توطيد سطوته وترسيخ أقدامه • فكان عنده جيش كامل قوامه ثلاثون ألف خيال وراجل ، وكان خمسة أو ستة آلاف منهم على درجة غير يسيرة من الضبط والانتظام ومجهزين بمدفعية فعالة • كما كانت وارداته من الباشوية كثيرة جدا على ما يعرف ، ومع ذلك فانه خلال هذا الوقت كله لم يقدم الا القليل منها الى خزينة السلطان • ولذلك كانت حكومة استانبول بطبيعة الحال تعتبر ان داود كان يتبع خطوات محمد علي باشا في مصر ، ويستهدف جعل نفسه مستقلا عنها • فقررت خلعه ، وأوفدت رسولا يسمى دانش[2] افندى ليحاول تنفيذ هذا القرار ، بينما نجحت دسائس علي الذى كان يشغل باشوية حلب يومذاك في ان يحصل لنفسه على الترشيح للشاغر المؤمل حصوله ببغداد •

ومهما كانت الشكوك التى كانت تساور داود ، وضروب التحوط السرية التى اتخذها ، يبدو انه لم يكن مستعدا تمام الاستعداد للضربة المنتظرة حينما حان أوانها • فقد نجح دانش افندى فيالوصول الى بغداد ، وكانت الترتيبات التى أعدها للباشا ترتيبات استطاعت تضليله بالنسبة لطبيعة ما كان عنده من تعليمات وأوامر • غير ان القبوچى ، لما كان شاعرا بالخطر الذى كان يكتنف موقفه في بغداد ، ونظرا لانه كان عديم الثقة بأحد كما هو شأن الغدارين جميعهم ، رفض ان تكون اقامته في السراى لاعتقاده بانه سيصبح تحت رحمة الباشا فيه • ولذلك جعلت اقامته في دار

---

(١) لقد اشغل الوزارة ، أو باشوية بغداد الكبرى ، من عشرين شباط ١٨١٧ الى ١٨٣١ ، أي لمدة خمس عشرة سنة •

(٢) ان معظم المصادر التاريخية تورد اسم (صادق أفندي) وليس (دانش أفندي) •

موظف من الموظفين الذين كانوا يتمتعون بثقة الباشا التامة يسمى محمد أفندي ، ويعرف أو يشتهر بلقب « مصرف » .

ثم أخذ في الوقت نفسه يفتش من حوله عن آلات مسخرة يستعين بها على تنفيذ مهمته الخطرة ، فوقع اختياره على موظف آخر من الموظفين الذين يضع فيهم الباشا جل اعتماده وهو المير آخور[1] أو «رئيس الخلية» — فكان هذا رجلا يتحلى بمواهب غير قليلة . فأفضى اليه بأمر السلطان ، وعرض عليه في الوقت نفسه ان ينصبه هو في الباشوية بشرط ان يكون ملزما بمساعدته في قتل سيده الباشا ، لكن المير آخور ، على كونه من أصحاب المواهب والقابليات ، لم تتحمل أعصابه تلك المهمة الخطرة التي كلف بها بهذه الطريقة . على اننا دعنا نأمل كذلك ان تكون للتقدير الخالص لسيد لطيف متسامح حصة في تعيين الموقف الذي اتخذه . فأخبر السيد « المصرف » بالامر ، وذهبا معا الى الباشا فأخبراه بالطبيعة الاصلية للمهمة التي جاء بها القپوجي[2] .

اما الباشا الذي كانت شجاعته الادبية على ما يبدو لا تساوي قابلياته الاخرى ، فقد ارتبك للخبر وتبين انه غير قادر على اتخاذ قرار ما حول السبيل الذي كان يترتب عليه ان يسلكه . لكن الامر كان أخطر من أن

(١) المير آخور كلمة فارسية الاصل تعني رئيس الخيلية ، وكان اسم هذا الشخص سليمان أغا .

(٢) يقول لونكريك في كتابه (أربعة قرون ..) ان داود باشا هو الذي دعاهما للاجتماع والمذاكرة ودعى معهما اسحق الصراف اليهودي مشاوره الخاص ، بعد ان فاتحه صادق أفندي بعزله . أما علي ظريف الاعظمي في (مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث) فيروي الحادث كالآتي : « .. ثم دعى أعوانه ومعتمديه ، من جملتهم صالح أغا حاكم المحاويل ، ورستم أغا ضابط المكرية ، والحاج أحمد أغا متولي المسيب ، وسليمان أغا (أحد معتقيه) ، ومصرف محمد آغا ، والصراف ياشي اسحق اليهودي ، وشاورهم فيما جاء صادق أفندي من أجله فقر رأي الجميع على قتل صادق أفندي وأرسلوا من قتله غيلة ودفنوه سرا في رابية الصابونية في القلعة الخارجية . » وتقع رابية الصابونية تجاه الدار التي قتل فيها .

يقابل بالتلكؤ والتباطؤ • وما كان من مشاوريه المذكورين الا ان يقولا له « لا بد ان تقضي على القپوچى ، والا فسيقضي هو عليك وعلينا • واذا كنت تشك في مهمته فانك مقضيٌّ عليك لا محالة • ان هـذا هو وقتك فاغتنم الفرصة فيه » • • واذ كان الباشا مرتبكا ومتحيرا بالكلية ، وغير قادر على ايجاد طريق يسلكه ، فقد ُحمل على ان يصادق على الاجراء الذى اقترحه عليه محمد مصرف والمير آخور بدلاً من أن يأمر بـه من عنـده • فترك هذان الرجلان حضرته وتوجها لتوهما الى حيث كان يقيم القپوچى بعد ان اصطحبا معهما « چـاووشا » ضخم الجثة • اما الرجل ، الذى كان قـد آوى الى مضجعه لينام ،فقد تخوف بطبيعة الحال من الطريقة الخالية من المجاملة التى أوقفظ بهـا من نومـه ، وبصوت يعبر تعبيرا كافيا عمـا كان يساوره من خوف وفزع سألهما عما يريدانه • ثـم أضاف قائلا انه يرجو ان لا تكون زيارتهما له في مثل ذلك الوقت منطوية على شيء من الاذى • فرد عليه السيد المصرف بقوله « ان هذا ما ستعرفه في الحال ، وان اللهجة التى وجدت من المناسب ان تقابلنى بها يوم أمس[1] ، سوف ترد عليك هذه الليلة » • واذ كان البائس المسكين قد استولى عليه الخوف تمام الاستيلاء ، فقد التجأ عـلى ما يقال الى أخس أنواع التضرع والتوسل ، لـكن السيد المصرف دعى الى الدخول « الچاووش » الضخم[2] الذى كان يحل الشال من محزمه بهدوء فألقى بلفة من شاله هـــذا حول عنق القپوچى وقضـى بسرعة على حياته وتوسلاته معا[3] •

(١) انه يقصد الخشونة التي قابله بها صادق أفندي في طوزخرماتو حينما ارسل المصرف من قبل الباشا للترحيب به من هناك •

(٢) المعروف في كثير من المراجع ان هذا العريف كان يسمى خالد أغا ، وقد كان معه عند ارتكاب الجريمة رمضان اغا حاجب داود باشا أيضا •

(٣) ان رواية لونكريك للحادث فيها اختلاف غير يسير عن هذه الرواية • فهـو يشير الى أن صادق أفندى لم يقابل الباشا وانما قابل الوفد الذي أرسل مـع الهدايا للترحيب به من طوزخرماتو ، بخشونة صريحة • وكذلك قابل المستقبلين على أبواب بغداد

ومما يدل على ان الذين اقترفوا جريمة القتل النكراء هذه كانوا أبعد ما يكون عن الارتياح من النتائج التى ستترتب عليها أنهم ، لأجل ان يزيلوا الشك ويسكنوا ضجة الناس التى أثيرت بهذه المناسبة ، أطافوا بشخص أُريد به ان يمثل القبوجي مرة أو مرتين في الشوارع بعد أن أُلبس ملابسه الخاصة . لكن اشاعات اغتياله تمادى الناس فى تصديقها حتى وصلت الى مسامع المقيم ، الكولونيل تايلور ، الذى ألقى تبعة الجريمة على عاتق الباشا نفسه وصور له عواقبها المحتملة بألوان بارزة . على ان الباشا حاول ان يورّي ويورّب بادىء ذى بدء ، لكن زمجرة العاصفة من بعيد التى كانت تتجمع غيومها فى استانبول سرعان ما أدت ليس الى اعتراف سموه فقط بل الى طلب المشورة والمساعدة بصورة جدية أيضا . ولاعتبارات سياسية، وقناعة بان الباشا كان مجبرا على اقتراف جريمة يشيع اقترافها فى البلاطات الشرقية او فوجىء باقترافها من قبل فاعليها الاصليين ، اقتنع المقيم[1] بان يعرض الامر على المسؤولين فى استانبول بصورة يدافع فيها عنه . وهناك قليل من الشك بأن القضية كانت ، مع شيء من التنازل من جانب الباشا ، ستنتهى فى صالحه هو — وعند ذاك كان المقيم سيحصل على نفوذ ممتاز لدى الباشا ومفيد جدا للباشوية نفسها — لو لا ان تحل بالبلاد النكبة التى أتيت على وصفها من قبل فتؤدي الى حصول تبدل سياسى وطبيعى فى شكل الاشياء العامة كلها ، وحدوث ثورة كلية فى مصائر الباشوية وتبديل حكامها .

= بنفس الطريقة . وهو لم يقابل الباشا الذي كان ينتظره في السراي ، وانما أجل ذلك الى اليوم الثاني . وتذكر هذه الرواية كذلك ان صادق أفندي هو الذي فاتح داود بعزله وطلب منه تسليم الحكومة اليه .

(١) يلاحظ القارىء من هذا ان الانكليز منذ ذلك الحين كان يعرف تدخلهم في شؤون العراق الداخلية وتوجيهها بالشكل الذي يضمن مصالحهم . فقد كتب أحد الرحالة الفرنسيين (أوشيه أيلوي ١٨٣٥) يقول ان المقيم كان مجبرا على التسامح في أمر الجريمة لرغبته في ابقاء نظام الحكم الذي كان موجودا يومذاك .

فقد أفنى الطاعون قوة داود باشا العسكرية بالكلية • ولاجل ان يكون بوسعنا تكوين فكرة عن التدمير التام الذى أصاب جيشه العتيد يجدر بنا ان نذكر ان قطعة عسكرية عدتها ألف رجل ومدربة تدريبا عسكريا على النسق البريطاني ، لان الكولونيل تايلور نفسه كان يقودها في يوم من الايام ، لم يبق منها على قيد الحياة سوى رجل واحد • وقد ترك الباشا بالفعل لوحده في دار كان قد اضطر للالتجاء اليها حينما تهدم قصره ، ومن هناك ، كما سيتبين فيما بعد ، تسلمه رجل يدعى صالح بك كان يمت بصلة الدم الى بعض الباشوات السابقين ، وتخامره فكرة الحصول على الباشوية لنفسه يومذاك •

وما ان خفت وطأة الطاعون وأدبر شره حتى تقدم أنصار علي[1] باشا نحو بغداد لانتزاع باشويتها له • وكان علي باشا حلب ، قد نصبه الباب العالي لها وأمّن على مساعدة باشا الموصل قاسم أغا له كما يعتقد • وكان الانصار يتألفون من صفوك شيخ شمر جربا ، وسليمان غنام[2] الرجل المغامر المتصف ببعض القابليات ، الذى استطاع أن يجمع لفيفا من الغوغاء ويجعلهم من أتباعه • غير ان سكان المدينة ، على ما يظهر ، لم يكونوا ميالين للترحيب به فرابط الحلفاء حول المدينة التى حاولوا كسبها بالقتال من جهة والمفاوضة من جهة أخرى ، وبالخيانة كما تبين فيما بعد من جهة ثالثة • وقد تبين كذلك ان البعض من هؤلاء المتحالفين على الاقل كان يلعب أدوارا مزدوجة ، يدس فيها مع داود وربما مع صالح بك أيضا بينما يتظاهر بكونه يتفانى من أجل علي • وبهذه الاتجاهات المتضاربة دخل

(١) هو الحاج محمد علي رضا باشا الذي كانت بعهدته باشوية حلب ، وهو من اللاظ الذين يمتون للشراكة بصلة ويقطنون في الساحل الجنوبى الشرقي من البحر الاسود • وقد صدر الفرمان بتعيينه لباشويات بغداد وحلب وديار بكر والموصل في وقت واحد •

(٢) سيأتى تعريفه فيما بعد •

الاشخاص الثلاثة ، الذين ذكرت اسماؤهم ، الى المدينة التى ادعى قاسم باشا فيها انه كهية علي باشا • غير ان السكان وقفوا فى وجههم وأجبر صفوك وسليمان غنام على ان يلوذا بالفرار ، وكان فرار صفوك من دار تقع على النهر الذى عبره سباحة الى الجانب الآخر • ثم قبض على الآخرين، وحينما تخلى عن قاسم باشا حرسه الخاص اقتاده أحمد أغا التفنگجي باشي العائد لداود الى بئر قريبة وألقاه فيها [1] •

على ان هـذه الاجراءات المتصفة بالعنف كان من شأنهـا ان تعزز صداقة صفوك وسليمان غنام لعلي • فحاصروا المدينة لمدة ثلاثة أشهر ، وصار مدفع الپاشا الجديد الذى وصل الى معسكره فى هذه الأثناء يقصف المدينة من جميع الجهات • وفى الاخير ، نفذ صبر الاهلين وبادر شخص من التجار كان يدعى الحاج خليل الى الاتصال بعلي الذى سُمح لقواتـه فى احدى الليالي بالدخول الى المدينة عن طريق الباب الجنوبية •

وفى أثناء هذه الاجراءات كلها كان داود المنكود الحظ ، وهو يعاني ما يعاني من تأثيرات الطاعون الذى أصيب به فنجا منه باعجوبة ، بعد أن

(١) يقول لونكريك بهذه المناسبة « •• غير أن العنف الخالي من الحكمة الذي أبداه قاسم (المقبل على السكر كما قيل) وسوء سلوك أحلافه الشمريين والعقيـل سـرعـان ما استفز همم البغداديين ، ولم يكن فيهم شيء ثابت سوى ترددهم • فقاموا بوجه الجائرين• وقد أشيع يومئذ ان قاسم باشا كان ينوي الاحتيال على رئيسه ليحكم بغداد بنفسه ••• وعندما قرىء فرمان عزل داود باشا على الجميع طلب قاسم تنفيذ ذلك في الحال • غير ان مجلسه الشوري ـ المؤلف من الضباط وأشراف البلد ـ أصروا على تأجيل التنفيـذ ••• فخفوا الى الاجتماع في دار صالح بك ، وجرى نقاش بينهم •• وتقرر وجوب تنحية قاسم •

وفي صباح اليوم الثالث عشر من حزيران ذهب قاسم الى ديوانه وطلب احضار داود ، فعاد من بعثوا لاحضاره خائبين • ثم سمعت جلبة وضوضاء في الخارج ، فكان ذلك ان قوة من المماليك والاهالي والعقيل قد أحاطت بالبناية وأصبح الحاكم الجديد أسيرا في حوزتها • وعندما حاول أتباعه في الداخل ومريدوه في الخارج الدفاع والهجوم على المتجمهرين توسعت أعمال الفوضوية وكثر اطلاق النار فسحبت المدافع من القلعة وسطا المتجمهرون على القنابل والذخيرة •• وبعد ظهر اليوم استسلم قاسم •• أما سليمان غنام الذي بقي مسيطرا على جناح من السراي حتى مغيب الشمس فقد سرق عند حلول الظلام جميع ما تمكن من حمله ، ثم أضرم النار في القاعة الكبرى وفر هاربا والسيف بيده مارا بالازقة والشوارع الخالية • »

تخلى عنه جميع من بقي من أهله ورجاله وحتى نسائه عدا اثنين منهن تمسكتا به الى النهاية — يقبع مختفيا في دار رجل بغدادي يعرف بلقب قرهبيبر[1] وكان قد فر ملتجئا اليها بعد أن تهدم قصره كما تمت الاشارة اليه من قبل. وقد كان قبل ذلك الوقت يعيش في الدرجة الاولى على خدمات رجل يدعى سيد هندي ، كان في يوم من الايام من أصحاب الزوارق (بلام) لكنه أصبح في الايام الاخيرة من اللائذين المفيدين بالمقيمية البريطانية. اذ كان هذا الرجل يجلب يوميا الى سمو الباشا وجبة واحدة من الرز ويأخذ لقاءها قطعة من النقود عادة. وهكذا كان سيد الثلاثين ألف جندي السابق يعتاش في أيام محنته واهماله على يد رجل فقير من اصحاب الزوارق ، وأصبح الآن مدينا بحياته والقيام بأوده خلال العذاب والمرض لشخص متواضع من أصحاب الدكاكين.

على ان مكان اختفاء داود قد أصبح معروفا لدى صالح[2] بك ، الذي شاع في بغداد أنه كان يطمح بكرسي الوزارة نفسه ، فبعث أناسا يأتون بالباشا المعزول الى حضرته ، غير ان صاحب البيت والنساء اقترحوا على الباشا ، وهم يتخوفون من عواقب تسليمه ، ان يفر هاربا من باب في الدار تطل على شارع آخر وعرضوا عليه مساعدتهم في هذا الشأن كذلك. لكن الحياة وقد طالت مرارتها عليه بتأثير المعاناة الشخصية والشعور بالخسرانات الجسيمة وضرورة التخفي المستمر ، قد أصبحت في نظر

(١) أي النيص الاسود بالتركية ، وهو محمد أغا من ملتزمي الاحتساب ، وزوج حبيبة خانم.

(٢) ان الحاج صالح بك هو الابن الثالث لسليمان باشا الكبير ، أشهر ولاة المماليك في العراق. أما أخواه الآخران فهما صادق بك وهو الاكبر ، وسعيد باشا. وقد ثار صادق بك في أواخر ١٨١٨ على داود باشا بعد أن التجأ الى عشيرة زبيد بقصد مناصرته ، لكن داود باشا صالحه وعفى عنه. بينما كان سعيد باشا واليا في بغداد قبل داود فأساء التصرف في الحكم ، وثار عليه داود نفسه فاستولى على بغداد بمساعدة محمود باشا بابان في السليمانية وقتل سعيدا فتسنم الباشوية في مكانه. والمعروف ان داود كان قد تزوج بنتا من بنات سليمان باشا الكبير أخت الاخوة الثلاثة هؤلاء.

داود المنحوس الطالع عديمة القيمة بحيث لا تستحق أي مقدار آخر من النضال والمقاومة • فرد المقترح بقوله « كلا ، ان المقاومة او الهرب قد فات أوانهما ، وسأذهب الى أي مكان أدعى اليه والى أي مصير يكون » • فأركب على حصان لانه لم يكن يقوى على السير ، وأخذ الى دار[1] صالح بك التي يشغلها الآن المقيم البريطاني وأقيم فيها أنا ضيفا عليه في الوقت الحاضر • وهناك استقبل باحترام وتقدير لكن مضيفه، او بالاحرى آسره ، سرعان ما أطلعه على محاولته التي يقصد بها أخذ الباشوية اليه هو نفسه وطلب منه ان يساعده في ذلك • وبهذا يستطيع القارىء ان يحصل على فكرة حسنة عن عقلية داود وملكته في الاقناع ، حيث ان المؤتمر الذي بدأ بشكل يهدد مصلحة الباشا السابق ويعمل ضدها قد انتهى بترتيب يوافق فيه صالح بك على اعادة داود الى الوزارة وقيامه هو باشغال منصب الكهية في معيته •

لكن هذه الترتيبات كلها قضت عليها خيانة الحاج خليل • فقد أصبح علي الآن سيد المدينة ، اذ احتلها جنده لكنه لم يجد من يعتمد عليه فيها • ولذلك بعث باحضار داود باشا الى عنده في الحال ، واستقبله بكل ما يمكن من المجاملة قائلا له بان يأمن على حياته ، لكنه طلب اليه ان يشد الرحال الى استانبول التي ستكون حياته مضمونة فيها كذلك • ثم أخبر الباشا الهابط من عليائه بأنه حر في أن يأخذ ما يريد من ثروته وممتلكاته ، ويقابل من يشاء ممن بقي على قيد الحياة من أسرته • ومما لا شك فيه

---

(١) كانت هذه الدار في مكان مديرية كمرك بغداد الحالية • وقد جاء في (عنوان المجد) للحيدري بشأن هذه الدار : « •• ومنها بيت السيد رحمة الله أغا الجيبه‌جي ، وهو من البيوت القديمة الرفيعة •• لم يبق منهم أحد ، ودارهم صارت لصالح بك نجل المرحوم سليمان باشا والي بغداد ثم صارت للقنصل الانكليزى • » وفي رواية أخرى ان قاسم باشا العمري حين دخل بغداد قبل علي رضا باشا وذهب الى السراي طلب احضار داود باشا من عند صالح بك فلم يلب طلبه ، فركب زورقا في مساء اليوم الثالث من دخوله وذهب الى دار صالح بك الكائنة على الشط (وهي الدار التي صارت الى بيت دلة بعد ذلك والى يومنا هذا) وطالب بتسليمه اليه • ولعل الدارين معا كانتا لصالح بك •

ان هذا الرفق تجاه خصمه الاخير كان متفقا مع الاوامر التى تلقاها علي باشا في استانبول ، لكننا علينا أن لا ننكر ما له من الفضل في هذا الشأن . فقد كان بوسعه ان ينفذ هذه الاوامر بشيء أقل من المجاملة — وكان بوسعه كذلك ، حتى من دون ان يورط نفسه بشيء ، ان يجعل تلك الاوامر غير نافذة المفعول ، الا فيما يختص بحياة داود نفسها . لكنه أبدى كل ما كان عنده من رفق فحمل داود معه بلا شك مقدارا غير يسير من ثروته التى كان من الممكن لعلي ان يستولى عليها لنفسه باتباع طريقة أخرى . على أنها كانت شيئا قليلا من الناحية النسبية ، وربما كانت تضحية سياسية منه . فان اللعبة التى كان عليه ان يلعبها يومذاك كانت تنطوى بالتأكيد على المصالحة والتساهل — لان المصادرات التى أجراها من بعد ذلك كانت تكفي لتعويضه عما فاته في هذا الشأن .

ولما تربع على دست الحكم بهذه الطريقة اتخذ علي لنفسه اسلوب المصالحة والتوفيق كما قلت ، لكن غرضه الاول كان ينطوى على تنحية جميع المعروفين من أنصار الباشا الاخير عن الميدان . فالتجأ في تنفيذ ذلك من دون تورع الى الطريقة الشرقية الاعتيادية ، وهى طريقة الغدر[1] والاغتيال الناجحة باستمرار على ما فيها من اختلاف وتفاوت في الشكل والتطبيق ، وبرغم جميع الخبرة التى تنطوى عليها والحسد الذى تثيره الاستعانة بها . وكان عدد من الكرج ، الذين ظلوا على قيد الحياة وعملوا في قوة الحرس ، أو كانوا ضباطا وموظفين في معية داود باشا ، قد توقعوا هبوب العاصفة التى استهدفت رفاقهم بعد ذلك ففروا هاربين من

(١) لم تكن خطة القضاء على المماليك في بغداد من بنات أفكار علي رضا ، وانما كانت خطة رسمية أمرته بتنفيذها المراجع المختصة في الباب العالي لان الدولة العثمانية كانت قد ضاقت ذرعا بهم وأرادت أن تضع حدا لاستقلالهم عنها . ويقول لونكريك في هذا الشأن « .. ومن بعد ذلك قرئت الاوامر الرسمية الصادرة من استانبول التى تسوغ هذه الاعمال الوحشية مع ما كان فيها من حكمة ، وطُلب كل مملوك داخل المدينة وخارجها .. »

المدينة • لكن عددا يناهز الثمانية عشر أو العشرين منهم ظل مقيما فى مكانه ، ومن جملتهم صالح بك الطامع الاخير بالپاشوية • فدُعي هؤلاء فى يوم من الايام معاً بحجة الاستماع لقراءة الفرمان الصادر باعفائهم الذى وصل مؤخرا من استانبول على ما قيل • وقد حضر كلهم تقريبا الى ديوان الپاشا ، ما عدا صالح بك نفسه الذى كان اما مريضا أو مرتابا من الدعوة فابتعد عن الحضور • فقوبلوا بأقصى ما يمكن من المجاملة ، وتناولوا القهوة والچبوق ، وبينما كان الفرمان على وشك ان يقرأ دُعي الپاشا لتناول الفطور فى الخارج ، فكان ذلك بمثابة اشارة للبدء بالمجزرة • اذ قام رجل يدعى علي أغا ودعى لفيفا من الأرناؤوط الذين كانوا قد أُعدوا لهذا العمل • على ان هؤلاء ظلوا ساكنين مترددين ، لانهم كانوا حسب ما يظهر غير راغبين فى هذا العمل أو ان طبيعة هذه الخدمة قد أفزعتهم • فصرخ بهم علي أغا يقول « ما بالكم ؟ » ، « لماذا تترددون ؟ اضربوا ــ فأما أن تقتلوهم أو تقتلون أنتم » ، ثم انتضى سيفه هو نفسه فضرب الگرجي الذى كان يجلس بجانبه • وحينما كان المساكين يهمون بالوقوف ويسلون سيوفهم ، بعد أن أدركوا فى وقت متأخر طبيعة الدعوة والامر ، ألقى علي أغا بنفسه على الرجل الذى كان قد جرحه قبل ان يتمكن من سل سلاحه ، وبادر الأرناؤوط فيالحظة نفسها الى اطلاق النار من مسدساتهم وانقضوا على الذين لم تصبهم الطلقات • وقد كان النزال قصير الامد ، فقتل الگرج كلهم ، ومنهم من قتل فى مكانه ومنهم من قتل فى أثناء هروبه بعد ان أبدوا مقاومة عنيفة • وهكذا تخلص علي پاشا من آخر غلمان داود •

ويكاد يبدو من الغريب الذى لا يصدق تقريبا ان رجالا فى مثل منزلتهم لا يستطيعون ان يتكهنوا بوقوع محاولة مثل هذه ، فيبادروا الى الفرار والنجاة بأنفسهم كلهم • لكننا يجب ان نتذكر أولاً ان الهرب من

بلاد بعيدة معادية له أخطاره ومحاذيره ، ويبدو من الوجهة الثانية ان تدابير غير اعتيادية كثيرة قد اتخذت لتضليل الضحايا في هذا الشأن • ومن الممكن ان يذكر هنا ، على سبيل الحكم على مقدار الغدر والخيانة المنطويين في هذا العمل ، ان أول شخص ضرب في مشهد الدم هذا هو رجل[1] كان قد هرب من خدمة داود والتحق بعلي باشا في حلب ثم رافقه من هناك بصفة كونه كهية للباشا الجديد ، وقد حضر الى ديوان الباشا بهذه الصفة — هذه هي أمانة العثمانيين ، وجزاء الخدمة في تركية !

ولم يستقم هرب صالح بك مدة طويلة من الزمن • فانه بطريقة مماثلة قد جرى تضليله بسيل من الالطاف والانعامات ، فكان يمشي في حلم من الامانة الوهمية الخداعة حتى حدث ذات يوم ، بينما كان يمر في طريقه من مكتب الكهية الى غرفة الباشا الذى دعي للمثول بين يديه ، ان قبض عليه فجأة في الممر الضيق وسحب جانبا فازهقت روحه خنقا[2] •

ومن الغضاضة أن أعمد هنا الى أن آتي بالتفصيل على وصف السلسلة

---

(١) يقول صاحب « مرآة الزوراء » ان المماليك المرتدين الذين كانوا بصحبة علي رضا باشا هم رستم وسعدون وأبوبكر ، وقد حثوه على قتل داود •

(٢) ان رواية لونكريك تختلف عن هذه ، فهو يقول ان صالح بك وقع من ظهر حصانه فقتل أمام الدار التي حكم فيها بغداد عدة أسابيع مضطربة • أما سليمان فائق بك فيورد في (تاريخ بغداد) رواية قتله بشكل آخر • فهو يقول : « لقد كان الحاج أبو بكر الكتخدا السابق قد أرسل قبل الحادثة من يستدعي الحاج صالح بك للحضور الى دار الحكومة من الدار التي كان قد اتخذها مسكنا له أيام العصيان ، فلما حضر أخذه الى مكان آخر ، ولما أطلقت المدافع أيذانا بتنفيذ الخطة المرسومة تقدم نحوه وقطع حبل حياته •

ويقول أحد الذين حضروا هذا المشهد المرعب انه كان مارا باتجاه الميدان فشاهد جمعا من الجنود المدججين بالسلاح يدخلون دار الحاج أبو بكر اغا ، فلما اقترب من الباب أبصر الحاج صالح بك يخرج راكبا وبحالة اضطراب ظاهر ، ولما وصل الى خارج الباب احتشد حوله قسم من اولئك الجنود وأنزلوه قسرا ووقعوا به ضربا وطعنا • وقد سمعه يتلفظ بكلمة آمنت بالله وملائكته الى آخرها ويرددها باضطراب ثم أعقبها بالشهادتين وخر صريعا ، فتقدموا منه وحزوا رأسه وأخذوه وتركوا جثته في أحد الازقة مكشوفة ومطروحة على الارض ولا شيء يستر عورته • » ومما يجدر ذكره ان سليمان فائق بك صاحب هذه الرواية عاصر هذا الحادث وكان فتى يافعا حينما وقع ، وكان ينتمي لاوساط الطبقة الحاكمة يومذاك •

المتلاحقة من أعمال الغدر والجريمة والجشع التى أعقبت هذه الحوادث ، ولا أريد أن أطالب بشرف تدوين تاريخ على باشا . لكنني أود أن أقول انه ما كادت تنقضى الفترة التى كانت تسمح بسرورها الفطنة ويحتمها الحذر حتى صودرت [1] جميع ممتلكات الذين كان لهم أدنى اتصال بالباشا السابق ، واستمر وضع اليد عليها حتى يومنا هذا . وليست هذه سوى حوادث اعتيادية لابد أن تحدث عند تبدل الحكام ، ولا تلفت كثيرا من النظر اليها الا من جانب الفرقاء الذين يهمهم الامر . كما لم يكن هذا أسوأ ما حدث . فقد فرضت رسوم باهضة على التجارة ، وترك الفلاحون ليكونوا تحت رحمة التعسف الذى كان يمارسه خدام [2] الباشا ، ووصلت التأثيرات السيئة لسوء ادارته العامة الى درجة أصبحت فيها البلاد يبابا قفراً، تغشاه القبائل العربية فى كل مكان ، وتعبث فيه الى حد أبواب المدينة نفسها . أما ماليته وارداته فقد هبطت الى حد العدم نسبيا من حيث اعتمادها على الزراعة ، بينما كان الرعب والمقت لشخصه وحكومته يتخللان طبقات الناس كلها باستثناء المخلوقات التى كانت تحيط به .

---

(١) كانت حوادث التعذيب وانتهاك الحرمات التى استعملت في مصادرة الممتلكات سببا فيثورة عبدالغني جميل مفتي بغداد يومذاك على الباشا (علي رضا) ،وقد أيدته في ذلك معظم محلات بغداد وخاصة محلة قنبر علي . وكان السبب المباشر للثورة ما شمل اسرة رضوان أغا ، أحد المماليك المقتولين ، من تعذيب وأهانة . فقد استجارت زوجة هذا القتيل بالمفتي عبدالغني جميل زادة ، فأجارها واصطدم بالباشا نفسه .

(٢) تذكر بعض المراجع من هؤلاء حمدي بك المهردار صهر الوالي نفسه ، وملا علي الخصي كاتب مقاطعة الخالص ، ومحمد الميلاني ، وعلى أغا اليسرجي ، وعبدالقادر بن زيادة الموصلي ، وعثمان سيفي بك ، وحاج افندي أي أسعد بن النائب كهية علي رضا باشا.

باب المعنلم من الداخل فى بداية هذا القرن



٧

منظر المدينة من داخل الأسوار وخارجها ـ سياسة علي باشا ـ شمر جربا ـ محاصرتهم بغداد ـ دعوة قبائل عنزة ـ صرفهم دون أصول ـ رفضهم الانصراف ـ محاصرتهم للمدينة ـ اشتباك جند الباشا وحلفائه من العرب مع عنزة ـ اندحار جند الباشا وذبح شيخ جربا ـ التجاء سكان المناطق المجاورة الى بغداد ـ الحمير البيض (المطايا) والعبيد السود ـ مخادع النساء وعاداتهن ـ المجوهرات ـ اشغالهن ـ زياراتهن ـ أصواتهن ـ سلوكهن العام .

ليس بوسعك أن تحسبي ، بالنسبة للظروف التي أتيت على وصفها في رسالتي السابقة ، أن تكون بغداد متشحة بحلل الازدهار القشيبة حينما دخلت اليها . فقد فضحت أول ركبة ركبتها للتجوال فيها الحالة التعسة التي كانت عليها ، وكشفت للانظار الآثار العميقة التي خلفها ذلك الفيض من الكوارث الذي غمرها في السنين الاخيرة . ففي ماوراء المجموعة الصغيرة من الابنية ، التي بقيت قائمة بعد الفيضان والطاعون مباشرة ، تمتد بقايا الخراب المتسع ، وتقوم فجأة من وسط الانقاض هنا وهناك بعض الدور الجديد كما تقوم الاشباح من بين السكان المقبورين . ومن الغريب أن فسحا كبيرة من الارض قد انخسفت بتأثير الماء المتراكم وضغطه فكونت تجاويف وأوجار عميقة ما بين البساتين التي تملأ مساحة غير يسيرة من القسم الجنوبي من المدينة . ولذلك فاني اقدر أن ما يقرب من ثلثي المساحة التي يتكون منها الجانب الشرقي من النهر قد جرد هذا التجريد من الابنية القابلة للسكن . وقد أخذت حتى الابنية التي ظلت قائمة تظهر عليها الآن التأثيرات التي أثر فيها الماء على أساساتها بوجود الكثير من الشقوق المخطرة . بينما تكون الجبهة المواجهة للنهر ، على منظرها الحسن المؤثر في النفوس الذي تبدو فيه من بعيد ، في حالة شديدة من التضعضع والتصدع في الحقيقة . فقد استولى الخراب بالكلية على قصر داود باشا الذي كان يشغل موقعا فسيحا يمتد الى ضفة النهر . وقد بدأ الباشا الذي يسكن الآن

في دار كان يشغلها أبن من أبناء الباشوات المتأخرين ، في الايام الاخيرة ، باعادة تشييد السور العائد لقصر داود ليجعل منه على ما علمت ثكنة [1] لجنوده .

وليس المنظر في الجانب الآخر من النهر مما يبعث على شيء أكثر من هذا بهجة وانتعاشا . فان الجزء الذي يشغله الآن الاعراب في الدرجة الاولى ، بعد أن كان يحتوى في السابق على دور الكثيرين من الاتراك الموسرين ، لا يزال أكثر تهدما وخرابا من الجانب الشرقي . اذ لا يمر الراكب هناك الا من بين جدران متهدمة أو مائلة للانهدام ، وانقاض ما كان في يوم من الايام كتلة كثيفة من المساكن . أما سور المدينة في كلا الجانبين فهو متهدم كذلك ومتداع ، ولا تزال تظهر فيه الثغرات الكبيرة التي دخل منها ماء الفيضان الى البلدة على نفس الحالة التي تركها فيها الماء المتدفق يومذاك .

ويعد المنظر خارج الأسوار في حالة فريدة من الوحشة والاكتئاب ــ فهو يعد في الحقيقة نموذجا لما تكون عليه الحالة الحاضرة في أنحاء الباشوية كلها . ففيما عدا ضفاف النهر التي تنتشر فيها بساتين النخيل [2] الى امتداد أميال ثلاثة من كل جهة ، يمتد سهل أجرد من جميع الجهات حتى يصل الى أبواب السور نفسها من دون أن يحده شيء سوى الافق البعيد . ولا ينكر أن هذه البادية تنبعث فيها الحياة في الوقت الحاضر بوجود خيام الاعراب ومنازلهم ، وقطعان الاغنام والماشية ، وجماعات الابل ، وحركة الذهاب والاياب لكثير من الخيالة والراجلين. ولكن حتى مظهر الحياة الوقتي هذا والضجيج الحاصل بنتيجة ذلك يعزى الى الضغط

---

(١) قد يفهم من هذا ان قصر داود ربما كان في موقع القشلة التي تضم وزارتي المالية والعدلية في الوقت الحاضر .

(٢) جاء في الص ٤٣٢ من الجزء الرابع من رحلة أوليا جلبي الذي زار بغداد في ١٦٥٦ ان جانب الكرخ كان فيه في تلك السنة حوالي الفي بستان وحديقة نخيل معمورة ــ نقلا عن كتاب النخل للعزاوي .

الخاص الذى تفرضه الظروف الخارجية على المدينة •

فقد كنت ذكرت عند وصولى الى المدينة لاول مرة أنى علمت بأن قبيلة من القبائل العربية المعادية كانت تخيم بالقرب منها • على أننى لم أكن أعرف يومذاك كم كنا قريبين من مشاهدة موقعة تحتدم بين الاعراب أنفسهم • فان سياسة علي باشا ، المبنية مثل سياسة أسلافه والكثيرين من الحكام في الشرق والغرب على قاعدة « فرق تسد » المخطرة على الدوام ، قد انهارت في هذه الحالة وتركته في وضع حرج جدا • فقد كان مما يفعله أسلافه ، الذين كان البعض منهم على جانب من القوة بحيث يستطيع أن يسيطر جماعيا على القبائل العربية العديدة المحيطة به ، ان يزرعوا بذور الشقاق بينها ، ويحركوا قبيلة على اخرى حينما كانت تهددهم احداها أو تضغط بشدة عليهم • وهذه في رأيي سياسة مخطرة ما لم تساندها قوة تكفي في الوقت الحرج لجعل السياسى المهيمن في معزل عن الحوادث الفجائية المؤسفة ومسيطرا عليها • واذا لم تكن في يده قوة فانه من المحتمل جدا أن يأخذ كل فريق بالاعتداء والتجاوز على غيره ، كما هى الحالة في وضع علي باشا اليوم ، ويلعب دور الصديق والعدو بصورة دورية حتى ينقلب من كونه خادما وحليفا الى سيد مسيطر •

اذ كانت قبيلة جربا [1] قد جيء بها الى القسم الشمالى من الباشوية

---

(١) يلاحظ في هذه الرحلة ان صاحبها يكرر كلمة جربا ليعني بها عشيرة شمر بصورة عامة • وتعد شمر من أكبر عشائر العرب على الاطلاق ، وكان موطنها الاصلي في نجد بين جبلى أجأ وسلمى ثم هاجر قسم منها الى العراق • وهنا سكن بعضهم في الجنوب (في لوائي الكوت وديالى غالباً) وهم شمر طوقة ، وسكن القسم الآخر وهو الاكبر في ديرة واسعة تمتد من شمالي بغداد الى منطقة جبل سنجار حيث يوجد القسم الاعظم منهم في الوقت الحاضر ، وقد كانت ولا تزال الرآسة في هذه القبائل الى آل محمد ، أو الجربا ، ولذلك غلب هذا الاسم عليهم في بعض الادوار ومنها الدور الذي وصل به صاحب هذه الرحلة الى بغداد على ما يبدو من تسميته • وقد جاء في الجزء الاول من (عشائر العراق) « ان هذه التسمية قديمة ترجع الى أميرهم الاول الذي يدعون به فيقال (آل محمد) ، والجرباء هذه ام سالم بنت محمد المذكور •• » ثم ورد فيه قول المؤلف « والجرباء نبز وصل اليهم من قدم والعرب لا يزالون يتنابزون بأمثال هذه ، يقال انها أصابها مرض جلدي فتركها أهلها

لتساعد الباشا الاخير على طرد عشيرة اخرى من عشائر اللصوص وقطاع الطرق • وكانت الخدمات التي قدمها صفوگ لعلي باشا قد أهلته ، على ما يرى هو ، لان يحظى بالمزيد من التسامح والامتيازات • لكن علياً كان يفكر تفكيراً يختلف عما كان يفكر به رفيقه السابق في هذا الشأن ، فرفض مطاليب صفوگ وهدده بالسخط عليه • وعلى أثر ذلك تراجع أولا الى القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين ، وأخذ يقطع الطرق وينهب القوافل ويسلب السياح والمسافرين • ولاجل أن يعرض على سيده السابق نموذجا من قوته وسطوته ، جاء بعد ذلك بقبيلته كلها وأحدق ببغداد نفسها [1] •

فظلت المدينة محاصرة ثلاثة أشهر ، وصارت القرى المجاورة تنهب متى شاء وأراد هذا اللص الجلد ، من دون أن تبدر أية معارضة له من جانب الباشا ــ والحقيقة ان الباشا لم يكن يملك الوسائل اللازمة لذلك • وفي نهاية تلك المدة قوّض الأعراب خيامهم على حين غرة واختفوا عن الأنظار ، وليس بوسع أحد ان يعلم ما اذا كان السبب في ذلك تناقص العلف وقلة السلب المتيسر ، أم ظهور عوامل اخرى في الأفق • وبذلك وجدت بغداد نفسها في صباح يوم من أيامها الجميلة متحررة من زوارها المزعجين • وتراجع صفوگ الى منازله في شمال العراق • لكنه وعد بأن يعيد الزيارة في السنة التالية ، فأخاف الباشا بهذا التهديد بحيث انه بعث

ورحلوا الى موطن آخر ثم تعافت فلزمها هذا الاسم ••• » وقبيلة أمهم على ما هو معروف محفوظة فهي من الفضول من طي (من بني لام) • وتتألف من أسرة الشيوخ من خمسة عشر أبنا من أبناء فرحان باشا الذي توفي في أواخر القرن الماضي (التاسع عشر) • وتنحصر الرآسة الآن في أبناء عجيل الياور وهو ابن عبدالعزيز من أبناء فرحان المذكور •

(١) كان المعروف يومذاك ــ على ما يذكر بعض المؤرخين ــ ان صفوقا اختلف مع علي رضا باشا فاستغل هذه الفرصة يحيى باشا الجليلي والي الموصل وحركه ضد الباشا في بغداد • وقد ثبت ذلك حينما وجد بين الاسلاب التي تركها صفوك ، بعد أن دحره جند الباشا بالقرب من الكاظمية ، كتاب خاص موجه من يحيى باشا اليه ينطوي على العلاقة التي كانت تربط بينهما •

يطلب مساعدة عنزة • وهذه عشيرة أخرى قوية جداً ، وقد وعدها الباشا بتسليم أراضي الجربا لها اذا عملت على طردها منها • ولم يعتمد على هذه الوسيلة وحدها بل حاول أن يحدث انقساما في قبيلة الجربا نفسها • وباستعمال السلطة التي كان يدعي بها أسلافه ، مهما كانت اسميتها في حالته هو ، في خلق من يقع اختياره عليه وتنصيبه للمشيخة أقدم على ترشيح شاب اسمه شلاش لمنصب شيخ عشيرة الجربا • على أن عدداً قليلاً من أفراد العشيرة فقط اهتموا بهذا الترشيح ، بينما تمسك القسم الاكبر والأهم منهم بشيخهم القديم صفوگ • لكن عنزة ، وقد أسال لعابها في الوقت نفسه مطمح التمتع بمراعي الجربا الممرعة ، جاءت ملبية النداء بما لا يقل عن خمسة وثلاثين ألف محارب ليضمنوا القضاء على خصومهم • وما حل هذا الوقت حتى كانت مخاوف الباشا ومحميه شلاش قد زالت بتراجع صفوگ لسبب أو آخر الى مسافة أبعد • فأرسل سموه من يخبر حلفاءه الجدد بأن خدماتهم لم تبق لها حاجة • ولا أظنك تعجبين اذا علمت ان عنزة ، التي انتعشت فيها الآمال القديمة وجاءت من مناطق بعيدة في البادية يشح فيها الخير والعشب ، قد أغضبتها هذه المعاملة التي عوملت بها • فقد رفضوا مغادرة مكانهم رفضاً باتاً حتى يكون الباشا قد نفذ من جانبه الالتزام الذي تلزمه به الاتفاقية ، لأنهم قد قاموا من جانبهم بما كان يترتب عليهم ان يفعلوه • واحتلوا موقعا في جوار المدينة يؤدي الى أضيق مسافة من الجزيرة التي تحجز بين دجلة والفرات تأكيداً على ما قر رأيهم عليه •

وحينما استثيرت مخاوف الباشا بهذا العمل من جديد دعى محميه شلاشاً لمساعدته في الدفاع عن بغداد وطرد عنزة عنها • بينما قام هو من جانبه بتحشيد جيشه المؤلف من بضع مئات من الخيالة الألبانيين ، والجند النظامي ، وساقه مع المدفعية ليستعرض أمام عنزة • ثم أطاع شلاش الأوامر وجاء بفريق العشيرة التابع له الى ما يقرب من بغداد • وبالشعور الذي يتميز به العرب عادة عمد حتى صفوگ نفسه ، الشيخ المعادي له ، الى

أنفاذ مفرزة تتألف من ألفي رجل لمساعدته في هـذه المناسبة • وكتب الى شلاش يقول « أنا وأنت عدوان متخاصمان ، ويمكننا ان نسوّي النـــزاع بيننا في موسم مناسب • لكن شرف العشيرة في الوقت الحاضر قد تعرض للخطر ، ولا أستطيع السكوت عن ذلك ما لم أقـدم معونتي للمحافظـة عليه •» على ان المساعدة كان أنفاذها عبثاً ، لأن عنزة كانت أقوى من أن تستطيع الجربا مهاجمتها بنجاح حتى لو كانت العشيرة كلها قد عبئت لهـذا الغرض • فقد وقعت مناوشات طفيفة بادىء ذي بدء من دون أن يكون لها تأثير مهم في كلا الفريقين ، ولكن في اليوم الذي سبق وصولي الى بغـداد نفسه أدت مناوشة من هذه المناوشات الى وقوع اشتباك عام ـ على حـــد التعابير التي يستعملها العرب على الأقل ـ فاندحر الباشا وحلفاؤه في هـذا الأشتباك اندحاراً تاماً ، وقعت فيه حتى المدافع لمدة ما في أيدي عنزة • لكن ثقل الحرب والخسارة وقع كله على عاتق الجربا التي قطّع شلاش شيخها الجديد ارباً ارباً فيها وخسرت من الرجال ، على ما يقال ، اكثر مما وقع في أية حرب عربية منذ عدة سنين خلت • وبدافع من بعض الأحترام الباقي لسلطة السلطان استبقت عنزة جند الباشا والتفتت بانتقامها الى اعدائها من العرب • وقد كان مضمون الهوسات المتعالية في الموقعة « خل النظـام واقتل الجربا » وهذا ما فعلوه في الحقيقة والواقع • اما المدافع فأن بـــدو البادية الجهال لم يكونوا يفهمون على ما يبدو أي الاشياء كانت هي ، وعلى كل حال فقد كانوا يجهلون كيفية استعمالها • ولذلك تركت في ميـــدان المعركة حتى استعادها جند الباشا ، الذي شجعه رفق العدو به ، من دون معارضة وتقهقر راجعا بسرعة الى حيث صار يحتمي بسور المدينة •

فعلى مثل هذا كانت الحالة العامة في بغداد حينما وصلت اليها • وكان الخوف من عنزة قـد دفع كل قروي وبستاني ، وجميع القبـائل العربيـة الصغيرة التي كانت متعودة على النزول في الريف المحيط ببغـــداد ، الى داخل الاسوار • واضطر جميع من كان يملك قطعانا من الاغنام أو الماشية

أو الجمال فى المناطق المجاورة الى ان يلتجىء الى داخل السور ايضا فيشغل الفسح الوسيعة التى خلفها الفيضان • وهذا من شأنه ان يضيف بالتأكيد الى تكاثر الناس وتدفق الحياة فى الداخل ، لكنه ايضا يزيد بصورة مزعجة في الضوضاء والفوضى المستحكمة فى الشوارع • وهـذه القطعان من الحيوانات هى التى كنت من قبل قد ألمعت الى مرورها فى رواحها وغدوها من تحت شباكى فى كل صباح • وحينما كنا نحاول فى الصباح الباكر ان نمر من بعض الشوارع أو نخرج من أبواب المدينة كنا نحسد أنفسنا على الصبر والتحمل الذى كنا نبديه قبل ان نستطيع المرور • أليست هـذه صورة جميلة لولاية كان يجب ان تكون من أعظم الولايات ازدهاراً وأنتاجاً فى الامبراطورية التركية جميعها ؟

٢٠ تشرين الثانى

لقد ركبنا وتجولنا كثيرا منذ أن دونت آخر تاريخ يومى اليكم • فقد مررنا بجميع المحلات المسكونة فى بغداد ، وزرنا معظم المشاهد التى تستحق الزيارة والألتفات • وكان من بين الأماكن التى زرناها مرقد السيدة الظريفة ، سريعة الخاطر ، زبيدة[1] زوجة هارون الرشيد • على انني ليس عندى ما أعلق به على هـذا المرقد سوى أنه يتألف من برج مستدق فريد فى شكله يشبه المسلة ، ويحمل على قاعدة طويلة بشعة جداً ، ويحتوي الجزء السفلي منها على مكان القبر • لكنني لم أدخل الى الداخل لأرى ما يوجد فيه • فأنهم هنا يبدون اعتراضات كنت أرغب فى تحاشيها ، خاصة وقد كانت رغبتي فى استطلاع المراقد الاسلامية قد حيل دونها فى

(١) كان الرحالة نيبور أول من أشار الى أن هذا القبر هو قبر زبيدة زوجة هارون الرشيد حينما زار بغداد في ١٧٦٦ ، وقد أورد نص الكتابة الذي يؤيد قوله هذا • لكن الدكتور مصطفى جواد يرى غير هذا الرأي في كتاب (دليل خارطة بغداد) ص ١٧٠ على أساس أن زبيدة كانت قد دفنت في مقابر قريش أي في مشهد الامامين الكاظمين • وهو يقول ان القبة المذكورة هي تربة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بالله وأم الخليفة الناصر لدين الله العباسي المتوفاة سنة ١٢٠٢ بتصريح عدة من المؤرخين •

مناسبات كثيرة من قبل • وسوف لا أعمد الى تسليتكم بالأفكار والمشاعر التي ربما تكون قد خطرت في فكري عند زيارتي لقبر هذه الحسناء الشهيرة ، التي نقرن كلنا بأسمها بعض ذكريات الشباب المفرحة ، مع أن الأيام التي كانت تجلس فيها زبيدة وتسلي نفسها بالأستماع الى القصص والمغامرات كما كان يفعل زوجها وسيدها لم أستطع تخيلها أمامي • لكن قصر الخليفة قد اختفى من الوجود ، وأصبح حتى موقعه مجهولاً • ورحل المجد عن هذه الارض ، فاختفت الروحية التي كانت توحي لأبنائها وبناتها العزم والقوة لتهيم في مجالات أخرى • وعلى هذا فلنترك تربة زبيدة ونلتفت الى مناظر أخرى •

ومن الأشياء التي لابد ان تلفت نظر الغريب في تجوالاته ببغداد ، الى جانب العدد الكبير من الأعراب الذين يلوحون له على الفطرة ، كثرة الحمير البيض (المطايا) والعبيد السود القبحاء الذين تعج بهم الشوارع والاسواق جميعها • فان الناس يقبلون هنا أقبالاً شديداً على الحمير البيض ولا يستبدلون هذا بأى لون آخر • ولذلك فمن النادر ان تجد شخصا له منزلة محترمة ، رجلا كان أو امرأة ، وهو يركب غير هذا الحيوان الابيض ـ عدا الطبقات العسكرية التي تحتقر أى شيء يقل عن الجواد العربي الأصيل • ويفضل المثقفون ورجال الدين هذا الحيوان الذى تكثر فيه الوداعة ، وكذلك تفعل السيدات كلهن • ولذلك فان عدد الحمير التي تسخر للركوب هنا كبير جداً • ولما كان نساء الطبقات الرفيعة في المجتمع نادراً ما يتحركن من دون ان يصحبهن عدد كبير من نساء الحاشية اللواتي يركبن على الشاكلة نفسها ، فأنهن حينما يقمن بزيارة البيوت المجاورة يصبح صوت الجوقة النهيقية شيئا غير محتمل • وهذا النوع من الحمير ينتمي الى عرق[1] أصيل خاص ، ويباع بأثمان عالية جداً ـ فلا يعد مبلغ

---

(١) وهو عرق الحمير الحساوية المعروف الذي ظل يستعمل للركوب كما تستعمل الخيول الى ما قبل سنوات في بغداد •

الاربعين أو الخمسين باوناً استرلينياً ثمناً غير شائع بالنسبة لحيوان من هـذا النوع كبير الحجم ، أصيل العرق ، دقيق الخطى • وتُرخّت هذه الحيوانات ترخيتاً بديعاً ، ويشق منخرا كلٍ منها ، كما يصنعون في ايران ايضـاً ، لأجل ان يصبح أطول نفساً في العادة ـ ان نفس هذه الحيوانات يعلم الله على جانبٍ كافٍ من الطول حينما تأخذ بالنهيق !

ويشيع الولع بالعبيد السود هنا بقدر الولع باقتناء الحمير البيض ، واذا ما أردنا ان نحكم بالمظاهر نجد ان قيمة هؤلاء تزداد بازدياد القبـح الذي يتحلون به ـ كما هي الحالة في كلاب التـرير (Terrier) التي ينطـــوي حسنها في قبحها الخاص المعروف • ويأتي اولئك الحسان السود ، الأنثى والذكر منهم ، من مدغشقر وزنجبار غالباً ، حيث يجهزهم في الأعـــم الأغلب أمام[1] مسقط ـ وهو حليف أمين معتبر من حلفائنا يقبض في يده على جميع الطرق التجارية تقريبا • وكلهم ذوو شفاه غليظة ، ووجـــوه عريضة ، وعظام بارزة في الوجه ، وأنوف فطس للغاية ، وذقون صـغيرة مستدقة ، وعيون بيضاء محدقة ، وجلود سـوداء طمطمانية • وأني وأن كنت أبعد ما يكون عن الدعوة الى اعتبار العبيد بوجه عام عنصرا منحطا عن البيض في الذكاء لوجود بعض الفروق التشريحية الطفيفة بين الفريقين ، لكنني أقول اذا كان هؤلاء قـــد حباهم الله بالكثير من الذكاء فان العنـاية الألهية لم يكن يسرها مطلقاً ان تودع ملكات الذكاء في هيكلٍ أقل اغراءً من هذا • على انك تجدهم هنا مفضلين جداً على غيرهم من الخدام في الحرم والاماكن الاخرى • فالشوارع تعج بهم ، وجلودهم الصقيلة ، وأوجههم الضخمة اللماعة ، وملابسهم الزاهية ، تقود الى الاستنتاج في الحال بأنهـم ينعمون في حال ميسرة • على ان هـذا فيـــه ما يدعو الى الاستغراب اذا ما أخذ في ضوء ما يعرف عن الاتراك ومعظم الشرقيين من تعرض تجـاه

---

(١) كان الامام في مسقط على هذا العهد السيد سعيد •

عبيدهم • كما ان التبختر الوقح ، واللغة السليطة التى تصدر من اولئك السفهاء السود حينما يمرون بك فيالشوارع، لا تدع مجالا للشك فى كونهم محاسيب مدللين لبعض السادة المتطرفين فى التساهل • على ان التمتع بهذا النوع من الترف يقتصر على المسلمين فقط ، لان أى مسيحى أو كافر من أى طبقة كانت لا يسمح له القانون بامتلاك أى نوع من العبيد • وليس هذا هو المنع الوحيد الذى يميز به المسلمون على غيرهم هنا ، فأن المسيحى واليهودى يمنع قانونا من الركوب فى الشوارع • ولذلك لم يجرأ اليهود ولا النصارى فى أيام داود باشا على الظهور وهم يركبون الخيل أو البغال أو الحمير ، غير ان هذه القواعد أخذت تكسر أحياناً فى عهد علي باشا الذى يسود فيه التراخي • ولا أراني بحاجة الى ان أضيف على ذلك فأقول ان الانكليز ، والافرنج بوجه عام ، يعفون من هذه القيود ويستطيعون الركوب بحرية كما يشتهون •

والخصيصة الأخرى التى يتميز بها الجمهور الذى يغشى الاسواق عادةً الأشباح ، المتشحة باللون الأزرق[1] الغامق والمقنعة بالأقنعة السوداء ، التى تمر محتذية أحذية[2] صفراء صغيرة خاصة ، فيقال لك أنهن نساء • وهن يعلم الله ، حين يظهرن متنكرات بهذا الشكل ، أشبه بأى شىء آخر عدا الجنس اللطيف من المخلوقات • فان لفافاتهن الزرقاء الغامقة ، أو القماش الازرق والابيض الذى يلففهن من الرأس الى القدم يخفي الشكل واللباس اخفاءً فعالاً ، بينما يقوم البرقع الاسود (البيچة) المصنوع من شعر الخيل المنسوج نسجاً خفيفاً بحجب الوجه عن أعين المارة حجباً تاماً ، ولكن المرأة المحجبة به تستطيع فى الوقت نفسه ان ترى جميع ما يمر أمامها على الوجه الاكمل • وقد ضحكت مرةً حينما رفع أحد هذه البراقع

---

(١) الظاهر ان عباءة النساء ، أو الايزار الذي كانت النساء تتبرقع به في تلك الايام، كان لونه أزرق بدلا من اللون الاسود الذي يشيع في الوقت الحاضر ويعم •

(٢) كان يسمى هذا النوع من الاحذية الجدوك •

الداكنة بالصدفة وبان من ورائه وجه أشد سوادا من القناع نفسه • لكنه قد يحدث في بعض الاحيان كذلك ان يتوارى وراء الحجاب الضنين وجه جميل من أوجه الفتيات الگرجيات[1] ، وقد شعرت ذات يوم بدافع قوي يدفعني الى مد يدٍ دنسة أحول بها لحظةً من الزمن دون انكساف منظر من أجمل المناظر ، من النادر ان يوجد في هذه الجهات ـ منظر جمال أنثوي أخاذ ـ والحقيقة ان أحداً لم يستطع في يومٍ من الايام ان يخترع أقبح وأوحش من الاكفان الفظيعة التي اخترعها الحسد الشرقي ليلتف بها النساء فيشوهن بها أنفسهن عندما يظهرن في الخارج ، بغية افزاع العيون المتلصصة والحيلولة دون روحية الخلاعة والفساد • فبها يظهر الشباب والشيخوخة ، والجمال والتشويه ، بنفس المظهر المضلل ، والفكرة التي توحيها كل امرأة تتزيا بهذا الشكل فكرة تنم عن عجوز شمطاء مخيفة ، متسربلة بلباس الفقر والضعة •

ومع هذا ، فهل يحمي هذا المظهر المنفّر في الحقيقة الثمرة المحرمة عن العيون المشتاقة يا ترى ؟ وا أسفاه ! ان قصص الحب والمكر التي لا ينضب معينها ، والكوارث المفجعة التي تنتهي بها مآسي الحب والجريمة هذه ، تحدثنا عن قصة تختلف تمام الاختلاف عن هذه ، وتثبت بكل تأكيد ان القوة المجننة والعواقب التي تنطوي عليها العواطف المكبوتة في هذه البلاد وجميع البلاد الاخرى هي شيء واحد • فمن المعروف تمام المعرفة ان هذه البراقع الواقية في الحقيقة تحجب عن الانظار في بعض الاحيان أجمل حسناوات الحريم ـ نساء شابات جميلات ، وسواء أكن جميلات أم لم يكنّ فهن يرتدين أفخر وأبدع ما يمكن ان تسمح به ثروة الوالد أو الزوج • فالتركي يصرف ثروته التي يحاذر التظاهر بها في الخارج على

---

(١) لا شك ان كلمة كرجية تعني أمرأة من الكرج الذين كان يؤتى بهم من كرجستان (جورجيا) في قفقاسية ، ولا تزال توصف المرأة الجميلة في العراق بكلمة كرجية باللغة الدارجة كما لا يخفى •

نسائه وبيته ، ويكون صرفه هذا سخياً • فقد تكون غرفة استقباله حقيرة ، وقد يكون سجاده قديماً متهرئاً ، ووسائده بالية ، وقد يكون الشال الذي يلف به رأسه أو محزمه رثاً أو من غير نوع الكشميري الاصلي ، لكن غرف الاماكن التي يمنع الدخول اليها لا تكون مؤثثة تأثيثاً مريحاً حسب بل مترفاً ايضاً • ولو تيسر لك الدخول اليها لوجدتها مفروشة بسجاد هرات وكرمنشاه ، ويانات قايين وتفت ، ولرأيت فيها الچيت من الهند وانكلترة ، والشراشف من يوركشاير وغلوستر شاير ، والحراير من الصين أو يزد أو كاشان ، تزين غرف نسائه وتجعلها جميلة مريحة • وستجد كذلك رؤوسهن مكللة بالشال الكشميري أو بأغلى كفافي ليون المطرزة ، وأجسامهن تكتسي أبهى أنواع القطيفة وتتدثر بأغلى الفراء • وستلاحظ كذلك ان آذانهن وجباههن وأعناقهن تتألق بالجواهر ، وشعورهن مضفورة باللآلىء ، وأصابعهن مغطاة بالخواتم المتلألئة ، ومظهرهن كله مع كل شيء من حولهن يدل على الثراء والترف •

وليس هناك في الحقيقة أكثر زهاءً وبهاءً في اللون والمادة من لباس السيدات التركيات في بغداد • لكنني أخشى أن أكون عاجزاً عن ان انقل اليكم فكرةً صادقة عن أزيائهن من دون رسوم منقنة • فان المرأة التركية على ما استطعت التوصل اليه ترتدي أولا قميصا يصنع من نسيج حريري رقيق ذي الوان مختلفة ، وينفتح من الأمام الى ما يقرب من المحزم لكنه يضم حول العنق بحلية من الحلي عادةً • ويكون هذا القميص مطرزاً تطريزاً جميلا حول العنق وعلى طول الصدر ، كما تكون الأردان الطويلة الفضفاضة التي تبدو معلقةً من خنقتي اليد المفتوحتين في السترة معمولة بالذهب والفضة (الكلبدون) والحرير الملون بألوان مختلفة • ويرتدي البعض منهن فوق هذا نوعا من الصدار المزين بزينة جميلة جذابة ، تمتد من العنق الى الوسط • لكنني أعتقد ان هذه القطعة من الملابس تستعمل في الدرجة الاولى لستر عيب من العيوب في اللباس الذي تغطيه • وتلبس

فوق القميص صدرية ذات ذيل طويل تتلبس في الجسم تلبساً تاماً يظهر شكله الى حد الوسط ، مع أردان ضيقة تبقى مفتوحة حتى المرفق تقريبا •
وتصنع هذه من جميع انواع الاقمشة الغالية كالحراير المشجرة أو السادة ، والاقمشة الموشاة ، والشال ، والقطيفة وما أشبه ، وتزين بالوشي أو التطريز من جميع الانواع تبعاً لذوق اللابسة • ويرتدي بعضهن سترة قصيرة من قماش مماثل ، مبطنةً بشيء من الفرو الناعم ، فرو السمور أو القاقم ، وموشاة بالكلبدون كذلك • لكن الشائع الآن كما علمت استعمال الكورك ، أو رداء الفرو الطويل • اما السراويل الطويلة الواسعة التي تكاد تختفي تحت سائر الالبسة فهي تخاط عادة بالحرير الملون الزاهي •
لكن السيدات التركيات يبدين تذوقهن للأناقة والصرف في لباس الرأس والمجوهرات عادةً • فلباس الرأس الذي يسمى هنا « باشلك » يتكون اعتيادياً من منديلٍ واحد أو منديلين ، أو شالة ، تلف حول الفيس (الطربوش) الاحمر الذي يعتبر غطاء الرأس الوطني الذي يلبسه الاتراك جميعهم والنصارى واليهود ، رجالاً ونساءً ، الداخلون في حكم السلطان•
وهو يصنع من اللباد أو القماش الاحمر ، وتكون له عذبة أو شرابة (يسكولة) من الخيوط الزرق•ويطرز الفيس الذي تلبسه السيدات تطريزا باللؤلؤ ينطوي على الكثير من الذوق • ويبدل في بعض الاحيان لون الشرابة والفيس بحيث يلائم رغبة اللابسة • ويلف الشال أو المنديل حول هذا بأشكال تفوق في لفها أي شيء رأيته من هذا القبيل في قبعات أو عمائم السيدات في بلادنا نحن • وأعتقد ان أحسن ما يستعمل من المناديل يصنع في أنوال ليون ، مع ان هناك مناديل مطرزة جميلة جدا من صنع استانبول • لكنني ليس بوسعي ان أصف لكم أو أبالغ في وصف الذوق النفيس والرقة المنطوية في القماش • فانها تنطوي في جميع ألوان القماش ودرجات الالوان ، وتطرز أكاليل الاوراد فوقها ، تطريزا كله ذوق واناقة ، بكل درجة من درجات الالوان الرقيقة التي تختلط بكلبدون الذهب

والفضة • وحينما تلف المناديل الجميلة هذه حول الرأس وتبرم يلاحظ في ذلك تعريض هذه الزينة والتطريز الى الخارج بأجمل شكل ، على أن تبقي نهايتها مدلاة بشكل رشيق خاص • ويكون الشال المستعمل على الدوام من أفخر أنواع الشال الكشميري الذي تطرز حواشيه بكلبدون الذهب والفضة ، أو باللؤلؤ وسائر المجوهرات • وحينما يلبس لباس الرأس هذا يضفر الشعر ويبرم في العمامة ليكون زينة قائمة بذاتها ، وتتدلى من ذلك ضفيرة أو ضفيرتان الى الخلف تنتهي كل منهما بشرّابة من نقود الذهب أو المجوهرات • ويعلق ملفوفا بالشعر ، من جهة واحدة تحت اللفة او العمامة ، حبل من خيوط اللؤلؤ يعقد بالاحجار الكريمة • وكذلك يعلق مقدار من اللؤلؤ بأشكال مختلفة بجنبه تبعا لذوق السيدة ورغبتها • اما المجوهرات التي يشيع استعمالها ولبسها ، فانني لا أدري كيف أصفها من حيث شكلها المختلف ومكانها ولونها • فهناك « الجيكة » وهي حلية صنوبرية الشكل توضع في جهة واحدة و « التيته » في الجهة الاخرى ، و « عين الگوني » في الامام متدلية على الجبهة ، وتكون هذه الحلي جميعها من الماس ، والياقوت ، والزمرد • وهناك بعد ذلك ألف شيء من الاشياء الاصغر كالفراشات والبكلات والدبابيس والاعلاق ، مما لا يمكن تعدادها او وصفها • والخلاصة ، ان لباس رأس السيدة التركية بكامل زينته من المجوهرات يكوّن كلاً غنياً مذهلا ، ويبدو لك في الحال شيئاً بهياً جميلا يمتلىء بالذوق ويتحدى الوصف •

وتُزين الأذنان بالأقراط ، كما تحاط العنق بعدد من قلائد الماس والزمرد واللؤلؤ والسلاسل الذهب • وتشد أنواع « البازبند » على الذراع في منتصف الطريق بين الكتف والمرفق ، وهي ذات قيمة كبيرة • وكذلك تتلألأ المعاصم على الشاكلة نفسها بأساور لا يمكن ان توصف من حيث عددها وتنوعها • كما يحاط المحزم بمنطقة من القطيفة تشد بأبزيم من الذهب المزين بالاحجار الكريمة ، ويثبت بالمنطقة نفسها عدد من قطع الماس •

اما الفقراء فيكتفون بأحجار أرخص وشغل الذهب الدقيق • وفى النهاية ، تغطى الاصابع بعدد لا يحصى من الخواتم والحلق المرصع بأحجار فىأدق الحجوم وأندر البريق، وحتى أصابع القدمين تكون لها زينتها منالاحجار• وهكذا تصبح السيدة التركية أثناء وقوفها أو تحركها كتلة من النور الباهر والرونق الاخاذ •

وقد نسيت ان أذكر ، بين الحلي التى تزين بهـا الايدى والاقدام ، نوعا غريبا منالحلق يلبس بالابهام واصبع القدم وهو أشبه بنصف كشتبان ، يلبس وجانبه العريض يتجه الىالاعلى، ويرصع بالزينة اللماعة والمجوهرات• وهناك ، عفوا ، البوابيج الجميلة التى تحتمل أى نوع من الزينة الملائمة لذوق الحسناء وقابليتها على الصرف • وهذه لا تكاد تحفظ أقدامها الجميلة من السجاد الثمين الذى تمشي عليه ، ولكنها لما كانت تستعمل فى التنقل من غرفة الى أخرى فقط فان خفتها لا تحول دون الاستفادة منها •

وستدركون من هذا بلا شك ان لباس السيدة التركيـة ليس زاهيا جدا فحسب بل ان ثمنه أيضـا يمكن ان يزداد الى ما لا نهاية تبعا لايراد صاحبتها ، لان طراز زينتها يمكن أن يتغير وفقا لذوقها•وقدكنت أتمنى أن أقول علاوة على هذا ان عقول اللابسـات الحسناوات تزدان بحلي الفكر والمعرفة كما تزدانأجسامهن بالالبسة • غير أنني بالنسبةلجميع ما استطعت التوصل اليه من معلومات يمكن أن أقول ان هذا بعيد جد البعد عن الحقيقة والواقع • فالحقيقة ان جهل ، وسخافة ، وسماجة نساء الطبقة الراقية فى بغداد أشياء تلفت النظر بصورة مؤلمة • وليس من الصعب علينا أن ندرك كيف لا يكنّ على غير هذه الحالة • فأى فرص للتحسن يمكن ان تتوفر لهن فى محيطهن ، عن طريق القدوة او الفرض ؟ وأى نماذج تيسر لهن فى مكانهن فيقلدنها ويحسّن من وضعهن علىمنوالها ؟ فهن وقد دربن على تسلية سيد يكون فى كثير من الاحيان شيئا أحسن من الوحش بقليل ، وعلى ان يلبسن ويتزوقن ويبتسمن ويقيّدن أنفسهن بحيث يتلائمن مع

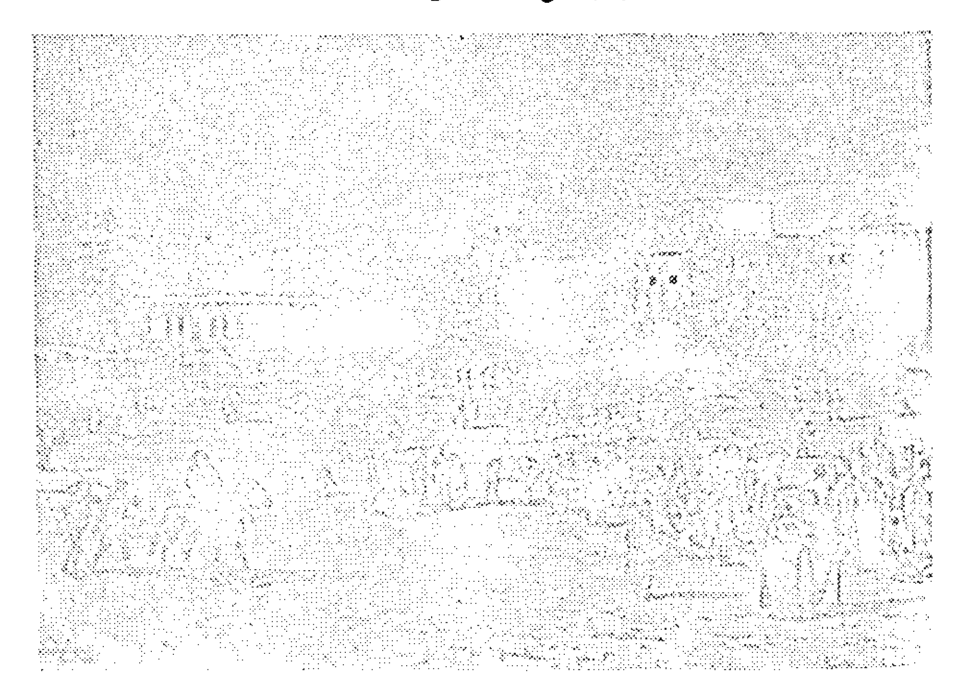
مزاج سيدهن الذى لا يستطيع ، ولا يريد ، ان يقدر ابداء أى مقدار من الذكاء والنشاط العقلي فى مملوكته المتزوجـة ـ كيف ينتظر منهن ان لا يكنّ فى الاعم الاغلب سوى دمىً خالية من الروح والعقل ؟

وليست لديهن فى البيت، على قدر ما استطعت التأكد منه ، أشغال تشغلهن سوى اللبس وترتيب الملابس والمجوهرات ، والتدخين ، وتناول القهوة ، أو القشب والثرثرة مع الخدم والنساء اليهوديات اللواتى يأتين الى البيوت لبيع الاقمشة واللُعب والمجوهرات (الدلالات) • وقد يلعبن مع اطفالهن اذا كان لديهن أحد منهم ، لكنهن ليست لديهن أية فكرة عن تربيتهم وتثقيفهم الذى يترك أمره عادة الى « الدايات » والمربيـات • ومن أعظم وسائل اللهو والتسلية عندهن التزاور بينهن ، وتنطبع زيارتهن هذه بطابع خاص بها • اذ يندر ان تذهب احداهن فى زيارة مثل هذه لوحدها او تكتفى حتى بأخذ واحدة أو أثنتين من الحاشية معها • ولذلك تجد فى هذه المناسبات ان بيتا بكامله يتحرك مرة واحدة كأنه مستعمرة صغيرة ، أو رتل صغير من أرتال الجراد ، فيحط فى بيت صديق من الاصدقاء أو جار من الجيران • وقد يتألف البيت المتحرك من زوجتين أو ثلاث زوجات، مع الاخـوات ، والعمات او الخالات ، وبنات العـم ، وبنات البيت نفسه ، والمملوكات ، والخدم ، والاطفال والمربيات • وعلى المضيفة ان تعد العدة فتضيّف القطيع كله ـ وليس هذا بالواجب السهل ، وخاصة عندما تكون المضيفة على غير علمٍ بقدوم الضيوف أو حينما تكون الضيفة ذات منزلة رفيعة • ولذلك يحصل شـيء غـير قليل من الهرج والمرج والجري الى الاسواق والجيران للحصول عـلى الوسائل المطلوبة والمواد للقيـام بواجب الضيافة • وكثيرا ما يبلغ عدد الزائرات فى زيارة مثل هـذه أربعين الى خمسين شخصا من أولئك الاشخاص المرحين •

وفى مناسبات مثل هذه لا بد ان تتوقف جميع الاعمـال مهما كان نوعها ـ فعلى المضيفة او المضيفات ومملوكاتهن ان يعطلن كل عمل ويعنَّ



من جوامع بغداد فى ١٨٢٧



ساحة الميدان والقلعة قبل مئة عام



حـــول عطلة عامة في البيت . وبعد ذلك تبـدأ قعقعة الالسنة ، وتتعالى الضحكات ، وتنطلق الثرثرة . فلا بد للحسناوات التركيات ، وقدخرجن من سأمة بيوتهن وضجرها أو من التقيـد بحضـور أزواجهن ، ان يكن مرحات بمقدار كاف على الاقل . وحينما يكن مرحات لا يوجد أشـــد صخبا ولغطا منهن في العالم . ولا أريد في الحقيقة أن أكون غير منصف ، أو قاسيا في حكمي ، ولا أن أقول غير الصدق . لكن أصوات النساء هنا كلها من وزن واحد على مايبدو ، وهو وزن الجعير الذي يصدر من بعض الناس هنا حينما يكلم أحدهم صديقه الجالس في طرف آخر من سوق مزدحم . فهن كلهن يزعقن ويصرخن بصوت عال ، وحينما يتكلمن كلهن على هذه الشاكلة في وقت واحد ، كما هي الحالة عادة ، فان تأثير ذلك يكاد يتفوق على النهيق الذي يصدر من مطاياهن المربوطة في أسفل ، وليس هذا بقليل . ولا أقول هذا استنادا الى معلومات نقلت ألي ، لاني حينما مررت ذات يوم في أحد الشوارع بدار كانت قد تشرفت باقامـــة حفلة نسوية خاصة تسمعت لاصوات الطرفين فيهـا . لكنهن لا يكتفـين بصوتهن فقط ، ولا بمباهج أحاديثهن وانما يستنجدن بالمغنيات والراقصات كذلك . وحينما تكون الحفلة في أوجهـا وتنطلـق أصوات المغنيـــات والراقصات ثم تتصاعد قرقعات التصفيق من الحاضرات كلهن يصل الضجيج والضوضاء الى القمة .

وقد كنت أتمنى أن يكون تحدث الحسناوات في بغداد بالصـــوت العالي الذي أتيت على وصفه العيب الوحيد فيهن . ولكنهن ، وهن المعروفات بالجهل ، ينفرن من الاشخاص المتفوقين عليهن من حيث التهذيب بسماجتهن ، ودناءتهن ، وفضولهن . ومن المخطر أن يطلق لفيف منهن بين أشـــياء منتقاة غريبة ، لانهن يتهافتن عليها بالمخلب والناب فيشوشن ترتيبها بالكلية ، أو يقطعنها ويفككنها . اذ يتقن لها ، بل ويطالبن بها بخشونة بالغة أحيانا ـ

وقد يحصلن على ما يعجبن به حتى عن طريق السرقة ايضا • أما طريقة حديثهن وتخاطبهن فتتميز بكل شيء عدا التحفظ والرقة ، ولا يمكن أن يرتفعن بطبيعة الحال الى أعلى من نطاق تعلمهن المحدود ومجال عقولهن • على أنهن قد يتحلين في بعض الاحيان بسلوك السيدات المحترمات على ما يقال ، وكثير منهن يكن لطيفات الطوية حسنات الخلق • واني أتصور ان هذه الصفات هي التي يتكون منها جماع فضائلهن الاجتماعية ، عدا بعض الاستثناءات الفردية التي يمكن أن توجد بطبيعة الحال • وقد تكون جرثومة الصفات الحميدة الاخرى قد ولدت معهن ، لكنها قد وهنت بالاهمال ، أو قضى عليها تفاقم الرياء ، والاستهتار بالقيم الذي يشجعه وضع المجتمع الذي ينحصرن فيه بشقاء واكتئاب • ولذلك فاني أهنىء النساء الاوربيات ، والانكليزيات منهن على الاخص ، لان العناية الالهية الرحيمة قد حفظتهن من مثل هذه الحالة المنحطة •

ولم أتطرق حتى الآن الى ذكر شيء عن طبقات النساء الدنيا لانهن يكدن يكن الكادحات المسترقات اللواتي يخلفن العوز في جميع البلاد ، وبارتقائهن في سلم الثروة والرفاه يقلدن المتفوقات عليهن • فانك تجدين النساء العربيات يطفن في الشوارع غير محجبات وبملابس رخيصة جدا ، وهن يتغطين بالعباءة الابدية ، وقد وشمت جلودهن بعلامات لاعد لها من الوشم • أما المتزوجات منهن فيحملن في أحد منخريهن خزامة من الذهب أو الفضة كأنها زر كبير من أزرار التخريم ، ويتزين بخلاخيل وأساور من الفضة أو النحاس الاصفر تبعا لايرادهن وحالتهن المالية • واعتقد أن الارمنيات والكاثوليكيات يلبسن كالنساء التركيات تقريبا • لكن اليهوديات لهن زي مختلف لا أعرف شيئا عنه ، كما ان أرمنيات الاماكن الاخرى لهن أزياؤهن الخاصة كذلك • وقد قيل لي ان جميع الازياء النسائية في بغداد تختلف اختلافا غير يسير عن أزياء النساء في استانبول •

وبعد هذه النبذة الطويلة عن أزياء النساء وملابسهن فانكم قد تعذروننى لعدم دخولي فى تفصيلات خاصة عن ملابس الرجال • فان الزيين السائدين فى هذا الشأن هما الزى التركى والزى العربى • اذ يرتدى التركى صدارا متسعا يشد حول الحزم بشال ، ويلقى فوقه رداء من القماش العريض الذى يكون مطرزا فى العادة • وفى الطقس البارد يرتدى سترة مبطنة بالفرو ، وعمامة كبيرة من الموسلين الابيض أو الشال فى رأسه • أما اللباس العربى فقد أتيت عليه من قبل ، وليس عندى ما أضيفه هنا سوى ان أقول ان خليط الملابس والالوان وبريق الاسلحة والنياشين يتكون منه منظر بهيج تنبض فيه الحياة لدرجة غير يسيرة •

٨

زيارة الباشا ــ مظهره وأخلاقه ــ دهاليز الاغتيال ــ الكهية وضباطه ــ صخب الخدم ومطالبتهم بالبخشيش ــ شره الباشا وتشبثه بقلب المعادن الى ذهب ــ تجربة ناجحة ــ الدراويش ــ طبقاتهم الثلاث ــ دراويش التكايا ــ الدراويش المتوطنون ــ والمتسولون ــ قصـــة مـامون المصطفى ــ زيـارة للدراويش ــ حيلهم وادعاءاتهم ــ زيارة للشيخ عبدالقادر ــ النقيب ــ التربة والجامع ــ كنيسة الروم الكاثوليك ورئيسها ٠

فاتني ان أذكر لكم أنني بعد وصولي الى بغداد بيوم أو يومين ذهبت لزيارة الباشا [1] ، الذي كنت قد جلبت له كتابا من شيخ الاسلام في تبريز ٠ وقد استقبلت بما يكفي من المجاملة ، لكنني يمكن أن أقول بالتأكيد انه ليس هناك شيء يمكن تصوره ليكون أقل تعبيرا عن فخامة المقام وأبهتــه من مقام سمود ، ولا أقل اعتبارا من خلقه ومظهره ٠

فقد كان الدخول الى مسكنه ، الذي يصعب أن يسمى قصرا ، على أحقر ما يمكن أن يكون ، وكان القائمون على خدمته يتناسبون مع المكان الذي يعملون فيه تناسبا تاما ــ اذ كان هناك عدد من الالبانيين الرثين في مظهرهم ، وقليل من الاتراك المنصرفين الى التدخين ، وجماعة من الموظفين سيئي الهيئة والهندام ٠ ولم يكن الشخص الذي أدخلنا للمثول بين يديه على حال أحسن بكثير منهم ٠ فقد وجدنا هناك رجلا بدينا يناهز الخمسين من عمره ، عليه رداء من الفرو ، وفي رأسه طربوش ، يجلس في جناح براني مؤثث تأثيثا اعتياديا ، ومفتوح على الساحة بكليته ٠ وكانت هناك على الارض سجادة لا بأس بها ، وكان المسند والافرشة التي جلست عليهـا مغطى بقماش من الحرير القرمزي ٠

وكان الباشا ، على ما ذكرت ، رجلا بدينا فيه شيء كثير من سحنة التتر ، ولكن بشكل مقبول ٠ وقد تحدث الي كثيرا ، رادا على فارسيتي

---

(١) انه علي رضا باشا اللاظ كما لا يخفى ٠

باللغة التركية • فكان حديثه على وجه العموم شيقا بالنسبة لمقام الباشوية الذى يشغله • غير أن المجلس كان فيه عدد كبير من الاشخاص لا يسمح للباشا بأن يفتح لي قلبه بحضورهم ، كما كان من المؤمل أن يفعل لو كان لوحده على ما رُوي لي عنه • فقد كانت الغرفة ملأى بأناس كانوا يرتدون ملابس تركية وعربية وايرانية وكردية ، ولم يكن يخلـو المجلـس من المحدثين والمتكلمين • ولما كانت الفائدة من مثل هذا التحدث قليلة نهضت بأقرب ما كانت تسمح به اللياقة والحشمة ، وبعد أن ترخصت من فخامته ذهبت لزيارة الكهية الذى كان يجلس في غرفة مظلمة تقع في ممر يبدو على درجة غير يسيرة من الكآبة • وفي مثل هذه الدهاليز المظلمـة من سرايات الامراء والباشوات تقترف حوادث القتل والاغتيال الكثيرة عادةً • فأن الضحية المسكينة التى يراد الاجهاز عليها ما أن يمر منها وهو خلي البال مما يهدد سلامته حتى يجد نفسه وقد لُف شال حول عنقه من الخلف قبل أن يصرخ بكلمة « الله » ، أو يخرج اليه من باب جانبية ألباني جلواز فيفرغ النار من قربينة (بندقية صغيرة) في بطنه ، أو يطلق خرطوشة مسدس في دماغه ، فينتهي أمره وسرعان ما يُشاهد جذعه الخالي من الرأس معروضا في « الميدان » • وقد حدث شيء من هذا القبيل قبل مدة قصيرة في هذا الممر بالذات ، على ما رُوي لي ، على أنى اجتزته سـالما والحمد لله فوجدت الكهية ، الذى كان على رأس الجيش المنكسر [1] جالسا في زاويته وبالقرب منه عقيد في الجيش النظامي ، وضابط من ضبـاط الخيالة الالبانيين ، وعدد من أناس غير معروفين ، مسطرين في جوانب الغرفة الثلاثة وقد جاءوا يهنئونه على مآثره الاخيرة على ما أحسب • لانهم على ما يقولون قد قاموا بأعمال باهرة برغم هزيمتهم المنكرة ! فقد أقسم

(١) المنكسر في اشتباكه مع عنزة في جانب الكرخ ، كما مر في الرسالة السابقة • وكان علي رضا باشا قد عين في منصب الكهية وكالة ، بعد أن قضى على المماليك ، الحاج يوسف اغا من وجهاء حلب الذين رافقوه في الحملة • وبعد ذلك عين لهذا المنصب اصالة الحاج محمد أسعد افندي آل النائب . والارجح انه هو المقصود بهذه النبذة •

قائد المدفعية أيمانا مغلظة بأنه أطلق خمس مئة قذيفة من مدافعه ، فقتلت كل قذيفة خمسة عشر رجلا من رجال العدو • وهو لا يذكر رقما «أكبر» من هذا لانه يود أن يبقى في ضمن الحدود المعقولة القابلة للتصديق ! ومع كل هذا فقد أجبروا على التقهقر بطريقة من الطرق ـ أنه يعترف بهذا على كل حال •

وقد اكتفينا هنا بزيارة قصيرة : اذ تناولنا القهوة ودخنّا شطبا أو شطبين [1] ـ هذا ما فعلوه هم على الاقل ـ ثم عدت من السراى محفوفـا بلفيف من خدام فخامتـه وهـم يطالبونني ، وليس يرجونني ، بالهدايـا مطالبة ملأى باللجاجة والالحاف • وهذا أزعاج ممجوج للغاية تشاهده هنا وفي استانبول ، لكنه أشد أزعاجا هنا • فان « جميع » الخدم الذين يقفون في خدمة أي رجل كبير تزوره هنا ينتظرون من الغريب أن يطعمهم أو يقدم لهم هدية من الهدايا ، وقد أصبحت هذه العادة الممقوتة جزءا من الوضع العام بحيث ان الخدم يعدون هذه الاكراميات قسما من اجورهم أو رواتبهم ، ولذلك لا يمكن لاى شخص أن يتحاشى الاذعان لها • فكل فرد أو مراجع لابد ان يستفيد من المراجعة فيدفع لهم تبعا للفائدة التى يحصل عليها • اذ يدفع الموظفون والمستخدمون هذه « الرسوم » لخـدام الرجل الكبير من أجل تكوين أصدقاء في الديوان ، بينما يدفع لهـم هم بدورهم من يروّجون له أشغاله • وهكذا أصبح هذا التعامل عادة شائعة بحيث ان المرء لا يمكنه القيام حتى بزيارة اعتيادية بسيطة دون أن يدفع شيئا للجميع • وقد أصبحت هذه في السراى على الاخص عادة ممقوتة للغاية ، اذ يحدق الاتباع والخدام الذين لا حصر لهم بالمرء كاللصوص ، وينفـذ الاجبـار على الدفـع الى حد قيام الجنود الذين يقفون للتحيـــة

(١) لقد أشرت في حاشية متقدمة ان الشطب هو الجبوق ، ويقدم للزائر أو الضيف كما تقدم النارجيلة (الشيشة) أو السيكارة • وقد كان في ديوان الباشا يومذاك عـادة رجل موكل بهذه الخدمة يسمى « جبوق باشي » •

بمد بنادقهم لقطع الطريق عليك حتى تدفع « الرسم » المطلوب •

ولا أدرى اذا كان لابد لي أن أعود الى موضوع الباشا نفسه ، على أن رسم صورة تقريبية لبغداد لا يمكن أن يتم من دون تكريس عدد من جرات القلم لوصف سيدها الحالى • فقد سبق لي أن أتيت على وصف علي باشا ومظهره الخارجي • أما عقله فليس أكثر جاذبيـة من الوعـاء الذى يحل فيـه • فهو ضعيف الرأى ، واهن العزيمة ، متردد في العمـل ، فظ في قابلياته وشهواته ، أناني جشع • والمقول عنه انه غير ميال في طبيعته الى القسوة أو الظلم ، ولكنه يكره ازعاج نفسه بالاجهاد من أى نوع كان بحيث انه يفضل تعذيب الآخرين من دون رحمة على الخضوع لمثل هذا الازعاج ولو أدى به الامر الى ارتكاب أفظع الجرائم • ولذلك استغـل خدامه نقطة ضعفه هذه ، والطمع الذى يساوره ، في الجور على الناس لانهم مطمئنون بأنه لا يمكن أن يشاجر أحدا يأتي له بالمال ولا يعمل على اقلاق راحته • وهو على ما يقال دمث الاخلاق ، مطلع على شيء غير يسير من الادب التركي ، وقد سمعت من مصدر ثقة أن أبيات الشعر التي ينظمها بالتركية لا بأس بها • لكنه بمجموعه رجل ذو ميول خسيسة ، وغير لائق بالمرة للمنصب العالى الذى يشغله بمسؤوليته الكبيرة [1] •

---

(١) جاء في كتاب لونكريك عن علي رضا باشا « •• وقد أبدى خلال اشغاله في هذه المدة شيئا من حرية الفكر • وكان كرمه مضرب الامثال ، كما كانت سماحته مختفسا قسم كبير منها وراء اعتداله •• يضاف الى ذلك انه كان ذا أخلاق سامية . وله رغبة في عمل الخير زيادة على ميوله الادبية والعلمية • على أنه كان حاكما فاشلا حقا ، فقـد كانت خطته الوحيدة في حكم القبائل أن يحرك قبيلة على اخرى • وكـان كسله وسمنه المفرط يمنعانه عن اجهاد نفسه في العمل •• ولم يك قادرا على ضبط المدن ولا القبائل ، ولا قواته الخاصة غير النظامية •• أما في الامور المالية فقد وجد على عهده العسف في الجباية وفراغ الخزينة في صعيد واحد • وعلى هذا يمكن القول انه لم يفز بالذكر الحسن الا بنجاحه في خلع داود باشا ، وبسخائه في منح الاراضي • وقد تزوج في بغداد ثم نقل الى سورية في ١٨٤٢ • » هذا وقـد تزوج في بغـداد بنتا من بنات المماليك هي سلمى خانم شقيقة والي بغداد الاسبق سليمان باشا الصغير • أما زوجته الاولى التي تركها في حلب فقد كانت كريمة يوسف باشا الصدر الاعظم في أيام السلطان عبدالحميد خان •

وللباشا ولع شديد بالكيمياء القديمة (السيمياء) من بين جميع الصنعات الاخرى ، وهو يصرف على ما يقال مبالغ غير قليلة على الدراويش والقلندرية والمغامرين الذين يدعون المهارة بها • ولو أردنا تصديق الاخبار التي ترددها الافواه نجد أن هذا المال لا يصرف كله عبثا ، لان هناك الآن رجل في هذه المدينة قد نجح بالفعل ، كما يؤكد البعض ، في قلب النحاس الاصفر الى ذهب والرصاص الى فضة • ويمكنكم أن تطمئنوا بأن هذا الخبر كان كافيا ليوقظ فيّ حب الاستطلاع ، فقررت أن أرى إن أمكن هذا الكيميائي أو بعض الناس الذين شاهدوا بأنفسهم هذه العملية على الاقل • فتبين بعد البحث ان التجربة قد أُجريت بحضور الباشا نفسه ورجل ايطالي يدعى المسيو دي ماركي [1] ، كان يشرف في زمن الباشا السابق (أي داود) على المسلح (دار الاسلحة) ودار سك النقود (السكة خانة) معا ، واستمر على ذلك حتى الوقت الحاضر • وهو فوق هذا كله رجل بارع • وقد حصلت منه على قصة هذه التجربة كلها ، وهي اذا لم تؤيد بالتمام جميع ما أُخبرت به في هذا الشأن فانها على الاقل تثبت ان الباشا كان يتعامل مع رجل غير دجال • فقد أعلن هذا الرجل ، وهو عربي ، في الاخير انه على استعداد ليجرب فنه بعد أن ظل عدة شهور يشتغل في مختبره في تحضير أكاسيره ومركباته ، وتسلم كثيرا من المال لمتابعة العمل • واذ كان المسيو دي ماركي مشككا في الموضوع وغير مؤمن بدجل هذا المفن الماهر ، فقد قرر أن يراقب العملية بدقة ليكتشف الادعاء الفارغ ، ويزن بيديه هو نفسه النحاس الاصفر ، الذي جاء به هو أيضا ليقلب الى ذهب ، ويضعه في البودقة • وقد أُجريت العملية في مختبر « السكة خانة » [2] واستعملت أجهزته فيها • وفي أثناء العملية طلب الرجل

(١) يبدو أن هذا الرجل ظل مقيما ببغداد مع أسرته التي لا يزال نسلها موجود فيهـا •

(٢) بدأ الباشوات المحليون بسك النقود ـ بكميات محدودة ـ في « القلعة » منذ ان استعاد السلطان مراد بغداد من الصفويين سنة ١٦٣٨ ، ثم أخذت تسك او تضرب في خان

شيئا قليلا جدا من الزرنيخ الابيض والاصفر ، ولاجل أن يحول المسيو ماركي دون استخدام أية حيلة بعث يجلب هذا المركب من مخزن كان بوسعه أن يعتمد عليه في كونه يبيع أشياء أصلية غير مغشوشة • وقد وضع هو بنفسه حتى الزرنيخ في البودقة ، ولم يتقرب الكيميائي الممتحن منه مطلقا سوى لاضافة كمية قليلة جدا من مسحوق معين أخرجه بملعقـــة صغيرة من احدى العلب • وسكب المسيو دى ماركي بنفسه المعدن المتميع حينما أصبح جاهزا من البودقة وحفظه عنده • فوجـد عندما فحصه ان قسما منه قد استحال الى ذهب بالفعل ، وحينما وزن الكتلة كلها وجدها أثقل قليلا من النحاس الذى كان قد وضعه في البودقة • فاستفسر من الكيميائي العربى كيف يمكنه أن يعلل هذا الفرق في الوزن ، فذكـره هذا في الحال بالزرنيخ المضاف الذى يؤلف بمجوعه نفس المقدار اذا ما أضيف اليه النحاس • وقد أجرى المسيو دى ماركي بعد ذلك التجربة نفسها فوجد النتيجة على مثل ما قال عنها رجل الكيمياء الماهر •

ثم عمد المسيو دى ماركي بعد ذلك الى مفاعلة الكتلة كلها مع ماء الفضة (حامض النتريك) فأذاب ما تبقى من النحاس الاصفر وترك الذهب وكأن لم يمسسه شيء ، وحينما وزن هذا تبين انه يقدر بثلث الكتلة كلها • وعندما ُطلب اليه أن يبين لـَم لم ينقلب النحاس كله الى ذهب أجاب ان العملية كلها عبارة عن عملية تجريبية وهي لابد أن تكون غير تامـة من جميع النواحي ، اى انها كانت على ما أعتقد ثانى تجربة أجراها مع هـذه المواد • وقد ُفحص الذهب و ُأخضع لتأثير حجر الحك (محك الذهب)

من الخانات يقع في سوق (السكة خانة) الكائن تجاه الباب القديمة لخان الأورتمه أو خان مرجان (المتخذ متحفا من المتاحف في الوقت الحاضر) • ومما جاء في كتاب الرحالة فيلكس جونز (١٨٤٦) ان (عقد السكة خانة) من العقود التابعة لمحلة الصفافير • وقـــد ظلت الحكومة مخولة بذلك حتى سنة ١٨٤٥ (١٢٦٢هـ) حين أسست الدولة العثمانية في استانبول (سكةخانة) حديثة ُجلبت آلاتها من انكلترة فصار في مقدورها سك النقود لجميع الولايات التابعة لها • وممن عرف في بغداد من المشرفين عـلى سـك النقود عـدا المسيو دي ماركى احمد أغا الجيبه‌جي ، الذي كان يشغل منصب (سكة أميني) •

في السوق فوجد انه على أحسن ما يكون ، وانه ذهب" يمكن تسويقه •

ولم يكن المسيو ماركي سخيفا بحيث يمكن أن يتواطأ في عمليــة تزييف يمكن أن تصدر من هذا الرجل العربي ، ولذلك أجد نفسي ملزما بتصديق قصته ومعتقدا بها ضمنيا • وقد كان المسيو دي ماركي حذرا في اعطاء رأي ثابت في الموضوع ، وانما أعلن فقط عن عزمه على مراقبــة حركات الرجل وخاصة خلال قيامه باجراء تجربة أكبر من التجـربـة السابقة في خلال الايام القليلة التالية • فأبديت رغبة قوية في الحضور أثناء القيام بأجرائها ، غير ان المحاولة صرف النظر عنها ، لانها لم يكن من الممكن أجراؤها من دون المجازفة باستثارة حسد الباشا في أمر يكــون شديد الحساسية فيه على الاخص • وقد علمت بعد ذلك ان المحاولة قد تمت فكان الاخفاق حليفها ، وطلب الرجل السماح له بالذهاب الى جبال كردستان على ما أعتقد ليجمع منها بعض ما كان يحتاجه من المواد • لكن الباشا رفض أن يسمح له بمغادرة المدينة خوفا من عدم عودته بطبيعــة الحال • فما أغرب هذا الخليط المتكون من الايمان بالشيء وعدم الثقة به في الوقت نفسه !! فالباشا يؤمل ويعتقد اعتقادا جازما بنجاح محــاولات هذا الرجل ، ومع ذلك فهو على تغاضيه عن نفس الاشياء التي يجب أن تفتح له عينيه وتقضي على آماله يتمسك بها برغم ما تدل عليه قدرته في التمييز والحكم على الاشياء • وقد ذهبنا ذات يوم لزيارة الكيميائي المذكور في معمله • فكان رجلا اعتيادي المظهر ميالا الى البدانة ، من دون أن تبدو عليه امارات العبقرية والجرأة في الحديث • وكان عند دخولنا قد أخرج لتوه من الفرن شيئا مسخنا الى حد البياض ، وهو جرعة لامير المناطـق الجنوبية ذات رائحة كريهة • وقد كان الرجل وقتذاك في حالة أشبه بحالة الاعتقال المبجل ، وأني أرى انه اذا لم يعمل في الحال على اعــادة شيء من مال الباشا بشكل سبائك ذهب فما عليه الا أن ينصرف الى البحث عن اكتشاف يجعله منيعا ضد الشنق أو الاعدام ، لان تطاول صبر الباشا

وانتظاره سيؤديان به الى الموت اذا امتد الى أكثر مما امتد اليه حتى الآن •

وقد أخبرنا دي ماركي بأن عدة أشخاص من مثل هذا الرجل قد أقنعتهم سلامة نية الباشا الممزوجة بالطمع الى محاولة هذه العملية • ومن هؤلاء أناس وقعوا في الشرك الذي كانوا قد نصبوه لفخامته ، بينما نجح آخرون في غشه وابتزاز مبالغ غير يسيرة منه • فرثى لسلامة النية الموجودة عنده ، بينما كان يستنكر الضعف المؤدي اليها • وكان من الواضح انه كان يعتقد بأن المغامر الذي كنت أسهب في التحدث عنه لابد أن يظهر دَجَلُه في النهاية ، ويكتشف احتياله ، كذلك •

أما الدراويش والفقراء والقلندرية والمتسولون والمتشردون من جميع الانواع فليسوا قلة في بغداد ــ أنها في الحقيقة موطنهم الملائم • ومع انهم لا يدعون كلهم بقدرتهم على صنع الذهب فانهم يجدون الوسائل المناسبة للتمتع بعيش مريح بكفاية من تصدق المسلمين عليهم واعتقادهم بالخرافة هنا • فهناك عدا الاخوان المتجولين عدة تكيات لهؤلاء الناس هنا ، كما في استانبول ، وهي تتنعم بمقدار غير يسير من الخيرات والهبات • ولا يقوم أعضاء هذه الربط بالاستجداء بصخب وعلانية ، لكنهم لا يردون هبات الميالين الى التصدق من الناس وهداياهم • ويحصلون على المال بوسائل مختلفة ، وخاصة وسيلة القيام بمعجزات مزعومة • فلا يعطون الرقى والتعاويذ ضد المرض والجروح والشرور من جميع الانواع فقط ، وانما يوجد أيضا صنف منهم يزعمون أنهم لا يؤثر فيهم الحديد ولا يمكن حرقهم بالنار • ويجتمع هؤلاء في أيام الجمع حول قبر من قبور الاولياء الذين ينتمون الى صنفهم ويعرضون معجزاتهم على الناس المندهشين الذين يأتون للتفرج على حلقاتهم القدسية • لكنني قبل أن أروي لكم قصة زيارة قمت بها أنا لهؤلاء المتعصبين أراني ميالا الى ان أسجل لغرض تثقيفكم بعض التفصيلات المختصة بدراويش بغداد ، التي اقتبستها من أوراق أحد الاصدقاء حول الموضوع •

فهناك على مايبدو فى بغداد ثلاث طبقات كبيرة من الدراويش : أولا دراويش التكايا الموقوف لهم ، وثانيا المتسولون المتفرقون الذين يمكن أن نسميهم بالمتوطنين ، وثالثا القلندرية أو الاولياء المتجولون .

ويعيش دراويش التكايا من واردات خاصة يحترمها حتى أسوء الحكام . والحقيقة ان بعضهم رجال منصرفون الى الدراسة والتأمل ، وبعضهم الآخر متعصب متحمس ، والعدد الاكبر منهم ينهمك فى الشهوات ويدمن على المسكرات وهؤلاء مجانين غريبو الاطوار . وهم يلبسون فى رأسهم قبعة مخروطية الشكل تصنع من اللباد أو القطن المنسوج وتزين حاشيتها أحيانا بالمرجان أو شغل الابرة المشغول بخيوط ملونة ، كما يلبسون سترة غامقة اللون ويحتذون نعلا خفيفا . ويحملون أحيانا صولجانا من الحديد أو بلطة خاصة ، وأناءا أسود مجوفا يصنع من ثمر بعض النخيل ويعلقونه بسير من الجلد فى أيديهم . وتعلم أجسامهم بعلامات خاصة تدل على طبقة الواحد منهم ومرتبته .

وعلى دروايش التكايا المختلفة أن يجتمعوا مساء كل جمعة بحلقة كبيرة وبين يديهم شيخهم المريد ، فى مكان معرض للمتعبدين العديدين والمتفرجين المستطلعين من المدينة . فتوضع فى الوسط مناقل من الفحم المشعول مع السيوف والخناجر وحربات الحديد الطويلة الحادة المثبتة فى قبضات خشبية سميكة مزودة بعدد كبير من حلق الحديد المتحرك الذى يحدث جلجلة خاصة عند التحريك . ثم ينبرى أخ من اخوان الحلقة الى ترنيم بعض الادوار بنغمة محزنة فى ذكر الله وتمجيده ، وتعابير الهية بعيدة الفهم ، أو القاء مرثاة عن وفاة شهيد من الشهداء ومعاناته ، تصحبه فى ذلك وتسيطر على نغماته نقرات طبلة يقوم بالنقر عليها شخص آخر منها . وبعد أن يخيم السكون والخشوع على كل شىء مدة من الزمن ينهض فى الاخير أخ أو أكثر من الاخوان ببطء ، واذ يأخذ بالاهتزاز

القليل طردا وعكسا يشرع بترديد الكلمات « حق ، حق ، هو ، هو ، هو الحق » ويتأمل بكلمات الذات الالهية في الوقت نفسه • وفي هذه الاثناء تزداد حركاته سرعة واستمرارا فتنقلب الى دوران وتدويم بالتدريج وتصبح شفتاه بفعل حركاته وسرعة ترديده للكلمات مغمورتين بالزبد ، وعيناه مسدودتين جاحظتين ، وتشكل خصل شعره الطويلة شيئا أشبه بالهالة من حول رأسه ، ويزرق من الاجهاد ، فيسقط في النهاية منهكا لا حراك له وهو يسبح في عرقه •

واذ يستفز هذا المنظر اخوانه الآخرين يحذون حذوه في هذا العشق الالهي حتى يهجم المشاهدون الدنيويون ، وقد سيطر عليهم الهياج لحد الجنون ، الى استنشاق النفس والتمتع ببركات شيخ الحلقة • ثم يأخذون السيوف والخناجر والحربات الباردة أو المسخنة فوق النار وبعربدة وحركات تشبه عربدة السكارى وحركاتهم يضربون أنفسهم بالاسلحة ، أو يضعون الحدائد المشتعلة فوق وجوههم ، وهم يقدمون التضرعات والابتهالات لولي من الاولياء أو شهيد من الشهداء ، أو يصرخون بكلمة هو ! وأخيرا يسقطون على الارض ومنهم من هو جريح مضرج بالدماء ، أو سالم من الاذى لكنه يتمرغ على الارض كالمأخوذ ، أو هامد الجثة لا حراك فيه • والمعروف ان الذي يجرح في معركة المكر والخداع هذه مع الحماسة والتورع يكون قد أدى حسابا عن ذنوب قديمة لم يكفر عنها من قبل ، بينما يخرج الطاهر منها سالما من دون أذى تحميه بركات الشيخ وأنفاسه • وقد تنشأ حوادث خطيرة عن مثل هذه الاستعراضات المؤلمة ، التي تعاد برغبة أي سيد مغرض من السادة في أي وقت يختاره لتجربة أتباعه والوقوف على مقدار اخلاصهم وورعهم ، أو لنشر نفوذه وسلطته الروحية •

ويندر الاستجداء بين هذه الطبقة من الدراويش ، ولكنهم حينما

يتنزلون لالتماس الصدقة والاحسان يرددون كلمة « حق » أو « هو » بنغمة عميقة وصوت جهوري طنان ، وقليل من الناس من يرفض مثل هذا الطلب المتصف بالقدسية لان المفروض ان مثل هذا الرفض لابد أن تعقبه اصابة أحد أفراد الاسرة بمصيبة أو نكبة • وهم وحدهم يستطيعون الدخول الى أى ديوان أو بيت من دون أن يحاذروا من شيء وبصرف النظر عن أى عائق ، ولهذا السبب يكون هؤلاء قادرين على أخذ ما يريدون وعلى استحصال المعلومات التي تبدو من قبيل المعجزة في بعض الاحيان • وقد شذ بعض المنتمين لهذه الطبقة شذوذا كليا بدافع من خيالهم البعيد ، وانتحالهم المتكرر للقيام بالاعمال الخارقة ، بحيث صاروا ينتحلون الالوهية نفسها ويرددون على الدوام « انا الحق » • لكن هذه القحة ، على استعصاء أمرها ، كانت السلطات الزمنية في الاسلام تعاقب عليها بالموت على الدوام•

والملاحظ ان هذه النقاط تشمل أنواعا عدة من دراويش التكايا — أى الدراويش الراقصون والدوامون الذين يطلق عليهم أحيانا «الدراويش المولولون » في استانبول حيث يوجد منهم عدد غير يسير كذلك ، والدراويش الذين يدعون بعدم تأثير النار فيهم ممن ألمعت اليهم آنفا •

أما الصنف الثاني من الدراويش الذين أطلق عليهم اسم المتوطنين — أى المنتشرين بين الناس بكثرة فهم موجودون في معظم المدن الشرقية • وهؤلاء يظهرون بمختلف المظاهر والالبسة التي تناسب زيهم ، وأحوالهم، وطلاقتهم في الكلام ، وحركاتهم التي تتطلبها الاغراض المختلفة التي يحصلون على الصدقة والاحسان بوساطتها • ولذلك يختلف مظهرهم ، والهيئة التي يظهرون بها ، اختلافا كبيرا على قدر الامكان • فقد يكون أحدهم مثلا رجلا أنيقا نحيل الجسم ، ذا بشرة سمراء داكنة ، ولحية سوداء ، وشاربين مشذبين بترتيب ولطف ، يلبس في رأسه عمة قطنية بيضاء ، وسترة من الوبر البني اللون ، حافي القدمين ، يتوكأ على عكاز في يده ، وله عينان لا تريان النور لكنهما غائرتان في وجه لا يزال

معبرا ، يتقدم بطلعة منتصبة ومشية حذرة ، وبصوت عذب يرتل قائلا « أنتم أيها المدينون لله ! أعطوني من نعمته يفك لكم ديونكم ! أنتم أيها المثقلون بالغم والكدر أدخلوا السرور على عبده يخفف الله من أحزانكم. » فيخلط مستمعوه صدقاتهم بالهزء والسخرية ، ويتسلمها الدرويش بصبر وتحمل ويعود بها الى زاويته الخاصة في المسجد التي تعد مكانه ومأواه الذي يجري فيه تأملاته ويؤدي صلواته ، ويستعيد استعمال عينيه حتى تستدعي الضرورة من جديد أن يستدر عطف المسلمين عليه .

وقد يكون الثاني رجلا بدينا قصير القامة مرتب الهندام ، له لحية كثة قصيرة قد تطرق الشيب اليها ، ووجه ممتلىء ، وعينان صغيرتان رماديتان زائغتان يحجبهما حاجبان كثان ، وفم بشفتين ضخمتين ، وأنياب كبيرة عارية تصلح لاكل الاشياء جميعها . ويرتدي ملابس قطنية بيضاء تغطيها عباءة عربية من الصوف الابيض ، فيقف على دار يبدو عليها أثر النعمة والثراء فينفخ من رئتيه العميقتين أقوالا في مدح النبي تختلط بوصايا تأمر بالبر والاحسان والتصدق على العاري والجائع والمحتاج . فلا يخطىء المرمى ، اذ يخف الى الباب اثنان من العبيد السود ، ذكر وانثى ، لغرضين مختلفين ـ أولهما لطرد المتطفل وأبعاده عن الباب وثانيهما لتقديم المساعدة اللازمة اليه ، فيختلط صخب العبدين المتنازعين بولولة المتسول ، لكن الانثى سرعان ما تتغلب فتنهال على الشحاذ القوي صدقات أهل البيت .

وقد يكون الثالث شخصا نحيلا غامضا ، ذا أطراف مرتخية قليلة العضلات ـ أي عبارة عن هيكل كامل يدل على مقدار تقرب الاحياء من الموتى . وبهذه الدرجة من الهزال ربما يكون عديم الاسنان والشعر ، كليل العينين ، يكتسي مجموعة من الاسمال البالية ، ولا يحمل عكازا تتوكأ عليه أطرافه المرتجفة فيسحب هيكله نصف الحي من باب الى اخرى . وحينما يتمدد على الارض يعرض مناظر من جسمه تستدر الرحمة والعطف عليه . وبعد ان يرق له الناس فيتصدقون عليه يُحمل

فى زنبيل ويبعث الى مخبأه ليعود فى اليوم الثانى الى وضعــه السابق ، فيستدر عطف الناس من جديد .

ويتألف الصنف الثالث ، أى صنف القلندرية ، بوجه عام من آخبر الدراويش وأنشطهم ، وأصغرهم سنا . وهؤلاء هم المشتغلون بالكيميـاء القديمة والمنجمون والعرافون والمنشقون فى عالم الصعاليك . ويكـون توفيق هؤلاءوجدهم فى تبدل مستمر ، لكن حضور ذهنهم يكون مساويا على الدوام للحالات المفاجئة التى يجدون أنفسهم قد تورطت فيها . وهم بوجه عام صوفيون فى دياناتهم ، أصحاب مرونة فى سلوكهم وتصرفهم ، سريعو الادراك ، حاضرو البديهة ، شديدو العزم ، أقوياء البنية . وقـد تعودوا أن يلقوا على أكتافهم بجلود الاسود أو الفهود أو الوعول غـير المدبوغة . ويسمحون لخصل شعرهـم بأن تنمـو حسـب الارادة ، أو يضفرونها بأشكال مختلفة غريبة . وقلما يوجدون وهم من دون سلاح ، واذ يكونوا معتمدين دائما على استعداد المسلمين المتعصبين للاعتقاد بالاشياء الخارقة، فهم دوما مزودون تزويدا حسنا بالوسائل التى يستخدمونها فى صنع بعض الظاهرات الكيميائية التى تلفت النظر ، وبمعاجين العشق وأشربة المحبة والرقى والتعاويذ ومختلف وسائل فتح البخت وعلم الغيب لتساعد انتحالهم للمهارة فى شؤون الكهانة والعرافة ،

ويقدم لنا تأريخ السيد مأمون المصطفى ، وهو رجل شاب ولد فى واد من أودية آشور ، نموذجا حسنا لروحية هذه الطبقة من الدراويش. فهو حينما كان يمر فى دور الدراسة والتعلم ليتبوء مكانا مناسبا فى عالم الملالي استولت عليه الرغبة فى السفر والتطويح فى أرض الله الواسعة ، فترك بيته وأهله برغم توسلاتهم فى العدول عن ذلك . وقد كان شـابا طويل القامة قوى البنية جميل المحيا ، ذا بشرة بيضـاء وعيـون سـود ، فشرع فى رحلاته مؤملا نفسه بالآمال المعسولة والمستقبل المملوء بالمسرات والعجائب . وبعد تجوالات طويلة أجراها بين المغاربة ، سحرة العـــالم

الاسلامى المعروفين ، وبينما كان فى طريقه الى بلاد الجوغى والبراهمين فى الهند ، دخل بغداد فنزل فى المستنصرية ، وهناك حضر المحاضرات الدينية التى كانت تلقى بوجه خاص على طلاب المذاهب المختلفة ، على أن عقله ظل غير مكتف وذهنه غير مقتنع • وقد شعر فى قرارة نفسه بأنه متفوق على من كان يحيط به من الناس ، واخيرا تراجع وهو قلق لا هدف له الى الاعتكاف فى مسجد مجاور كان يقضى فيه أياما عديدة متوالية من دون أن يتذوق طعم الاكل أو يتناول شيئا منه •

فحاول امام المسجد ، وهو متأثر بهذا التدين الفريد ، أن يحثه على الخروج والسعى وراء القوت الذى يقوم به أوده • لكن نتيجة المقابلة أدت به الى الاعتقاد بأنه أمام ولي من أولياء الله ، وأعلن نفسه من أتباع هذا الناسك المتعبد الذى عمل على تزويده بالقوت والطعام ، واجتذاب الناس اليه •

وقد دبر مأمون أمر الحفاظ على خداع الناس بطبيعة وجوده المحاط بالمعجزات ، بتناول شيء قليل جدا من الذخائر الوفيرة التى صارت تتيسر له ، فكانت شهرته تزداد يوما بعد يوم • وأخذ النساء العقيمات يتوسلن ببركاته وتعاويذه ، وصار العميان يقصدونه ليرد لهم بصرهم ، والعرج ليعيد اليهم قابلية استعمالهم أطرافهم • كما أخذ الكيميائى الفاشل يستجدي عونه فى الحصول على أكسير فعال مفيد ، وراحت النساء المهجورات يقبلن أقدامه ليزودهن بأشربة الحب الجذابة ، وصار الراكضون وراء الخوارق العجيبة ينتظرون منه المعجزات التى تعزى الى السحر عادة ، كالركوب فى الهواء ، والقدرة على كشف الاشياء غير المرئية ، وتنفس النار ، وقلب الانسان الى طير أو حيوان من ذوات الاربع ، والتراب الى رمل من الذهب، والحصى الى نقود • لكن أغرب جزء من عملية الخداع كلها كان الاعتقاد الذى يساور كل واحد من اصحاب المطالب هذه بأن ما كان يريده هو

نفسه قد حصل بالفعل ، فضاعت شكوك القلة المرتابة في لجج الكثرة الكاثرة من المصدقين •

وبينما كانت الامور تسير على هذه الحالة جاء أحد التجار يطلب مساعدة مأمون في الكشف عن سرقة أموال تعود له ومعرفة اللص الفاعل • فكان شيء من الخشية المتواضعة التي ابداها مأمون كافيا لاقناع التاجر بقدرة الرجل القديس على ذلك ، وبالتعهد بتقديم هدايا كبيرة لمساعدته في توسلاته الاصلية • لكن القديس ظل حييا متمنعا ، فازدادت معروضات التاجر حتى انتهت بتسليم الدار والمؤسسة والطفل الى الرجل الذي يسلك مثل هذه القدسية والحكمة الاصيلة • وبعد أن أقام مأمون في مسكن التاجر واستحكم فيه ، شرع باجراء تحقيقات دقيقة في ظروف الاشخاص الذين يمكن ان تكون لهم علاقة بالسرقة ، وأشار على التاجر بأن يجمع في يوم معين جميع خدمه ليختبر فيهم تأثير بعض الرقى والتعزيمات التي خرج بعد ذلك لاستحضارها •

وبعد أن عزل نفسه عن الاسرة بأجمعها خلال الفترة التي أعقبت ذلك ظهر في الوقت المعين أمام الخدم الذين قرر اجراء تعزيماته عليهم ، وهو يرتدي ملابس من الحرير الاسود وينثر خصل شعره الفاحم الاشعث بحيث ينحجب وجهه وراءها ، ويحمل في احدى يديه مبخرة ممتلئة بالنار وفي الاخرى كيسا صغيرا أسود يحتوي على التمائم والعقاقير • ثم أخذ شيئا قليلا من العقاقير ورماه بصمت وهدوء فوق النار في المبخرة التي كان يتصاعد منها دخان كثيف ورائحة نفاذة للغاية، وبتأثير هذه الرائحة القوية والتهيج الذي كان يوحيه المنظر العام في نفس الحضار ، الذين كانوا جالسين في ذلك الوقت ، نهضوا كلهم مرة واحدة وهم يرددون « الله ، الله » • وقد انحنى الى الامام حتى التاجر المسروق ، الذي تصور المصير الرهيب الذي كان من المنتظر ان يصيب اللص المجهول ، وكأنه يريد ان يوقف ان أمكن سير التعزيمة وتقدمها • ولكن الرهبة أخرسته وتمادى السحار في عمله •

ثم أخذ من الكيس عدة حبيبات داكنة اللون وصار يعرضها للرائحة التى كانت تتصاعد من المبخرة ، وقد قرأ بلهجة غائرة الابتهال والدعاء التالى : « الهى يا رب العالمين أجمع ، يا مدبر الطبيعة والاكوان الذى يخترق عبيره المادة كلها أمنحنى الان شيئا من طاقتك وقدرتك . » وبهذه الكلمات تقدم نحو الاشخاص المشتبه بهم الذين أصبحوا فى هذه المرحلة فريسة لعاطفة جامحة . وقد كانت الاعراض البادية على كل منهم تختلف اختلافا بينا ، لكنها كانت تلفت النظر . فقد ظل أحدهم واقفا بانتصاب تام ، لكن ذراعيه المتيبستين الملتصقتين بتشنج الى جنبيه ، وفمه المغلق المزموم بشدة ، وعينيه الجامدتين ، وجلده الناشف ، والدائرة الزرقاء المحيطة بشفتيه المضغوطتين اللتين لا لون لهما ، كانت كلها تدل على نزعه العقلى المرير . وكان الآخر يتلوى كالحية ، وتتحرك كل عضلة فيه بتشنج غير يسير ، بينما كانت تتساقط قطرات العرق من جسمه . وكان كل طرف ونهاية فى جسم الثالث يتحرك حركة غير مسيطر عليها ، فكانت شفتاه تتحركان بحركة لا أرادية وعضلات جلدة رأسه تتلوى كأنها كانت تسحب بعنف . أما الرابع فقد خر ساقطا على الارض والزبد يملأ فمه ، وراح يتمرغ بحركات مخيفة ، ويبذل جهودا غير مثمرة على ما كان يبدو للتكلم بوضوح .

وقد كان من شأن النزع الذى أصيب به الفاعلون ، والشعور المسيطر على المشاهدين الآخرين ، ان ينذر مأموناً بأن ينهي المشهد ويختمه. ولذلك أخذ التاجر جانبا وقال له « ألق حجابا محسنا على الجريمة التى ثبت وقوعها بمثل هذا الوضوح وعوقب مقترفوها بهذه الشدة . ودع كل رجل يرمي فى منتصف الليل ملء حجر واحد من التراب فى زاوية باحة الدار تحت النجم القطبى ، وعند طلوع الشمس أبحث هناك عن المال المسروق منك » .

ومن المحتمل ان يكون ذلك البحث عن المال قد اقترن بالنجاح ،

لان شهرة الولي القديس ، والاعتقاد بقدرة تعزيماته وتعاويذه ، قد ازدادت ازديادا عظيما بحيث ان الرجـــال المرموقين فى حكومة الولاية كانوا فى عداد أتباعه المخلصين • وصارت أسرار السيمياء ، والتعاويذ ضد الجروح أو التعرض للكوارث والنكبات ، أو خسارة العطف الملكى أو وظيفة من الوظائف ، تطلب منه بشوق وحماسة مـــع الثقـة التامة بتأثيرها وشدة مفعولها ، وكانت تقدم له مكافآت سخية من أناس آخـرين للاشتراك فى مثل هذا النوع من القدرة والسيطرة • ولكن ذلك لم يكن من شأن هـذا الولي المكار ، فقد كان يصرح ان قدرته هذه ليست من النوع الذى يمكن البوح بأسرارها ولا يمكن ان ينالها كل أحد الا الذين تشملهم العنـــاية الالهية بعطفها وتوفيقها • على ان مثل هذا الاعتذار والتملص لم يكن مقنعا للجميع ، ولذلك صار بعض الناس بدافع من حسدهم وخيبة أملهم يراقبون أعماله عن كثب ويتسقطون حركاته وسكناته • ومن سوء حظه هـو ان يجعله نجاحه المطرد على جانب أكبر من الجرأة والتجاسر ، فأدى به ذلك الى ان يمارس خدعه وأحابيله بأقل ما يمكن من الحذر • وسرعان ما ازداد الشك وكثرت الريبة ، وانكشفت ظروف كانت نتيجتها شؤما على نفسـه وشخصيته • وأدى به تعطشه الى الربح والحصول كذلك ، الى ان يقترف اعمالا تنطوى على النصب والاحتيال لابتزاز الاموال بمقياس واسع ، يساعده في ذلك المجال المتسع الذى هيأته له الثقة المتناهية التى كان يضعها فيـــه مريدوه والمخدوعون به • لكن سحره قد بطـــل وقل تأثيره ، وانكشفت أعماله فى النهاية ، فأعقب ذلك بسرعة فائقة الخزى والعـــار والعقـوبة والدمار •

وهنا أكتفي بهذا المقدار مما كتبه صديقى فى مذكراته وأعـود الى ملاحظاتى أنا • فقد أشرت فى السابق الى الزيارة التى قمت بها مع بعض الاصدقاء في المقيمية الى مرقد يغشاه الدراويش الذين يدعون بالمناعـــة الخاصة ضد الأذى من أى نوع كان •

فبعد أن اجتمع عدد من الدراويش ، وعدد لا بأس به من الحضار والمشاهدين جلس الدراويش بشكل دائرى وظلوا هادئين ردحا من الزمن كأنهم يغطون فى تأمل عميق • واذ ذاك قام أحدهم فتعرّى من ملابسه الى حد المحزم ، ثم ذهب الى ما يقرب من القبر حيث كانت تحفظ السيوف والخناجر والحراب ، وأخذ خنجرين منها فراح يعرض نفسه ذهابا وأيابا فى داخل الفسحة الصغيرة المحاطة بأخوانه وجمهور المتفرجين • وقد كانت حركاته بادىء ذى بدء حركات بطيئة تكاد تدل على انه كان منغمسا فى التأمل ، لكنه أخذ يسرع الخطى والحركات بعد قليل من الوقت ويلوّح بأسلحته حتى استحالت بالتدريج الى قفزات ونطات ، وظل الخنجران يلوح بهما بسرعة فائقة تكاد تضلل النظر • على ان المتفرج كان بوسعه حينما ينظر اليهما ان يلاحظ بأنهما كانا فى كل حركة من الحركات يرفعان وينزلان فى جسمه هو كما لو كان يقصد بها ان تجرح رأسه وكتفيه وبطنه • لكن الخنجرين كانا معقوفين بحيث ان رأسيهما لم يكونا يضربان الجسم مباشرة ، وكان هو يحرك الخنجرين بخفة ومهارة بحيث يضرب جوانبه بهما من دون ان ينزلهما على المكان الذى يوجهان اليه مباشرة • يضاف الى ذلك ان الخنجرين لم يفحصهما أحد ، وهما لابد ان يكونا غير حادين على الوجه المطلوب اعتياديا • على ان الجسم مع جميع هذه الاحتياطات لابد أن يصاب ببعض الجروح عرضا أو بالتقصد ، وحينما أمعنت النظر وجدت أحد هؤلاء الدراويش ينزف دما من ظاهر بطنه •

ثم أخذ سيفا ، أو سيفين، بعد ذلك فأعاد نفس الحركات الجنونية وهو يتصنع ضرب نفسه بهما فى مختلف الاماكن من جسمه • وعمد علاوة على ذلك الى وضع حد السيف على بطنه ثم سمح لدرويش آخر ان يتقدم من خلفه فيمسك السيف من القبضة والرأس بكلتا يديه اللتين كانتا تلتفان حول محزمه • وبعد ان ضغط على السيف وهو بهذه الوضعية وشد عليه بقوة رفعه قليلا الى أعلى وأخذ يدور به مرات عديدة بحيث كانت قوته

العمركزية كلها تضغط ببطنه على مشفر السيف نفسه • ويزعم كذلك ان الدرويش في بعض الاحيان يستلقي على الارض فيوضع حد السيف على بطنه وهو في تلك الحالة ، ثم يأتي أحد أخوانه فيدوس على ظهر السيف بكل قوته ، ومع ذلك لا يؤدي كل هذا الى حصول أي جرح في جسمه • لكنني لم أرَ هذا بنفسي • ولم أرهم كذلك يغرزون حربات الحديد ، الساخنة أو الباردة ، في عيونهم وسائر المواضع الرقيقة في أجسامهم من دون أن يصابوا بأي نوع من الاذى على ما يظهر ، ولذلك لا يسعني ان أقول كيف يجري تدبير هذا العمل • كما أنني لم أرَ مطلقا معجزات المناعة ضد النار ، مثل مسك الحراب حينما تكون ساخنة الى حد الاحمرار وحكها بوجوههم وأجسامهم • لكنني شاهدت ما يكفي ليحملني على الاعتقاد بأن القضية كلها لم تكن سوى مهزلة سليطة تعد لتؤثر في جمهور من المشاهدين حسن النية سهل الانخداع • وان العار الذي يصيب من يظهر بمظهر غير المعتقد لابد أن يعمل على حماية هؤلاء الغشاشين المتطفلين على القدسية من أخطار الشك بهم والتدقيق الجريء الذي قد يتعرضون له •

وقد زرنا في فرصة أخرى مرقد ولي مشهور من أولياء السنة ، يسمى الشيخ عبد القادر ، الذي شيد تخليدا له هنا ضريح وجامع من أفخم الاضرحة والجوامع الموجودة في هذه الجهات • ويتقاطر الزوار على تربته هذه من الهند وافغانستان وبخارى وبلاد التركستان • ولم يكن حصولنا على الرخصة اللازمة لذلك يخلو من صعوبة ، أو استجواب على الاقل ، وخاصة حينما طلبنا مشاهدة داخلية هذا الصرح المقدس الذي يشرف عليه موظف ديني يسمى « النقيب » ، ويعتقد بأنه سليل مباشر من سلالة القديس الأصلي نفسه • لأن الوضع هنا كان على جانب أكبر من الاهمية قبل ان يحدث الغرق الكبير ويتبوء علي باشا منصب الباشوية • فقد كانت هذه المحلة قبل وقوع الحوادث المشار اليها يسكنها جميع السفلة والمتشردين الموجودين في البلد • اذ كان الناس الذين يشعرون بخطر الوقوع حتى

في قبضة العدالة المرتخية في بغداد ، يحتمون في ظل هذا الولي الكبير • ولذلك كان يسكن العثور هنا على جميع اللصوص والمحتالين ، وجميع القتلة و « الباطلجية » • فكانت « ألزاشية[1] » بغداد هذه ، وسكانها المختلطون ، يمارس فيها صديقنا النقيب بوجه عام شيئا لا بأس به من النفوذ والسيطرة ، كما كان السكان يكافئونه على حمايته لهم بمقدار بسيط من الطاعة ، وبحماية تخوم ممتلكاته ضد الفضوليين والمتطفلين • وكان قليل من الپاشوات في الحقيقة من يجرأ على التدخل في ترتيبات عش الزعانف والاوباش هذا وحاميهم الديني ، أو يقدم على سوق الضباط أو الجنود ضدهم • وحتى داود پاشا نفسه لم يستطع فرض ارادته على المحلة مع أنه برهن في مرات عديدة على كونه رجلا لا يستهان به فعزل النقيب وضربها بالمدافع احيانا للقضاء على روحية الشغب المسيطرة فيها • كما لم يجد من المناسب ان يثير روحية التعصب الديني الى حد بعيد باتخاذ اجراءات ذات طابع متطرف في الشدة • والخلاصة ، انه لم يكن هنالك من يجرأ على الدخول الى المحلة الا اولئك الذين يستطيعون جعل « الاشقيائية » المقيمين فيها يرحبون به • اما بالنسبة لنا نحن الذين كنا عبارة عن لفيف من الكفار فقد كان لابد لنا ان نتقدم ضد قطيع من الثيران الهائجة لو أردنا أن نقوم بزيارتنا هذه في ذلك العهد والزمن •

اما المستر ريچ[2] فالحقيقة انه لم يقم بزيارة النقيب فقط بل سمح له ايضا بأن يدخل المقام ويزوره • لكن طريقه الى ذلك كانت قد ذللت صعوباته بالهدايا الثمينة التي كان يقدمها الى ذلك الرجل المرموق • وقد طمنا نحن بأنه لم يدخل اليه منذ ذلك الوقت سوى جماعة واحدة من

---

(١) Alsatia ، الظاهر انها منطقة كان يلجأ اليها الاشرار في لندن على ذلك العهد •

(٢) Claudius Rich القنصل البريطاني المشهور الذي اشغل مقيمية بغداد في ١٨٠٨ ــ ١٨٢١ ، وتجول في شمال العراق خلال مدة وجوده وزار بابل فكتب عن ذلك رحلته المشهورة • وقد انتهت أيامه ببغداد بالنزاع الذي نشب بينه وبين داود باشا في ١٨٢٠ ــ ١٨٢١ •

الافرنج • لكن ذلك المشهد قد تبدل اليوم الى حد كبير ـ فقد أتى الطاعون على جميع السكان الأوباش فى هذه المحلة ، وأثر الغرق فى كل بيت من بيوتها تقريبا عدا المرقـــد ، وملحقاتها المباشرة ، الذى ازدادت شهرته وقدسيته بمناعته هذه التى تُعزى بلا شك الى عمــق الأسس التى يستند عليها ومتانتها ـ اذ لم يبق من المحلة سوى جدران متهدمة وبضعة بيــوت جديدة شيدت بعد النكبة • ولم يعد يوجد أحد من المدافعين الشقاة الذين كانوا يدافعون عنها ، ولذلك تجدها اليوم مفتوحـــة لكل من يرغب فى زيارتها •

وقد كنا نحن الجماعة الثالثة التى أبدت رغبتها فى مشاهدة المكان ، فطالب النقيب فى بادىء الامر بالهدايا التى أثبت لنا أنه قد تسلمها من المستر ريج • على انني حينما أخبرته بأننا لم نكن سوى سياح بسيطين لم نكن نعلم باننا يجب أن ندفع مثل هذه الاجور الباهضة عن الزيارة ، برغـــم رغبتنا فى أشباع حب الاستطلاع الذى يساورنا ، أجابنا بجواب لطيف ، فذهبنا اليه • وقد استقبلنا برقة المتفضل علينا فى غرفة صغيرة حقيرة كانت جدرانها مبنية من الطابوق غير المبيض • واذا كان هذا يُعزى الى الظهور بمظهر متواضع فان ملابسه الشخصية لم تكن تؤيد ذلك • لأنه كان يرتدى ألبسة حريرية فاخرة وفرواً ثمينا ، وكان يضع فوق رأسه عمامة بديعــة من الشال الكشميرى ـ التى تكاد لا تتفق مع المظهـــر الذى يظهـر به الدراويش • غير أن الاولياء والقديسين فى هذه الايام يتمتعون بامتيازات غير يسيرة ، ويقال ان هذا الرجل بالذات يتمتع بثراء فاحش • وقد كان حديثه متحفظا نوعا ما ، فأظهر لنا ما يعبر عن نكران للذات من العواطف التى لم تكن بالتأكيد خارجة من القلب لأنه فى قـــرارة نفســه كان من الخارجين المشهورين على القانون ، وخاصة للمشروبات القوية التى كان يضمر اعجابا شديدا بها • فانني أعتقد فى الحقيقة ان هــــذه المحلة كانت فى أيام عزها تستهلك مقدارا من الخمر والعرق يزيد على ما كان يستهلك منهمـا

في المدينة كلها • وكان النقيب شخصيا رجلا جسيما ، طويل القامة ، أبيض البشرة ، له أنف أقنى وعينان زرقاوان كبيرتان ، وشكل رقيق الشمائل •

وبعد تقديم الشطب للتدخين وتناول القهوة ، التي لابد ان تقدم في كل زيارة تركية ، توجهنا الى المرقد والجامع اللذين كانا يستحقان تحمل الأزعاج والمشقة من أجلهما • اذ يوجد القبر في الداخل تحت قبة في جناح مثمن الجوانب (أو مربع) ، مزين كالمعتاد بالآجر القاشاني ، الذي كتبت عليه آيات من القرآن الكريم ، ومفروش فرشا لا بأس به بالسجاد • ويقوم من فوقه سرادق من الحرير الاخضر ، كما تحيط به شبابيك عالية من الفضة الصلبة • والغريب في الأمر أن هذه الشبابيك كانت هدية من أحد اليهود لهذا المرقد • وقد كان هذا الشخص[1] صرافا لأحد الباشوات ، وفي أحد الايام اصطحبه سيده في زيارة تعبدية لهذا المرقد فأخبر هناك بأن من عادة الغرباء ان يقدموا هدية من الهدايا في أثناء الزيارة ، وسئل عن الشيء الذي كان مستعدا لتقديمه • فأجاب يقول « ان العادة اذا كانت كذلك فلا بد لي ان أتقيد بها بطبيعة الحال • دعوني أفكر قليلا ، ان هذه الشبابيك مصنوعة من النحاس في الوقت الحاضر ، نعم انني مستعد للصرف على استبدالها بالفضة • » فقوبل سخاء اليهودي بالترحيب الكثير ، وربما لم يخسر كثيرا في النهاية على كل حال •

اما الجامع فهو بناية كبيرة جدا تشغل قسما غير يسير منها شرفات ومصليات جانبية ، على انه يوجد في وسطه تحت القبة مباشرة فسحة يشغلها جناح واسع عال جدا • وهذه الغرفة ، المربعة التي يتراوح طول الضلع

---

(١) ربما كان هذا الصراف اليهودي اسحق الذي كان مقربا عند داود باشا ومن مشاوريه الخاصين على ما تقول بعض الروايات ، حتى انه استشاره في قضية مقتل صادق أفندي القبوجي المار ذكره في هذه الرحلة • أو قد يكون الخوجة يعقوب الصراف اليهودي الذي كان مقربا عند سليمان باشا الكبير الذي حكم قبل داود بمدة طويلة ، أي في أواخر القرن الثامن عشر ، وعلى كل فنحن لا نعلم مقدار الصحة في هذا الخبر •

الواحد منهـا بين السبعين والثمانين قـدما ، تضاء اضاءة حسنة بشبابيك موجودة فى أعلاه ، ومجهزة من أجل الليل بعدد من المصابيح المدلاة من السقف • وقد زين القسم الاسفل من الجدران الجانبية والمكتب ، او مكان القراءة ، بالآجر القاشانى وفرش فرشا بديعا بالسجاد بحيث يبدو الوضـع العام فيه وكأنه غرفة استقبال مريحة وليس محل عبادة عار عن كل شيء كما هى العادة فى كثير من الاحيان • والمقول ان هـذا الجامع يمكن ان يتسع لثلاثة آلاف شخص فى وقت واحد فى أثناء الصلوة • ويحاط الجامع بمربع من الاجنحة التى تحتوى على حجر تشبه حجر الخانات ، وهـذه يمكن ان يسكن فيها الزوار القادمون من مختلف البـلاد ويطعمون من واردات المؤسسة التى يقال انها كثيرة جدا • وقد فتشت بين الهنود الذين كانوا هنا على أناس من جهات الهنـد التى أعرفها ، وخاصة من دلهى ، لكننى لم أجد غير رجل واحد فقط كان قد ترك البلاد منذ أيام أوكترلونى •

وقد قادتنا جولة أخرى من جولاتنا فى المدينة الى ارتقـاء المنـارة القديمة التى ألمع اليها بكنغهام فى رحلته ، فشاهدنا من قمتها منظرا عـاما لسطوح البيوت فى بغداد وبعض الاسواق القريبة منا ، التى كانت مكتظـة بالناس • غير أنه لما كان مثل هذا المنظر العام فى بلدة شرقية لا يمكن أن يكون طريفا جدا ، عدا فى الصباح الباكر أحيانا ، فاننا لم نبق كثيرا فوق القمة • فذهبنا من هناك الى دار رجـل من رجال الدين الفرنسيين ، وهو القسيس العام لجميع الكاثوليك الموجودين فى هـذا الجزء من العالم • والحقيقة ان طائفته هنا صغيرة ، لا تتجاوز فى عددها الالف نسمة فى بغداد من جميع الانواع والاعمار • وليس من المحتمل على ما يظهر ان يحصـل تحسن فى ظروف وأحوال كنيسة روما فى الشرق ، حيث انه يقول انـه ليس هناك من بين الاديرة الخمسة الموجودة فى اصفهان سوى دير واحد لم يتهدم ، وهذا على ما اعتقد يشغله خادمان فقط • وقد كان فى الكنيسـة هنا ، وهى بناية واهية جدا ، شيء واحد فقط يستحق المشاهـدة وهـو

صورة كان قد جيء بها قبل مدة طويلة من البصرة ، وهي جميلة جدا على ما أرى • فهي تمثل العذراء وطفلا واقفا وفي يده بعض الازهار أو طـير من الطيور كما أظن • وقد علمت ان الهولانديين جاءوا بها الى البصرة قبل مئة سنة تقريبا •

وكان صديقنا القس على درجة كافية من اللطف ، لكنه كان كثـير الكلام والتحسر عـلى نفسه لأنه بقي مدة طويلة في هذه البلاد المتوحشة ، التي لا يعمل فيها رئيسا لكنيسة روما فحسب ، وانما يتولى أيضا وكالة البابا والحكومة الفرنسية كذلك • لكن هذه الجهات كلها لا تدفع له شيئا كافيـا من المال لأنه يضطر لأعاشة نفسه بوسائل أخرى • ومن أجل هذا تراه يتشدد مع أفراد طائفته ، ولا يخرج أحـــد من الاعتراف دون أن يدفع شيئا غير يسير من المال لهذا الوكيل الارضي • وهناك أسرة من الأسر جعل مكانها حرجا في هذا العالم لكونه يأبى السماح لرئيسها الذي مات مؤخرا بالخروج من سجن المطهر ما لم يدفعوا له مبلغا محترما من المال ـ أنه يقول ان الرجل كان كثير الذنوب ، وان ضميره لا يطاوعه في اطـلاق سراح روحه المسكينة من دون تعويض أو ترضية فريدة في بابها •

٩

محاصرة عنزة للمدينة ـ الحالة في العتبات ـ اسبابهـا ـ تجـاوزات اليرماز ـ وفاة شاه ايران ـ النزاع مع عقيل ـ تاريخ القبيلة ـ توطنهم في بغداد ـ طلب الباشا اليهم مغادرة بغداد ـ رفضهم لذلك ـ عصيان القبيلة وتجمعها ـ قطع الجسر وبداية المعركة ـ اخبار مختلفة ـ استخدام زورق المنيمية ـ عبوره ـ انزال الجند ـ هجوم على الجسر ـ النهب والهرج ـ شائعات واخبار ـ السلب والنهب ـ عقيل تغادر بغداد ـ خسائر الجيش ـ فظاعات الجنـد •

الاربعاء : ٢٨ تشرين الثانى ١٨٣٤

ان الدور الذى لعبه صفوك وقبيلته جريا من قبل تقوم بدور مثله الآن قبيلة عنزة • فقد كانت بغداد منـــذ ان وصلنا اليها فى حالة حصار فعلي • اذ لم يكن بوسع أى أحد أن يخرج الى مسافة مهما كانت قريبـة من الاسوار من دون ان يتعرض الى السلب على أغلب الاحتمال ، ولا سيما فى الجانب الغربى من النهر • وقد كنت أتوق للذهاب الى عقرقوف[1] ، موقع الخرائب الاثرية المعروف ، المعاصر لخرائب بابل والذى يعتقـد الكولونيل تايلور انه موقع أكد الوارد ذكرها فى الكتاب المقـدس • لكن اصدقاءنا رجال عنزة قد جعلوه مركزا لتجمعهم ، فلم نجرأ على الخروج الى هناك • وقد مدوا رواق سيطرتهم الان عبر الجزيرة الواقعة ما بين دجلة والفرات، واستولوا عـلى طريق الحلة بحيث لا يمكن لاى أحـد ان يذهب فى تلك

(١) جاء في الص ٣ من نشرة مديرية الآثار العامة عن عقرقوف ان هذا الموقع عرف « •• باسم عقرقوف منذ أزمان بعيدة ، وقد زاره منذ منتصف القرن السادس عشر سياح كثيرون من مختلف الامم ، وقد ظن بعضهم خطأ ان زقورته « البرج المدرج » هى برج بابل المذكورة في التوراة • ثم عين بوجه صحيح منذ منتصف القرن الماضى بأنه موضع المدينـــة الكشمية (القصبة) المهمة المعروفة باسم « دوركوريكالزو » • هذا وقد أيدت التنقيبات التى قامت بها مديرية الآثار العامة حديثا هذا التعيين ، وان زمن تأسيس المدينة يعود الى عهد الملك كوريكالزو الاول في بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد وانه ظل مأهولا الى العصور المتأخرة مثل العهد البابلي المتأخر (١١٠٠ ـ ٥٣٨ قم) ، والعهد الفارسى الاخمينى (٥٣٨ ـ ٣٣١ قم) • ووجدت آثار سكنى مهمة من العهود العربية الاسلامية • والمعروف من الكتابة الموجودة فى باب خان مرجان ان عقرقوف كان من جملة الاوقاف التى أوقفت على جامع مرجان وخان مرجان •• »

الاتجاه ـ والحقيقة ان كل شيء غير آمن هنا ، لانهم ليسوا وحدهم ، بل كل وغد من الناس وكل لص في بغداد أو فيما حولها قد خرج لاسلب باسمهم أيضا • فعاد الكثيرون من المساكين وقد سلبت حتى ملابسهم ، ولم يعد بوسع أية قافلة ليست معها قوة كبيرة ان تسير في ذلك الاتجاه • ويقال ان الباشا يقوم بمفاوضة عنزة ، ويحاول جريا على خطته السابقة أن يزرع بذور الخلاف بين عدد من اجزاء العشيرة • وقد دعى كالمعتاد عشيرة أخرى لمساعدته كذلك ، وهي عشيرة زبيد • ولا شك ان هذا يعود بالوبال عليه وعلى البلاد بوجه عام ، ولكن هذه هي سياسته السقيمة • على أن رجال عنزة ، أو الذين ينتحلون اسمهم ، لا يعبأون الا قليلا على ما يبدو بهذه المفاوضات • فقد سلب عدد من رجال الباشا نفسه في أماكن قريبة من أبواب المدينة ، وكان من بينهم يوسف بك الذي يحمل لقب « باب العرب[1] » أي الموظف الرسمي الذي يتوسط بين الباشا وبينهم ، بعد ان كان من مصاحبي الباشا نفسه • فأغاظ هذا سموه بحيث صار يقول الآن انه سوف لا يتعامل معهم مطلقا • وقبل يومين فقط سمع كذلك صوت اطلاق النار في الجانب الغربي من النهر ، بالقرب من تربة زبيدة ، فتبين ان فريقا سلابا من عنزة هاجم المنطقة الى حد الاسوار نفسها فاستولى على جميع ما فيها من أبل واغنام وما أشبه •

ويصعب هذا كله على السياح من مثلي الذين يعد التأخير بالنسبة لهم شيئا متعبا ومخطرا • وهو مخطر على الاخص بالنسبة للعدد الكبير من الزوار الايرانيين كذلك ، الذين يأتون من بلاد بعيدة لزيارة العتبات المقدسة في كربلا والنجف الاشرف ، فقد عاد اولئك الذين دفعتهم حماستهم منهم الى التجاسر على ساطة الاعراب وقد سلبوا الى حد العري ، ومن دون ان يروا العتبات بأعينهم • ومن الحقائق التي تدل على ضعف

---

(١) هو الموظف العربي في ديوان الباشا الذي تراجعه القبائل العربية في شؤونها مع الحاكم ، وقد أشغل هذه الوظيفة البعض من أبناء اسرة الشاوي المعروفة •

الحكومة التركية التام في هـذه الولاية ان جميع العتبات التي لها قدسية خاصة تقريبا قد جعلت ملاذا لشـر الناس في المجتمع واكثرهم تفاهة ، ولا تزال في وضعها هذا حتى الآن • ومن المحتمل ان يكون هذا قد نشأ عن طبيعة الحماية التي تقدمها هذه الاماكن للناس من دون تفريق بينهم ، ولأن هذه الحماية يستغلها في الدرجة الاولى أسوء الخارجين على القانون من الناس بطبيعة الحال • لكنه على كل امتيـاز لا يسـمح « المتولي » ، ورجال الدين او خدام الحضرة ، للسلطـات الزمنية ان تتعرض له بأيـة حجة كانت • وهكذا يتجمع أصحاب السوء ـ وقد يدفعون الـكثير من المال من أجل الحصول على الحماية ـ حتى يكون في مقدورهم الهيمنـة عليها ، كما هي الحال في محلة[1] الشيخ عبد القادر بغـداد نفسها • وقـد حصل مثل هذا الوضع كذلك في النجف وكربلا معا ، ولـكن بمقياس أوسع وحالة أسوء بكثير • اذ ازداد عدد المتمردين المتجمعين هناك بحيث لم يعد من الممكن لحاكم المنطقـة ولا لسلطة الباشا ان تسيطر عليهـم • وهؤلاء لا يفعلون ما يريدون فحسب ، بل كانوا أيضا يطلبون من الزوار الذين يأتون لزيارة العتبات المقدسة الاذعان لاوحش الطلبات وأبعدها عن المألوف والمعقول ، وفي حالة عدم الانصياع للطلبات كانوا ينهبون أمتعتهم ويجردونهم حتى من ألبستهم ، كما يسلبونهم زوجاتهم وبناتهم في بعض الاحايين • وقد استفحل هذا الشر لدرجة اضطر فيها داود باشا نفسه الى تجريد قوة ضد النجف ، فنجح في اخضاعها للطاعة •

ولا تزال كربلاء في حالة ثورة[2] • فلم يستطع اليرماز والقتاة والسفهاء

---

(١) باب الشيخ

(٢) جاء في احدى المخطوطات التاريخية (مجهولة المؤلف) التي ينقل نصها كتاب (تاريخ العراق بين احتلالين ج ٧) ذكر مفصل لحالة كربلا في هذا الدور ، وللثورة المشار اليها • فيقول صاحب المخطوطة : « بلدة كربلا كانت عاصية على وزراء بغداد ، فسير نجيب باشا اليها ، وحاصرها وكان بها السيد الزعفراني •• ترأس على أوباشها وسفهائها ، وأطاعه أراذل البلد وعامتها من أيام داود كانوا عاصين ، الا أنهم يؤدون شيئا قليلا عوض خراجها ،

الذين يكونون عددا كبيرا فيها ، من صد الجيش الذي جرده الباشا عليهم فقط بل أصبحوا أيضا يهيمنون هيمنة تامة على البلدة كلها بحيث لم يكن بوسع أحد ان يعصى لهم امرا او يتحداهم من دون ان ينال جزاءه • فقد ابتدعوا طريقة سرية للاتصـال والتفاهم فيما بينهم لا يحيط بها غير الداخلين في زمرتهم ، وبواسطتها يستطيعون ان يجمعوا في أي مكان كان قوة غـير يسيرة بأسرع ما يمكن • ولذلك كان الناس المحترمون يخشونهم بحيث لا يجرأون عـلى بذل أي مجهود او اتخـاذ أي اجـراء من الاجـراءات لمعارضتهم وحتى لحماية انفسهم منهم • فقد حدث قبل مدة غير طويلة ان غضب هؤلاء على نواب[1] هندي كان قد أقام في كربلا منذ عدة سنوات ، فهاجموا بيته ونهبوه ثم أخذوا البيت منه ودمروا ممتلكاته من دون ان يكون بوسع أي أحد منعهم أو التصدي لهم بشيء ، فاضطر النواب المسكين الى الهزيمة والنجاة بنفسه الى بغداد التي لم يزل يقيم فيها على ما أعلم • وهم يذهبون في فسادهم وخلاعتهم حتى الى حد أنهم ، حينما يعلمون أن أحد الزوار يصطحب معه زوجـة جميلة أو أختا حسناء ، يبعثون ليأتون بها اليهم • وحينما يرفض ذلك يعمدون الى سرقتها منـه بحيلة من الحيل أو الى اغتصابها بالقوة • وكثيرا ما كان يحدث هناك ان تفقد زوجات بعض الناس على هذه الشاكلة مدة اسبوع أو أكثر ، فيعدن الى أهلهن بعد ذلك

وكل من يعمل مفسدة من العراق ، أو يأكل أموال الناس ، يذهب الى كربلا ويجار بهؤلاء الأراذل حتى اجتمع عندهم مقدار عشرة آلاف مقاتل من أجلاف الناس وعصت أيام داود باشا ، وزمان علي باشا أيضا •• في كربلا حتى أنهم أمسكو مرة أحد مجتهديهم السيد ابراهيم القزويني ليلا ولم يطلقوه حتى أدى لهم أربعة آلاف قران من سكة محمد شاه •• وكانـوا مفسدين ذوى جرأة على أعراض الناس ، وأهل البلد يهابونهم ، ويخافون على أنفسهم ، لانهم متى أرادوا هجموا على بيت أحدهم ونهبوه • والحاكم هو من أهل البلد طوع أيديهم •• وفي أيام علي باشا حاصرها وخرج اليه سادات البلد ، وعلماؤهم .وتكفلوا له بزيادة الايراد، فارتحل عنهم • وكان لا يبالي بعصيانهم ومرامه الدراهم فقط ، وقد أدوا له سبعين ألف قران المثل الذين عما يؤدونه الى داود باشا ، فرضى وتركهم • »

(١) لا تزال أسر النوابين التي استوطنت كربلا وبغداد بعد هجرتهـا من الهنـد موجودة في المدينتين حتى الآن •

بحالة يرثى لهـا ، فقد سمعت أحد الايرانيين أنا بنفسي يتذمر من معاملة زوجتـه بهذه الطريقة • وبعد ، أليست هذه حالة تدعو بصراحـــة الى الاقتصاص والاصلاح ؟ انها واحدة من ألف حالة من حالات سوء الحكم والفوضوية التي تلفت نظر اولئك الذين يمرون بالبلاد ، وتدل على تعاسة سكانها وشقائهم •

أول كانون الاول

لا يزال الاعراب مرابطين في عقرقوف وعلى الطريق الموصل الى الحلة بحيث تستحيل السفرات الى تلك الجهات الآن • غير انه قد تأكد لدى الناس أنهم أخذوا يتنازعون فيما بينهم ، ولا أدري اذا كان ذلك يعزى الى تأثيرات سياسة الباشا فيهم أو الى قلة ما يتيسر من العلف والسلب • ومع كل هذا فانهم ما زالوا يسيطرون على الريف من دون معارضة الى حد أبواب المدينة نفسها •

لقد وردت رسائل من ششتر تدل على ان ايران تعاني أشد حالات الفوضى والاضطراب في الوقت الحاضر ، وان عدة قوافل قد نهبت حتى استحال خروج أحد في الطريق • وتتفق الروايات الواردة من همدان وكرمنشاه مع هذه الاخبار أيضا ، ولم يتأيد غير ذلك سوى وفاة الشاه[1] في أصفهان •

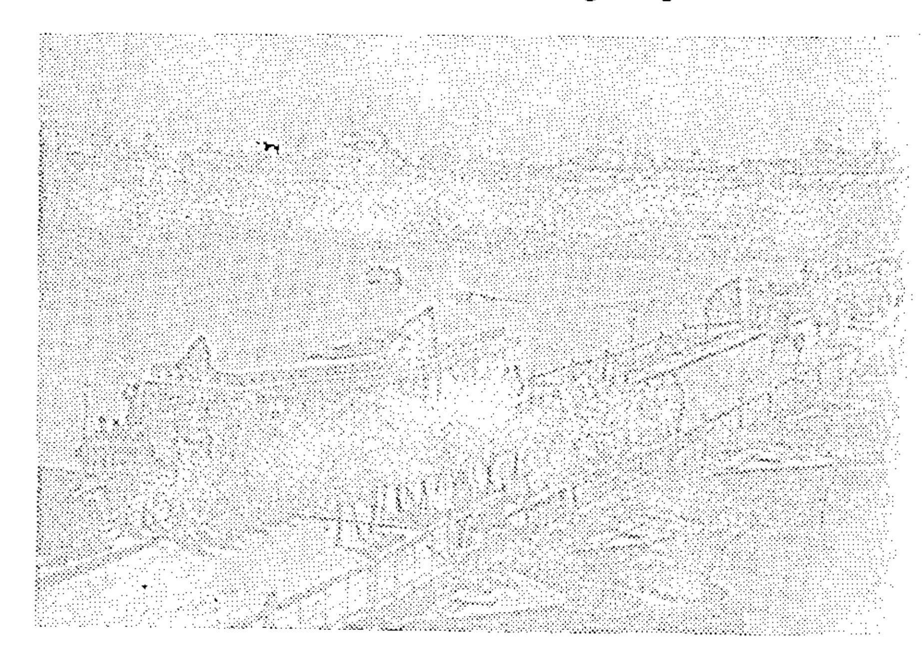
٣ كانون الاول

يبدو من أخبـار ايران الواردة الى هنا كلها انهـا تؤيد خبر توجه

(١) المعروف في التاريخ الايراني ان فتح علي شاه القاجاري توفي سنة ١٨٣٤ في الثامنة والستين من عمره ، بعد أن ظل متربعا على دست الحكم في ايران سبعا وثلاثين سنة • فاعقب ذلك نزاع عائلي على الحكم بين الابناء ، بدأه فرمان فرما حاكم فارس وظل السلطان حاكم طهران ، اللذان أعلنا مطالبتهما بالعرش • **غير أن تدخل الانكليز والروس في الامر** أدى في النهاية الى أن يسير ولي العهد على رأس قوة غير يسيرة ، بقيادة السر هنري لندزي بيثون ، فيحتل طهران وينصب ملكا فيها باسم محمد شاه • وقد كان يصحب الحملة أيضا الوزير المفوض الروسي في ايران • (عن تاريخ ايران ج ٢ للسر بيرسي سايكس) •



من مقاهى الشمط فى بغداد ــ ١٨٢٧



جسر بغداد قبل مئة عام



حسين علي ميرزا الى طهران واعلان نفسه ملكا فيها ، وتشير الى ان أخاه حسن مرزا قد انضم اليه وسل سيفه بعد ذلك فقطع رؤوس عدد من الامراء الذين كانوا قد رفضوا الاعتراف بأخيه او كان يشك بأن لهم آراء خاصة به ، وان أمين الدولة قد انضم اليه أيضا مع بعض النبلاء الاقوياء ، واستولى على القصر في طهران مع الخزينة ، وانه لم يسمع شيء عن ولي العهد محمد علي مرزا ، وان الحالة في كرمنشاه لا تزال هادئة ، لكن القبائل قد خرجت عن الطوق وأخذت تنهب يمينا وشمالا بحيث لم يعد المسافرون يأمنون على أنفسهم • وكان أحد الرسل الذين جاءوا بهذا الخبر قد التقى بالقرب من بغداد بقافلة كانت فيها بنت من بنات الشاه السابق ، وهي عائدة من الزيارة في كربلا • فأمرت بجذع أنفه وقطع اصبع من أصابعه للاخبار السيئة التي كان يحملها ، فوصل الى بغداد بهذه الحالة •

٤ كانون الاول

لقد انقطعت وتيرة السأم والاطراد في هذا اليوم بحدوث حادث لم يكن من المنتظر ان يحدث ــ وهو حصول قتال بين الاعراب في داخل أسوار بغداد • ولكنني قبل ان آتي على وصف المعركة يجب ان أشرح الاسباب التي أدت الى وقوعها •

فقد كانت الاحوال بين الباشا وعنزة تزداد سوءاً على سوء في كل ساعة منذ مدة غير يسيرة ، وظل اقلاق البلاد والعبث بها يزداد شدة واتساعا بحيث ان أشخاصا محترمين قد سلبوا في أبواب المدينة نفسها • وانقسمت العشيرة على نفسها الى عدة جماعات ، حتى صار من الممكن ان تشترك القبائل العربية الاخرى في النزاع أيضا فتشتعل عند ذلك بلاد ما بين النهرين كلها • وقد حدث في الاخير ان سلب عدد من ضباط الباشا نفسه بالقرب من المدينة ، ودلت التحريات على ان هذا الانتهاك قد أقدمت عليه

جماعة من قبيلة عقيل ، التي كانت تعيش في القسم الغربي[1] من المدينة ، فقرر الباشا وقد ثارت ثائرته لهذه الاهانة الصادرة منهم أن ينتقم انتقاما عاجلا من الفاعلين •

وهؤلاء الاعراب هم جزء من عشيرة كبيرة قوية تقيم في نجد ، وبنتيجة اتفاق عقد قبل ستين سنة مع سليمان باشا احتكروا حراسة القوافل ودلالتها ما بين هذا المكان وحلب ودمشق • ولاجل أن يتسنى لهذه العشيرة أن تزود القوافل بالعدد الكافي من الادلاء المطلوبين اعتادت أن تبقي على الدوام عددا معينا من أفرادها في بغداد برعاية شيخ منهم ، لكنهم لم يسمح لهم الا مؤخرا بالاقامة في داخل الاسوار • على أن نزاعا قد نشب في هاتين السنتين أو الثلاث ، بسبب خصومة قديمة كانت موجودة بينهم وبين جماعة اخرى • واذ كان العقيل غير مكتفين بطرد خصومهم تصدوا لقافلة غنية كان خصومهم هؤلاء يشرفون على حراستها من حلب الى ما يقرب من بغداد، وأعلنوا انهم ما لم تلب مطاليبهم جميعا فانهم سينهبون القافلة ويتركون البلاد • ولما كان الباشا أضعف من أن يستطيع حماية القافلة ، التي كان ينتظر وصولها الى بغداد بصبر نافذ لانه كان يعلم بأن الرسوم التي سوف تجبى منها فتذهب الى جيبه تؤلف مبلغا لا يستهان به ، فقد أذعن لطلباتهم جميعها • وقد كان من بين الاشياء الكثيرة التي تساهل بها معهم السماح لفريق من القبيلة بالاقامة في بغداد بشرط أن يظلوا بالكلية مقيمين في الجانب الغربي من النهر •

وهكذا شرع العقيل يقيمون في الداخل ، وأصبحوا منذ ذلك الوقت سادة لا ينازعهم أحد في ذلك النصف من بغداد • فكانوا ، كاليرماز[2] في كربلا ومحلة الشيخ عبدالقادر في بغداد نفسها ، يتحدون القانون فيحمون جميع المشردين والاشرار المنبوذين الذين يلتجئون اليهم ، ولم يكن بوسع أحد أن يقيم في ذلك الجانب من النهر الا بعد الحصول على السماح

---

(١) أي في جانب الكرخ بطبيعة الحال •

(٢) لا يخفى أن كلمة يرماز كلمة تركية تعني بالعربية ، الذين لا ينفعون لشيء ، ويقصد بهم هنا الاشرار من طبقات المجتمع •

اللازم منهم[١] • والخلاصة ، انهم كانوا هم حكام محلتهم ومنطقتهم وليس الباشا بالذات • وقد ظل الباشا ردحا من الزمن برماً بعتوهم وتجبرهم وعازما على تأديبهم وأيقافهم عند حدهم ولكن من دون أن يجرأ على تنفيذ ما كان يريد في هذا الشأن ، حتى حصل الحادث الاخير فأثار حفيظته عليهم كما ذكرت من قبل وأقدم على استعمال سلطته بهياج وحنق • اذ بعث من يخبرهم بمغادرة المدينة في الحال ، والا فسيضطر الى طردهم عنوة • غير انه لم يكن من المعتاد في باشوية بغداد أن تطاع أوامر الباشا وتنفذ مطاليبه • ولذلك رفض العقيل أن يتحركوا من مكانهم الا بشروط لم ير الباشا من المناسب تنفيذها • وقد حدث هذا في صباح يوم أمس ، فذهب شيخ القبيلة الذي ربما أخافه هذا الاظهار غير المعتاد للقوة الى السراى بنفسه لمعاتبة سموه والاعتراض على أوامره • وأخذت القبيلة في الوقت نفسه تتجمع معا ، وتستعد لحدوث الاسوء ، وحينما اجتمعنا في المقيمية اليوم لتناول الفطور لاحظنا من شبابيكها درجة غير معتادة من الاضطراب والهياج في الجانب المقابل من النهر • اذ كان الناس يركضون هنا وهناك ويتجمعون معا على شكل جماعات صغيرة وكبيرة ، وقد لاحظنا بنواظيرنا انهم كانوا مسلحين •

وما أن انتهينا من تناول الفطور حتى رأينا الجسر يصبح مزدحما بالناس ، وكانت القفف تعبر النهر بسرعة ذهابا وايابا • فقد كان هنالك على ما اتضح كثير من الهرج والمرج ، واستبان ان بعض الاشخاص كانوا يحاولون قطع الجسر من الجانب الغربي • فتوقع الكولونيل تايلور والدكتور روص أن تحصل معركة في القريب العاجل • «ستراهم يبدأون

---

(١) كان الناس وما يزالون في بغداد يطلقون على جانب الكرخ أسم « صوب عكيل »• ولم يزل قسم غير يسير من سكان المحلات القديمة في الكرخ ينتسبون لهذه القبيلة ، التي تشتهر منها بعض البيوتات المعروفة اليوم مثل بيت الخنيني وبيت الكحيمي وبيت سليمان الصالح وبيت اللاحم ، ولا تزال هناك « قهاوي عكيل » وجامع الخنيني وجامع غنام وما اشبه •

هناك ، على الجسر في أغلب الاحتمال » هذا ما قاله الكولونيل ، ثم أردف يقول « لقد فعلوا مثل هذا تماما في السنة الماضية حينما هاجم سفوك المكان . » وما كاد ينطق بكلماته حتى انقطع الجسر ودل اطلاق رصاصة من الجانب المقابل على أن المعركة قد بدأت . فأعقبت ذلك ست اطلاقات اخرى ، وسرعان ما خلا الجسر من الناس عندما أجيب على النار في الحال من الجانب الذي نقيم فيه . وبعد ذلك خفت ثلة من المشاة النظاميين عبر القسم الباقي من الجسر ، وبعد أن أخذت مواقعها في زوارقه الكبيرة للحماية وجهت وابلا من نارها الى مقهى في الجهة المقابلة كان الاعراب يطلقون النار منه . وقد استمر اطلاق النار لمدة ساعتين تقريبا ، لم يقع خلالها سوى ضحية واحدة أخبرنا بها وهي امرأة عجوز مسكينة أصابتها رصاصة طائشة حينما كانت تقزل راكضة فوق الجسر بأقصى ما تستطيع من السرعة .

وقد اختلفت الروايات التي صارت تتداولها الافواه : فقال بعضهم ان الباشا قبض على شيخ العقيل ومعه « الگمركچي » التابع له ، وهو وغد معروف ، فأمر باعدامهما . وادعى آخرون ان الشيخ ما زال سالما في بيته الواقع في الجانب الآخر ، وان الاعراب هناك ينتظرون أن يتم تجمعهم ليهاجموا جند الحكومة بقوة كبيرة . وقد تناهى الينا قبل الظهيرة ان الباشا أعاد الشيخ الى منصبه ، وسوف لا يحدث شيء أكثر من هذا سوى السلم والصفاء . وقد توقف اطلاق النار تقريبا ، بعد أن كانت تخمد وتعود بين آونة واخرى . ولكن بينما كان أغا ميناس[1] ، أحد موظفي المقيمية ، يخبرنا بهذه الانباء السارة سمعت اطلاقات المدافع وهي تدوي في الجو . فصاح الدكتور روص قائلا « آه لقد أطلقت المدافع ، انها تعلن الانتهاء السار للمناوشات » لكن القرقعة السريعة المنطلقة من البنادق واستمرار

---

(١) المترجم الاول في المقيمية ، ومن نسله ميناس الارمني الذي كان معروفا ببغداد حتى توفي سنة ١٩٤٨ .

النار المنطلقة من المدافع فى أثر ذلك كانت تقص لنا قصة اخرى ، فاندفعنا كلنا الى سطح الدار للوقوف على الخبر اليقين • على أن أشجار النخيل كانت تخفى المتحاربين عن أنظارنا ، مع أن دخان المدافع وانطلاق الرصاص السريع قد اقنعانا بأن قتالا جديا كان يقوم على قدم وساق •

وقد علمنا بعد ذلك ان القتال كان قد بدأ أولا على أثر خبر تناهى الى أسماع عقيل بأن شيخهم قد أعدم بأمر من الباشا • فقسموا أنفسهم الى جماعتين ، جاءت احداهما لتقطع الجسر وتطلق النار على البلدة ، بينما اندفعت الاخرى من الباب الشمالية لتهاجم الجند الذين كانوا يرابطون هناك وتفاجيء مدفعيتهم • وفى الوقت نفسه عمد الباشا ، مهما كانت نيته بادىء ذى بدء ، بعد أن أخافه الانفجار الى الانعام على الشيخ بخلعة الشرف وأعادته لتهدئة أتباعه ، بينما بعث سرا الى قائد جيشه الموجود فى الجانب الغربى يأمره بأن يهاجم الاعراب من الخلف ـ وقد رأينا فى الحقيقة مرور الزوارق وهى تحمل الضباط الى المعسكر هناك • لكن الاعراب قد توقعوا حدوث هذا بحيث ان الرسول حينما جاء بالاوامر وجد الجند مشتبكين فى قتال معهم • فقد كان اندفاعهم مفاجئا بحيث استطاعوا الاستيلاء على أحد المدافع قبل أن يعرف الجند وقائدهم ما اذا كان المتقدمون نحوهم بتلك السرعة من الاصدقاء أم من الاعداء • وعند ذاك قفز الجند الى سلاحهم فردوا الاعراب على أعقابهم بفعل النار السريعة المنطلقة من المدافع الاخرى ، ومن بنادق الجيش النظامى • ودارت بعد ذلك معركة متنقلة حول الاسوار[1] على مقربة من باب الحلة • وكان هذا هو السبب فى تجدد اطلاق النار الذى سمعناه •

وفى الساعة الثانية بعد الظهر ، وبينما كانت هذه المعركة قائمة على قدم وساق ، وصوت المدافع يدوي فى الجو بانتظام بالقرب من باب الحلة

---

(١) المعروف ان جانب الكرخ ظل من دون سور يحميه مدة من الزمن حتى جاء سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ ـ ١٨٠٢م) فبنى له السور المشار اليه •

في الجانب الغربي ، ومن مدفعين كانا منصوبين في الجانب الشرقي لاطلاق النار على الطرف المقابل من الجسر والمقاهي الملأى بالاعراب ، اذ حضر الى المقيمية ضابط مرسل من الباشا ليطلب من المقيم أن يعيره يخته الكبير المصنوع في انكلترة ، لنقل قوة نظامية منجدة ومقدارا من الذخيرة لرجاله الذين كانوا مشتبكين في حرب مع الاعراب في الجانب الآخر • فلم يكن هذا طلبا مستحسنا على الاطلاق لانه اذا ما تمت تلبيته فانه قد يعتبر تدخلا في نزاعات البلد الداخلية • غير انه لما كانت عقيل في حالة ثورة علنية ضد الباشا فقد استبان من الاصوب ، بصفتنا أصدقاء ، ان نساعد السلطات الشرعية على قدر الامكان • وبذلك اعد الزورق ليكون جاهزاً للعمل •

والاتراك مخلوقات بطيئة • فقد استغرقوا وقتا طويلا في ادخـــال رجالهم الى الزورق ، وحينما تم ذلك وجد انه مرتطم بالارض ولا يسكن تحريكه ، غير انه لما كان مرسى الزورق يقع تحت شبابيك المقيمية مباشرة ، ولما كان الاعراب قد لاحظوا تجمع الجند هناك من الجانب المقابل ، فقد أمطروا الساحل والبنايات المطلة عليه بوابل شديد من نارهم وظلـــوا يطلقون النار من الجانب المقابل على الزورق وكل شيء من حوله • ولا ينكر أن عرض النهر هنا كان يبلغ مائتين وخمسين ياردة عـلى الاقل ، غير ان القذائف كانت تأتي بخفة عبر الماء ، فتنطنط أحيانا ، وتصيب المقيمية أحيانا اخرى • والحقيقة أن واحدة منها قد أصابت جدارا كان يبعـــد عدة بوصات فقط عن رأس الكولونيل تايلور حينما كان يقف وراء الحاجز ليشاهد المعركة بناظوره • وكذلك قتل عدة جنود أو جرحوا في الزورق• ولهذا فرحنا جدا حينما تسنى لنا أن نحتمي وراء الاجزاء البارزة من جدار السطح • وقد كنا على كل حال غير معرضين كثيرا للخطر ، لاننـا كان بوسعنا ملاحظة وميض القذيفة قبل أن ننسحب لنتقي خطرها •

وقد استمر هذا النوع من التسلية أكثر من ساعتين ، اذ أمكن في الاخير تطويف أو تعويم اليخت وحدره مع التيار فأنقذنا ذلك من القصف

الذى كان يصبه علينا أصدقاؤنا من الجانب المقابل • ولا بد أن أشير هنا الى أن الجنود الاتراك ، على ما فيهم من خرق وغلظة بالنسبة للزورق ، لم يبد عليهم أى إجفال أو تخوف حتى حينما كانت تنهال عليهم القذائف بكثرة فتصيب عددا منهم • ويمكنني أن أقول الشيء نفسه بالنسبة لما حدث فوق الجسر ، فقد جرت محاولات عـدة لنصب الجسر من جديد وربط أجزائه لغرض العبور بينما كان الجند يطلق النار على الاعراب خلال النهار كله ، من الزوارق التي لم تكن تحميهم حماية كافية •

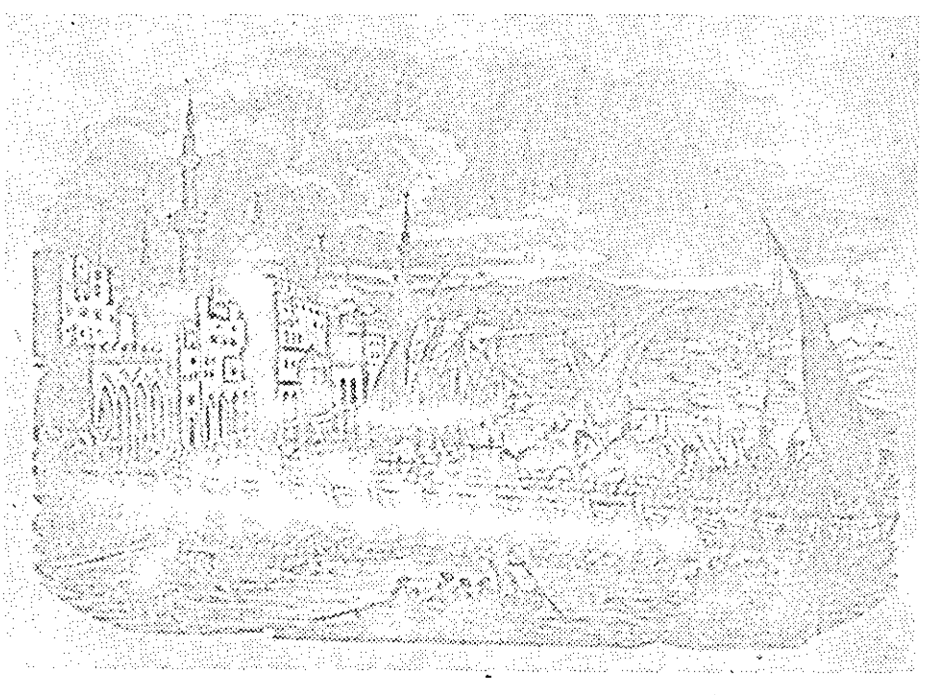
وأخيرا استطاع اليخت العبور الى الجانب المقابل ، بعد أن ارتطـم بالارض عدة مرات وانحدر الى مسافة غير يسيرة • ومن الغريب انه لم يجد أية مقاومة هناك ، فنزل الجند البالغ عددهم حوالى مئة وخمسين الى البر واختفوا فى بساتين النخيل الكائنة فى ذلك الجانب بأسرع ما يمكن • غير ان اطلاق النار من المدافع والبنادق ، الذى كان قائما على قدم وساق فى الجانب الغربى من المدينة ومن الجانب الشرقى عبر النهر ، قـــد بدأ يخف الآن • ومن المحتمل أن يكون الاعراب قد ضويقوا كثيرا من مدفع كبير فى القلعة ، كان قد جيء به ليكون أكثر تسلطا على مواقعهم ، فأصبحوا أكثر حذرا فى تعريض أنفسهم • وكانت الشمس كذلك قد نزلت أكثر فى طريقها الى المغيب قبل أن ينزل الجنود من اليخت الى البر ، فحصلت فترة توقف كانت تعكر سكونها فقط بعض الاطلاقات المنطلقة هنا وهناك وطبول الجند النظامى وأبواقه ، على أن قرقعة اطلاق البنادق العالية وهدير المدافع قد بدأت من جديد بصورة مفاجئة ــ وسمع صـوت عـال يعلن التحاق النجدة التى عبرت بالجيش المحارب • ووصل الصوت كذلك الى النهر ، وحينما تطلعنا الى الجسر وجدنا الجنود محتشدين فوقه أيضا • وبعد دقيقة اندفعوا الى الامام وهم يطلقون النار بسرعة ، فقوبلوا من الجانب الآخر بنار حامية استمرت عدة دقائق فقط ثم خمد أوارها • ولكن بالنظر لان أعمدة الجسر لم تكن على مسافة عشرين ياردة عن بعضها فان ربطه

كان لابد أن يتطلب عملا كثيرا • وقد شاهدنا قفة صغيرة تعبر الثغرة المتبقية في الجسر فأعيد نصبه كله بعد ذلك بقليل • ولابد أن يكون القسم الاكبر من الرجال قد عبروا على ما يتضح ، لكن الظلام في ذلك الوقت كان قد خيّم بحيث لم نستطع أن نشاهد أكثر مما رأينا ، وقد حلت كذلك فترة من التوقف العميق في الاصوات • على أن هذه لم تدم طويلا • فقد توقف اطلاق النار ، لكن صراخا وحشيا قد تعالى بدلا منه ـ صياح الرجال المختلط بصراخ النساء ، وجميع أصوات الرعب والفوضى واليأس • وفي خلال دقيقة اخرى تغطي وجه الماء بعدد كبير من القفف التي كانت قد التجأت الى الساحل في بداية المعركة • فكان من الواضح ان الجند قد استولوا على البلدة في الجانب الثاني واخذوا ينهبون ويسلبون في جميع الجهات • وقد استمر اطلاق الاطلاقات الخافتة ، لكن هذا لم يكن سوى اطلاق عابث كان يطلقه الجنود المعربدون لفتح باب مقفلة ، أو قتل بائس كان يقاوم مقاومة غير مجدية • ثم اقترب الضجيج شيئا فشيئا نحو النهر فحسبنا في الحال أكثر من ثلاثين قفة وهي تعبر محملة باللاجئين الهاربين في كل مرة • وسرعان ما ازداد تكاثف الظلام ، لكن الصخب ظل مستمرا ثلاث ساعات من دون أن ينقطع ، وهو يختلط بالصراخ والزعيق • وبعد ذلك خيّم الصمت على كل شيء وأصبحت المدينة هادئة ، وكأن الموقعة التي شهدناها لم تحدث فتعكر عليها سكونها وهدوءها •

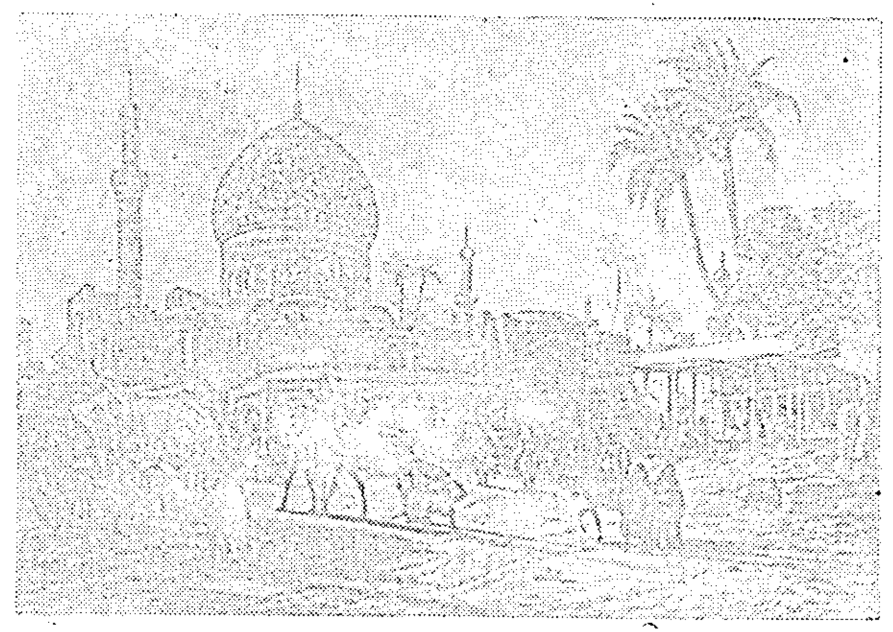
وقد سمعنا ان « التفنگجي باشي [1] » هو الذي نخى رجاله للقيام بالحركة الهجومية فوق الجسر التي كانت حرية بالجند المنتظم • وحينما وجد الاعراب عزمهم هذا تخلو عن مكانهم فعبر الجيش • فنهب السوق الكائن بالقرب من الجسر في الحال ، وبدأت أعمال السلب وجمع الغنائم•

---

(١) التفكنجي اسم تركي للجندي من حملة البنادق التابعين لافواج الجيش النظامي المحلي ، والتفنكجي باشي هو رئيس اولئك الجند أو قائدهم •



جسر الموصل فى ١٨٢٧



ساحة الميدان وجامع الاحمدية فى منتصف القرن التاسع عشر



والمقول أن الشيخ بعث شروطا للباشا يعرض فيها أنه سيغادر المدينة في اليوم الثاني على أن تتم حماية البعض من العرب ، فوافق على ذلك كما قالوا • ويقول آخرون أنه اتصل بعنزة لتساعده على الاحتفاظ بسكانه في البلدة ، وما أشبه هذه الحركة بسياسة المماطلة الغريبة التي اتبعها • لكننا سنرى ما يأتي به الغد •

٥ كانون الاول

كانت الشوارع في ساعة مبكرة من هذا الصباح مكتظة باللاجئين ، الذين كان الكثيرون منهم عراة تقريبا • وكان الآخرون وهم أسعد حظا من هؤلاء يحملون معهم ما استطاعوا حمله من لوازمهم عند أول وقوع الحادث • وكان النسوة يضربن بأيديهن ويولولن ، كما كان الرجال وهم بين عابس مكتئب ، أو صخاب سباب ، يحملون بنادقهم وسائر أسلحتهم • وازداد عدد الحيوانات والماشية في المدينة حتى ازدحم بها كل زقاق ودربونة • وقد اختلفت الروايات حول مصير عقيل ، لكنه من المحتمل جدا انهم حينما وقع الهجوم فوق الجسر وجدوا أنفسهم بين نارين ففروا هاربين الى جميع الجهات ، وعادوا وبنادقهم بأيديهم الى بيوتهم لحماية ممتلكاتهم • وحينما اكتشف الجنود ذلك ، وهم على علم بانه لم يعد هناك ما يمكن أن يخشون منه ، تخلو عن تعقيب العدو وولو وجوههم شطر الاسواق وبيوت الاغنياء التي نظفوها من كل ما كان فيها وأشعلوا النار في الاسواق • وهكذا وقع ثقل الضربة على سكان البلدة ، ولم يكن ذلك ناتجا عن سلامة نية كما يقال لانهم جميعهم كما هو معروف تمام المعرفة قد اشتركوا مع العقيل في أعمالهم واطلقوا النار على جند الباشا •

الساعة التاسعة صباحا

لا تزال الجماعات تمر من بابنا وهي عارية تماما ، ومعظمها يعول ويولول وقد ازدحمت الشوارع بالعرب اللاجئين من الجانب الآخر ،

رجالا ونساء ، لكننا لم يتأكد لنا ما حل بعقيل • فيقــول البعض انهــم ما زالوا في بيوتهم والبنادق بأيديهم ، بينما يستمر الجنود على نهب بيـوت سكان البلدة الاصليين ـ ويعتقد الآخرون أنهم فروا جميعهم • ويقــال كذلك ان الباشا أصدر أوامره للجنود بالامتناع عن النهب ، وانه هو نفسه وقف في نقطة ما على باب الجسر ليمنعهم من نقــل غنائمهم الى الجـانب الآخر • لكنه كان يحاول المستحيل بذلك ـ انهم يضحكون عليه ، فهـو لا حول له ولا طول •

الساعة الثانية بعد الظهر

سمعنا ان العقيل قد فـــروا بالتأكيد ـ اذ تركوا البلدة مع أسرهم وممتلكاتهم ، ويقال علاوة على ذلك انهم قصدوا عنزة في خروجهم هذا • لكن شيخهم تخلف عنهم والتجأ للاحتماء بباب حرم الباشا ، وهو ملجـأ حصين لا تنتهك حرمته ، فسمح له بالاقامة في بغداد كرجل عادي بشرط ان يحافظ على الهدوء والسكينة • وقد كنا نرى خــلال فترة الصباح والنهار كله ان الناس كانوا يسرون حاملين أسلابهـم ـ فكان أحــدهم يسحب خروفا وراءه ، وآخر يحمل شدة من الدجاج المشدود الى بعضه بالأرجل ، وثالث يحمل كثيرا من القدور والاواني والفراش أو السجاد ، وكان الرابع قد وجد طريقه الى مخادع النساء في البيوت المنهوبة وجـاء يمسك بيده حزمة من لوازم النساء وملابسهن • وجاء أحد جنود النظام بفرس للبيع وهو يقول انه غنمها في المعركة ، فتعجب لامتناعنا عن شـراء مثل هذه الصفقة • وكان الآخر يسوق أمامه حمارين أو ثلاثة محمـلة بأكياس كبيرة تحتوي على خليط من كل شيء • ولا يزال النهر مكتظــا بالقفف •

والظاهر ان الباشا قد جعل مقره في المقهى الكائن في الطرف الآخر من الجسر ، الذي كان الأعراب يطلقون النار منه في أثناء المعركة ، لغرض ايقاف السلب والنهب عند حدهما على الاقل على ما قيل لنا في الصباح •

لكن هذا يعد خطأً منه على ما يقال ، لأن المزعوم الآن انه كان يشجع الجنود على التمادى فى تجاوزاتهم بتصرفاته هـذه وقـوله مثلا للسكان المنهوبة بيوتهم على سبيل التقريع وهو يهز كتفيه « هل ترون ماذا فعلتم بأنفسكم ؟ انها غلطتكم وليست غلطتي • »

وما زالت أخبار الخسائر مشوشة بحيث لا يمكن الاعتماد عليها • لكن المعركة لابد أن تكون قد أخذت مأخذها من « النظام » والألبانيين ، لأن أحد موظفي المقيمية كان فى ديوان الباشا يوم أمس فى أثناء احتـدام المعركة ، فجاء رجل من الجانب الآخـر يطالب بقماش قطنى لتكفين أربع وعشرين جثة ، وهو عدد القتلى العائد لمفرزة واحدة فقط • وقـد تناهى الينا ان قائد الهجوم الجريء على الجسر قد أصيب برأسه فقتل ، كما قتل وجرح بجروح بليغة عـدد من رجاله • ولابد ان تكون الخسارة فى الجنود باهضة بالنسبة لما وقع فى باب الحلة ، لأنهم وقفوا هناك معرضـين لنيران الاعراب الذين كانوا يقاتلون من وراء أسوار حجرية • فلم يحاول أحد تقدير خسائرهم هذه ، على أن أشد الضرر قد وقع فى البلدة نفسها • فان فظاعات الجنود ، على كونها لا يمكن أن تكون أعظم مما يقترفه الجنود الاوربيون حينما يستولون على بلدة من البلدان بهجـوم صاعق ، كانت مفجعة بمقدار غير يسير • فقد أُسيئت معاملة النساء بشكل مرعب ، وجيء فى هذا اليوم بجثة امرأة أقدم على قتلها وحش ألبانى بينما كانت تقـاوم تجاوزه عليها بشدة • وقد ألقيت على عتبة مرقد الشيخ ، فأمر النقيب بأن تدفن كما يدفن الشهداء • وبينما كان شرير آخـر من هؤلاء الاشرار ينهب حرم أحد بيوت العرب أزعجه صراخ طفل من الاطفال فيـه فحمله من مكانه وألقى به فى البئر على ما كان يعتقد • وراح يتبجح بفعلته الشنيعة هذه فى الخارج ، فوصل الخبر الى أسماع أمه المسكينة وتجرأت على العودة الى البيت علها تعثر على جثة طفلها • فنزحوا البئر من أجـل ذلك ولكن من دون جدوى ، وبينما كانوا يهمون بالخروج بعد أن يئسوا من العثـور

على شيء سمعوا صراخا خافتا تعقبوا أثره في كل مكان ، فعثروا على الطفل ملقى في التنور . والظاهر ان الوغد اللئيم قد توهم بالتنور فحسبه بئرا فألقاه فيه . فأخرج الطفل من دون أن يكون قد تضرر بشيء يذكر . وهنا يمكنكم أن تتصوروا مقدار الفرح الذى استولى على الام المسكينة !

وليس بوسع المرء أن يتصور مقدار النفوس التى كانت تحتشد فى الجانب الغربى خلال الايام الاعتيادية . فأن الاسواق يكاد يستحيل المرور فيها من جراء البغال والحمير الكثيرة التى تسر مع سائقيها محملة بالاثاث ، مع أن الدكاكين ما زالت مغلقة من الرعب والفزع المستولي على أصحابها . أما الجسر فيكون من أوله الى آخره منظرا بالغ الروعة ، اذ تراه مكتظا بالناس من جميع الانواع والاشكال وهم يستعجلون فى رواحهم وغدوهم. وقد كان ساحل الضفة الشرقية بأجمعه مغطى بجماعات الناس الذين كانوا يصلون اليه من الجانب المقابل . ويعد الهاية سواقا سباحين للبغال والحمير التى تساق لتعبر النهر سباحة عند الضرورة ، ولذلك نراهم الآن وهم لا يزالون يسوقون هذه الحيوانات الى ضفافه فى الجانب الآخر . والمنظر فى الساحل على جانبى النهر خليط عجيب غريب ، انه منظر يمكن أن يكون مضحكا الى آخر حد لولا الشقاء والبؤس المقترنين به . اذ يرى الرائي هنا رجلا ينقض على خروف فيأخذه بينما يكون صاحب الخروف المسكين قد هرب مع الحمل الى الجانب الآخر . وقد تسمع امرأة فى زاوية من الزوايا وهى تمزق الهواء بصراخها وعويلها من أجل طفلها أو زوجها الذى قتل أو أغرق فى النهر – لأن كثيرا من القفف قد غرقت فابتلعها النهر بأحمالها . وقد تجد كذلك امرأة أخرى وهى تندب حظها بلهجة لا تقل ايلاما عن صاحبتها الاولى وتتحسر على ضياع ممتلكاتها وأثاث بيتها على يد وغد لئيم سرق بيتها على منظر منها ، وربما يكون واقفا على مقربة منها . والخلاصة ، ان السلب والانتهاك هما اللذان يستوليان على المدينة بأجمعها الآن ، ولا يعانى من ذلك الا الضعيف فى كل مكان .

١٠

وصول الشيخ وادي وسليمان غنام ـ زيارة لحومة المعركة ـ المنظر هناك ـ مخيم شيخ زبيد ـ اللباس ـ سلاح الاعراب ـ سرقة الخيول وعواقبها ـ معسكر الهايتة ـ رحيل عنزة ـ ترتيبات الباشا ـ شرطة بغداد وعدالتها ـ شيخ وادي ـ الكاظمية .

٦ كانون الاول ١٨٣٤

وصل في صباح هذا اليوم الى ضواحي المدينة وادي[١] شيخ زبيد ، مع لفيف من رجال قبيلته ، وسليمان غنام بناء على استدعائهما بمناسبة الحوادث الاخيرة . وسليمان غنام ، الذي كنت قد أشرت من قبل الى كونه حليفا من حلفاء علي باشا ، وغد عربي يرجع الى قبيلة الجربا في أصله . وكان قبل مدة غير يسيرة قد استخدم لحراسة القوافل وتوصيلها عبر البادية الى دمشق في أثناء شجار حصل مع عقيل . لكن هؤلاء الذين كانوا قد ذاقوا حلاوة هذا الاحتكار وفوائده اتخذوا الاجراء الذي ذكرته في الرسالة السابقة ، وهو التصدي لقافلة كان مسؤولا عن توصيلها هو والاشتراط على الباشا بأعادة اشرافهم على توصيل القوافل وحراستها ـ جريا على القاعدة القديمة ، على ما أحسب ، وهي « كلف اللص بالقبض على اللص » . اما زبيد فهم عشيرة عربية تملك قسما من البلاد الكائنة في أسفل الطريق الذاهب الى الحلة . وقد كانوا في يوم من الايام أقوياء الشكيمة لكنهم أخذوا بالانحطاط والتأخر في الوقت الحاضر لمختلف

(١) هو وادي بن الشميج شفلح الشلال شيخ زبيد المعروف . وقد ذكر عنه صاحب (عنوان المجد) أنه « .. كان أميرا كريما جوادا له من مكارم الاخلاق والافعال والاقوال ما لا يسعه المقام ، وكانت عطاياه كعطايا البرامكة ، وهو من حسنات الزمان .. » قارن هذا بما يقوله صاحب هذه الرحلة عن وادي نفسه في رسالة ١٧ كانون الاول . ثم يقول صاحب (عنوان المجد) عن العشيرة أيضا « .. وهم بنو منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مالك ، وهو مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان من القحطانية ... وبنو زبيد بطن من زبيد الاكبر من سعد العشيرة المذكورة . .. وعشيرة زبيد التي في نواحي بغداد من زبيد الاصغر ، أما العبيد والجبور والدليم فهم من زبيد الاكبر وكلهم من حمير من القحطانية . » وقد كتب هذا الكتاب في ١٢٨٦ للهجرة .

الاسباب . ولما كان كلا هذين الشيخين من خصوم العقيل فقد لبيا عن طيب خاطر نداء الباشا الذى صدر اليهما جرياً على السياسة التى يتبعها فى مثل هذه الظروف عادة ـ والآن بعد ان انتفت الحاجة الى خدماتهما فان الجميع باتوا ينتظرون نتيجة التدبير الذى سيتخذه فى هذا الشأن .

وقد عبرنا النهر قبل الظهر لنشاهد المنظر الذى خلفه النزاع الاخير. فكانت التأثيرات لأول وهلة أقل ألفاتا للنظر مما كنت أتوقعه ، لأن القسم الغربى من المدينة (الكرخ) كان فى الحقيقة قـذرا خربا بحيث يندر أن يوجد شيء يمكن ان يجعله على اسوء مما هو عليه . لكنك حينما تأتى الى الاسواق والازقة ـ المناطق المأهولة ـ تجد فيها العبث والضرر الذى حصل فى الحقيقة.. فقـد كسرت كل باب مـن الابواب وفتحت ، وخلعت بصورة عامة من مصاريعها . وكان يجلس على الكثير من هذه الابواب قليل من العجائز اللواتى كن يضربن على صدورهن وهن ينظرن الى بيوتهن المنهوبة ـ التى كان منظرها المظلم الخاوى ، يعلم الله ، باعثا على ما يكفي من الانقباض فى النفس . كما كان الرجال الذين ظلوا يحومون حول بيوتهم يجاسون على جانبى الطريق من دون حركة وهم يحدقون فيها بفتور وهمة خائرة . وكانت بعض المقاهى ، التى أُفرغت مما كان فيها ، يشغلها أناسٌ تمكنت من الحكم عليهم من مظهرهم بأنهم تجار وأصحاب دكاكين خسروا جميع ما كانوا يملكون . وكانت البغال والحمير المحملة لا تزال تمر فى الشوارع ، يسوقها الهاينة فى الغالب ، كما كانت الشوارع والازقة نفسها ملأى بالأثاث المتكسر ، وريش المخـاد والوسائد التى أنتزعت أوجهها المطرزة ، وبقطن وصوف الحشايا التى يصعب حملها ، وبمقادير غير يسيرة من الحبوب والمؤونة التى رميت فى عرض الطريق .

وكانت الاسواق تنم على أكثر امارات العنف أيلاما واثارةً للحزن. فقد سقطت السقوف المحروقة واختلط رمادها بالحبوب والتمور والعطاريات والرقي والقرع وسائر الخضراوات ـ أي جميع الاشياء غير الثمينة التى

لا تستحق الاخذ • وديس حطام ما أتلف خلال النهب بالاقدام أو ترك مع قطع وكسر الاواني والاوعية التي كان يحفظ فيها فأصبح ذلك كله كتلة كريهة واحدة من الوساخة والقذارة التي كان ينبش فيها ويتسكع بينها عشرات من الاطفال العرايا تقريبا ، للعثور على شيء يأكلونه بلا شك • اما الحجر والدكاكين فقد كانت كلها مفتوحة خاوية ، وقد خلعت أبوابها وشبابيكها ــ ومن حسن حظ المدينة ان القسم الاعظم من هذه مبني بالطين والآجر ، ولو لم يكن الأمر كذلك لأتت النار التي أضرمها الجنون الطائش على كل شيء •

ثم ذهبنا لمشاهدة الاماكن المهمة التي وقعت فيها المعارك • فكان التخريب الحاصل في رأس الجسر أقل مما كنت أتوقعه لأن مدفعين كانا يصبان نيرانهما على تلك النقطة طوال النهار • وقد كانت باب الحلة هي التي يمكن أن تشاهد فيها آثار القتال جميعها ، لأن القتال معظمه كان قد حصل هنا ، وهنا كذلك اختلط الحابل بالنابل ودخل الجنود في قتال مرير مع الاعراب المتقهقرين • اذ توجد هنا فسحة مكشوفة في داخل السور ، فاتخذ الجند مواقعهم فيها مع المدافع بينما هرب الاعراب الى المنازل والبساتين المحيطة بها ، ومن وراء جدرانها كانوا يمطرون الجنود بنيرانهم الحامية ــ وهو عمل يجيدونه تمام الاجادة • هذا في الوقت الذي كان الجنود قد أطلقوا فيه على ما يقال من مدفعيتهم خمس مئة قذيفة على عدوهم غير المنظور • ولذلك تجد الاسوار والبيوت ملأى بآثار هذه القذائف ، كما امتلأت الباب بآثار الرصاص الذي كانت تمطره عليها البنادق • لكن الجنود هم الذين كابدوا ويلات المعركة في الغالب ، وكانوا على وشك ان يتقهقروا بعد أن استنفدوا ذخيرتهم لولا ان تصلهم في الوقت المناسب الذخيرة التي نقلها عبر النهر زورق المقيمية مع النجدة من الرجال فزودتهم بوسائل جديدة وشجاعة متجددة •

ومن منظر الخراب هذا ذهبنا لزيارة مخيم زبيد ، الذي كان منظره

شيئا يستحق المشاهدة بالتأكيد • ففى خلال خبرتى كلها مع التركمـــان والاكراد أو العشائر المتنقلة معظمها لم أجد أناسا متوحشين تبـــدو عليهم مثل هذه الهيئة الهمجية • اذ يتدلى شعرهم السبط الاسود منتشرا من حول أوجههم الداكنة ، والنقاط الوحيدة التى يمكن ان يرتاح لها المـــرء فى تقاسيمهم الوحشية التى تتجهم عابسة من تحت لباس رأسهم الغريب هى العيون السود النفاذة والاسنان البيض • وقد كان هناك فى المخيم ألف من الجياد على الاقل ومثل هذا العدد من الرجال الذين يختلطون كلهم معـــا لتكون منهم كتلة هائلة ، من ذوات الاربع وذوات الرجلين ، تبرز من بينها غابة كثة من الرماح • أما لباس هؤلاء الاعراب ، اذا كان من الممكن أن يسمى لباسا ، فقد كان لباس البدو الاعتيادى المألوف فى البـــادية — أى الغترة الحمراء أو الصفراء المشدودة حول قمة الرأس بحبل سميك من الوبر — و « الدشداشة » المصنوعة من الشعر الخشن أو الخيش (البشت) — والعباءة التى تكون عادة من كل جنس ونوعية • وقد كان معظمهم قـــذرا رثا • ولم يكن البعض منهم يرتدى « اللباس » ، وبعضهم الآخر لم يكن يملك ما يغطي به نفسه على ما يظهر سوى العباءة الخلقة المشدودة حـــول المحزم بقطعة من حبل الشعر • وكان شعر البعض منهم سبطا منثورا على طبيعته ، وشعر البعض الآخر مضفورا بضفائر طويلة ، كما كانت سيماء الجميع حادة تنم عن كثير من الشموخ • وكانوا كلهم عجفا طوالا ، يبدون وكأنهم جياع للفريسة • لكنه لم يسمح لأى شىء يشتم منه رائحة هـــذا الاستعداد بالظهور أمامنا ، مع أنهم فى لحظة واحدة تجمعوا حولنا بالمئات حالما ظهرنا بينهم • ومع أنهم أبدوا كثيرا من حب الاستطلاع ، فان ذلك لم يكن مشوبا بالخشونة • لا بل كان الامر بالعكس ، فحينما كان بعضهم يقترب منا اقترابا زائدا كان الآخـــرون يعتذرون عنـــه فيتراجع الجميع ليفسحوا لنا المجال بمشاهدة الشىء الذى كنا نتظاهر بالنظر اليه • وهنـــا كان يظهر الفرق بين عربى البلدة أو الفلاح و عربى البادية أو البدوى •

فالاول جلف فظ والثاني « جنتلمن » • والحقيقة ، انهم على جميع ما في مظهرهم من وحشية وشراسة كان في عملهم وتصرفهم نوع من الادب الفطري • ولا شك ان أبرز ما في هذه المقارنة ينشأ عن روحية الاستقلال الجموحة التي تولد نفس التأثير في الهنود الحمر الذين يقطنون امريكا الشمالية •

وقد تحدثنا حديثا وديا للغاية ما بيننا لوقت ما ، وسألناهم عن المعاملة التي قد يعاملوننا بها اذا ما شاءت الصدفة ان يعثروا علينا في طريقهم ، وهل يعمدون الى سلبنا أم لا • فأظهروا أنهم قد صدموا لمجرد الفكرة نفسها ، وصرحوا وهم يضعون أيديهم على أرؤسهم وأعينهم باننا أعزاء عليهم بقدر أهمية هذه الاعضاء للانسان •

ومع ان الجو كان باردا ، ولا سيما في الليل ، فقد كان هؤلاء الرجال مخيمين كلهم على الارض الجرداء من دون غطاء سوى العباءة التي كانوا يرتدونها • ولم تكن هناك أية خيمة سوى خيمة الشيخ ، وهذه كانت صغيرة جدا • ولذلك كان كل منهم ينام ، اينما اتفق ، فيبدون وكأنهم حزم من الخرق القذرة سوّدت وجه الارض • وقد كان معظمهم مسلحا بسيوف من نوع السيوف العربية الحدباء والخناجر المعقوفة المعلقة من المحزم • وكان عند بعضهم صوالج حديد ثقيلة ، كما كانت عند الكثيرين منهم حراب يبلغ طولها خمسة أو ستة أقدام للرمي • وهناك الجريد ، أو الحراب الاصغر منه ، المصنوع من الحديد والمعلق بالكثير من السروج بمقدار يصل احيانا الى ستة في كل جانب ، وهذا يرمونه عند الحاجة بخفة وقوة عظيمة • وقد كان بعضهم يحمل مطارق صغيرة ، كما كان لقليل منهم أعواد يبلغ طول الواحدة منها ياردة واحدة ، وتجهز بكلاليب من الحديد ، يستطيعون ان يلتقطوا بواسطتها أي شيء يقع على الارض أو أن ينتزعوا رجلا من سرجه حينما يغيرون بسرعة تامة • وقد كان هناك ايضا عدد قليل من البنادق البالية • لكن سلاحهم الاعظم على كل حال هو

الرمح الذى قلت من قبل انه كانت توجد غابة كثيفة منه تغطى الارض ، والذى لا يشعر أى أعرابى انه رجل كامل بدونه • اذ كان كل منهم يغرز رمحه بالقرب من جواده بوجه عام •

اما خيولهم فقد خيبت أملي كثيرا ، فانني لم أر الا فى النادر جوادا ذا منظر أصيل بين جميعها • ولا شك ان أحسنها كان قد ركبها أناس اصطحبهم الشيخ معه حينما ذهب فى خدمة الباشا ، لكنني كنت أتوقع ان أرى مزيدا من الخيول التى تستحق ان ينظر اليها •

فلم تكن هزيلة وصغيرة فحسب ، بل كانت قبيحة الشكل وتنقصها جميع الصفات المهمة التي يتميز بها الجواد العربى • والحقيقة أن قبيلة زبيد لم تكن على ما يبدو مشتهرة بالخيول الاصيلة • واذا سألتهم عن سبب ذلك يردون عليك بقولهم « اننا اذا أردنا ان نحصل على الاصائل من الخيول نذهب الى عنزة فننهب منها ما نريد » • وقد فعلوا هذا فى الحقيقة ذات يوم ، لكنه كاد يكلفهم وجودهم كقبيلة محترمة بين القبائل •

فقد أرادوا فى يوم من الايام على ما يبدو أن يحصلوا على عطف مير آخور الباشا ، أو رئيس الخيلية التابع للباشا ، بأن يقدموا له هدية محترمة • لكنهم وقد كانوا لا يملكون أنفسهم الجياد الاصيلة اللائقة ، عمدوا الى سرقة دزينة من أحسن خيول عنزة التى كانوا على وفاق تام معها فى ذلك الوقت • على ان هؤلاء سرعان ما اكتشفوا السرقة ، ولم يفتهم ان يعينوا السراق أنفسهم • فبعثوا الى زبيد يحملونها وزر الجريمة، وهم يقولون « لقد كنا اخوانا لكم وهكذا نرغب ان نكون • وقد سرقت خيولنا وانتم سراقها ـ نحن نعلم ذلك ولا يجديكم الانكار شيئا ، بل ارجعوها لتكونوا اخوانا لنا كما كنتم من قبل ، والا فنحن اعداء لكم منذ الآن » • فحلفت زبيد بكل ما هو مقدس بأنهم واهمون فيما ذهبوا اليه ـ وانها لا تعلم شيئا عن الموضوع ، ودعت عنزة ان تأتي فتفتش عن خيولها عندهم • ولا شك ان العرب لا يجاريهم أحد فى اخفاء الخيل المسروقة ،

وقد نجحوا نجاحا غير يسير في هذا الحادث بحيث لم تستطيع عنزة تمييز خيولهـا من بين الخيول الاخـرى • لـكن رجال عنزة ظلوا غير مقتنعين بالنتيجة ، وقالوا « ان هـذا لا يدل على شـيء في الحقيقة ، انتم السراق وليس غيركم • ولما كنتم قـد اخترتم ان تؤذونا وتهينونا ولا تلتفتون الى زعلنا ، فليكن الامر كذلك ، ونحن اعداؤكم » •

وقد برت عنزة بوعدها هذا • ولما كانت على جانب أكبر من القوة والمنعة بين القبائل فقـد دبرت في الحـال ان تضايق زبيدا وتؤذيها حتى اضجرتها ونغصت عليها عيشها ، فقررت ان تحسم المشكل مع عنزة بقدر الامكان • ولذلك بعثت زبيد الى المير آخور ترجوه أن يعيد لها الخيول بأي شرط كان • فتم لهـا ما أرادت واعيدت الى عنزة خيولهـا المسروقة مع اعتراف متواضع بالخطا ، ورجاء باعادة الصداقة الى ما كانت عليه من قبل بين العشيرتين • فأبت عنزة ذلك قائلة « كلا ، لقد أثبتم انفسكم بأنكم أناس لا عقيدة لهم ـ أيهـا الاوغاد والمسـاكين الذين يعدمن الخـزى والعـار الاتصال بهم • لقد وجدتم من المناسب ان تعيدوا ما نهبتموه ، لكنكم هيهات ان تستعيدوا تقديرنا لكم ـ سنبقى على عدائنا لكم •» والحق ان هذا النزاع مع عنزة قد عجل بالقضاء على مكانة زبيد بين العشائر •

ومن مخيم زبيد العاري ذهبنا الى معسكر الهايته[1] الكائن على بعد غير يسير منه ، فكان هذا منظر طريف آخر • فقد كان ممتلئا بالمنهوبات

(١) يقول المرحوم الاب انستاس الكرملي في بعض تعليقاته على كتاب نشره في ١٩٣٦ بعنوان (شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة المرحوم داود باشا والي بغداد) « •• والمشهور على الالسن الهايتة باسكان الياء •• وهم بمنزلة الضبطية في المئة التاسعة عشرة للميلاد • وكانوا من العساكر الفرسان يخرجون لتحصيل الضرائب او (الويركو) من سكان القرى ، وكانوا من قساة القلوب يستخرجون الاموال بعنف وشدة فوق المطلوب من الاهالي وكان لا يردعهم رادع • ولهذا جاء في الكلام « صارت الدنيا هايتة » أي أصبحت الناس بلا رادع يردعها • وانقرضت الهايتة في بغداد في أيام مدحت باشا • ويقـال ان الهايتـة ترقيق الهايطة التركية ومعناها الخارج على الحكومة وقاطع الطريق •• واذا قال قائل ان الهايتة تصحيف العربية (الهيئة) بمعنى الجماعة المختلطة من الناس المؤلفة من عناصر شتى فلا يكون من المخطئين • ويقال في الهيئة الهيشمة أيضا بشين مثلثة بعد الياء المثناة التحتية • »

التى كان ناهبوها يرزمونها ويؤمنون عليها بقدر ما يمكن • اذ كانت كل خيمة ممتلئة بكميات من الحاجات والاشياء غير المتجانسة ، فالاسرة المصنوعة من جريد النخل والافرشة والقدور وأواني الطبخ والطسوت والاباريق ، وألبسة النساء والرجال وغيرذلك ، كانت كلها مكدسة في كل زاوية ومكان ومجموعة بأكوام في أماكن استراحة الرجال بينما كانت قطع الاشياء المكسورة تغطى الارض • وكذلك كان عدد كبير من الحيوانات المسروقة يتمرغ في اكداس التبن المنهوب ، الذى كانت تصف الى جانبه أكياس كبيرة من الحبوب • فلم تطعم تلك الحيوانات بمثل ما أخذت تطعم به الآن • وقد كان أحد الهايتة يسوق عددا من حمير الحمل الجرذ ، التى كانت على ما يبدو غير مرتاحة مطلقا لتبدل الاصحاب • وكان آخر قد استحوذ على بغلين كبيرين ، وكان عدد آخر غيرهما يسحبون خيولا يركض وراءها اصحابها المساكين وهم يستعطفون سراقها باعادتها اليهم ولكن من دون جدوى ، غير انهم كانوا محظوظين لان الرد على توسلاتهم لم يكن مصحوبا بضربهم باليطقان •

ولم نلاحظ في هذا المعسكر شيئا يدل على الضبط او النظام العسكرى الا في النادر • فقد كان كل فرد منصرفا الى شؤونه الخاصة ، وكان الضباط على ما يبدو لا يمارسون أدنى سلطة على جنودهم • فالحقيقة ان نصفهم كانوا لا يزالون خارج المعسكر يفتشون عن المزيد من النهب ، أو يقومون ببيع ما كانوا قد حصلوا عليه من قبل • وقد كان بوسع أى جماعة قوية فعالة من الاعراب ان تفاجىء هذا المعسكر فتقضى عليه كله ، اذ لم يكن هناك ولا حارس واحد لا هنا ولا في باب المدينة نفسها • وحتى في معسكر قوات « النظام » ، الذى كان يجري تشييده ، كان هناك شيء مماثل من عدم وجود أى نوع من الحراسة والتيقظ •

وفي خيمة قائد الهايتة تناولنا القهوة ودخنت الشطوب • وقد كان على ما يروي هو نفسه بطل المعركة كلها ، لكن الحقيقة ان كل من تحدثنا

اليه كان هو البطل الضرغام أيضـا • والظاهر ان صديقنا هـذا لم يستسغ الثناء الذى أثنينا به على قوات « النظام » ، ولـم يكن يعترف حتى بالبسالة التي أبداها اصدقاؤه هو في الهجوم عـلى طول الجسر • فقـد أكد لنا ان رجال « الدستة » التابعة له هـم الذين اضطلعوا بالعمل جميعـه ، ولذلك أضاع منهم ستة عشر او ثمانية عشر رجلا خلال المعركة • على انه اعترف، كما اعترف كل فرد آخر ، بان الاحوال كانت ستسوء جدا لولا النجدة من الرجال والذخيرة التي عبّرها زورق المقيمية الى الجانب الثاني ووصولها في الوقت المناسب • وقيل لنا ان ما يقرب من مئتي شخص قد قتلوا وجرحوا من الطرفين، ولما كان هذا الرقم يتفق مع الروايات التي سمعناها من مختلف المصادر فانه قد يكون قريبا من الحقيقة والواقع •

١١ كانون الاول

لقد تأيدت هذا اليوم الاخبار التي تناهت الينامن قبـل حـول انقسام عنزة على نفسها وفي جنـاح الجزيرة • ويـقال بصورة جازمة أنهم قد رحلوا من هنا ، وبعد أيام قلائل يؤمل أن تفتح الطرق المحيطة بالعاصمة وتخلو من قطاع الطرق والسلابين • وقد رتب الباشا أموره مع قبيلة عقيل بتنصيب سليمان غنام ، الرجل المغامر الذى أشير الى تنصيبه في المشيخة من قبل ، لقيادة القوافل وحراستها • بينما منح شيخ عقيل الاصلي الرخصة اللازمة بالاقامة هنا بشرط ان يوافق على المعيشة كشخص اعتيادى لا غير • وهذا ترتيب يتفق تمام الاتفاق مع التدابير التي يتخذها الباشا عادة • لان سليمان غنام هذا لما كان سليلا غير شرعي لرجل من عرب شمر[1] وأم عبدة

---

(١) يقول المؤرخ سليمان فائق بك في (تاريخ بغداد) ان عشيرة عقيل التي كانت تنزل في جانب الكرخ في هذه الفترة تنقسم الى فريقين هما فريق القصيمات أو العقيـل الاصليين ، والشمامرة واصلهم من شمر الجربا • وقد اعتاد الولاة في تلك الايام أن يعينوا لكل فريق من هذين الفريقين شيخا خاصا ، فكان ذلك من جملة الاسباب التي أدت الى دوام الخلاف بينهما • وكثيرا ما كان سليمان غنام (الملقب بالعقيلي) يعين لرآسة الشمامرة الذين كانوا ميالين الى القتال والنزاع بصورة خاصة • ولذلك لعب دورا فعالا في حصار بغداد واقتحامها من قبل علي رضا باشا ، واسقاط داود باشا على أثر ذلك • فقد كـان

زنجية فليس هنالك عربي حقيقي يود من كل قلبه ان يرضخ لطاعته او ينضم اليه • أضف الى ذلك انه ، كما قلت من قبل ، كان قد أخفق في مناسبة سابقة حينما أعطيت له نفس الصلاحية والمنصب • وقد كان هؤلاء العقيل أنفسهم هم الذين طردوه حينما كانت بعهدته قافلة كبيرة مهمة على مقربة من بغداد نفسها • لكن هذا كله قد لفه النسيان ، وصرف النظر عن العواقب ـ فاللحظة الحالية وحدها هي التي تلاحظ وتؤخذ بنظر الاعتبار •

لقد قرر المستر فنلي ، الذي كان نزيلنا المؤنس ورفيقي في جميع جولاتي وركوبي ، ان ينفذ فكرة القيام برحلته عن طريق النهر بعد ان مل الانتظار الى حين افتتاح الطريق • وبعد ان أجرى التحضيرات اللازمة استقل مركبا كان متوجها الى البصرة • لكن المستهل الاول للرحلة كان شيئا غير مشجع ، لان المركب لم يقطع خمسة أميال حتى أوقف بحجة وجود خيول فيه لم تدفع عنها الرسوم الحكومية المطلوبة • وقد حصل بهذه المناسبة منظر تختص به هذه الجهات ، حيث تبين ان الرسوم المطلوبة كانت قد دفعت ولكن ليس الى الشخص المختص نظرا لحصول بعض التغييرات والتبدلات الرسمية • وعلى هذا حضر اثنان من الهاتية يمثلان الموظف المختص ، ومن دون سؤال أو رحمة انهالا على بحارة المركب والركاب بالضرب والاهانة وأمراهم باخراج جميع الخيول الموجودة فوق ظهر المركب • فتدخل الدكتور روص ، الذي كان قد رافق المستر فنلي لمسافة في المركب ، في قضية جواد المستر فنلي نفسه وأرجع ذينك الرجلين الى صوابهما • وعلى أثر اشعار أرسل الى المقيم أوفد رسول في الحال الى محل الحادث ، وبكل برودة وهدوء صرف الرجلين الخبيثين من دون أي سؤال آخر • ولولا ان تهيىء الصدفة وجود رجل انكليزي في المركب لنهب المركب

وفريق الشمامرة مع علي باشا بينما انحاز القصيمات من العقيل الى داود باشا وتطوعوا لاخراجه من بغداد وتهريبه الى المنتفك في أثناء الحصار ، غير انه أبى ذلك واستسلم للقدر •

على وجه التأكيد ، وأضاع أصحاب الخيل ما يسلكون ، أو أجبروا على دفع مبالغ غير يسيرة لاستعادتها • هذه هي شرطة بغداد ، وهذا عدلها !!

١٧ كانون الاول

وصلت من انكلترة هـذا اليوم رزم ورسائل وأخبار الى حـد اليوم التاسع عشر من تشرين[1] الاول ــ ولكن لم يكن فيها شيء لي بطبيعة الحال، فمن هو الذى يستطيع ان يمسك قطرة زئبق مثـلي ويعرف عنوانـه ؟ فأنا اليوم هنا وغدا في مكان آخر ، ومضطر الى التأخـر الآن لسوء الحظ • ومع ذلك لم استطع ان أكبح التأثر الذى شـعرت بـه ، والحسـد الذى ساورني ، لاني وجدت الآخرين يقرأون رسائل من اصدقائهم بينما حرمت أنا منها • على أنني تصفحت بِشَرَه قوائم الوفيات فحمدت الله على عدم وجود شخص أعرفه فيها •

لقد عاد المستر فلي أدراجه لان المركب لم يستطع السير نظرا لهبوط مستوى الماء في النهر ، الذى يتذبذب منسوبه على الدوام في مثل هـذا الوقت من السنة تبعا للامطار التي تهطل في الجبال • وهو قد يرافقني أنا والدكتور روص في سفرتنـا التي نعتزم ان نزور فيهـا سوق الشـيوخ وواسط •

وفي هذا اليوم زرنا شيخ زبيد ، الذى كنت آمل ان أحصل منه على دليل للقافلة يأخذنا في مستهل رحلتنا على الاقل الى المناطق العربية • فقد تأكد تنحي عنزة وانسحابهم الى بعـدٍ كافٍ لا يجعل منهم مصدر خطر عاجل على الاقل ولمـا كانت هناك قافلة تستعد للتوجه الى الحلة ، فقد كنا نأمل ان نتحرك الى الجزيرة بسلامٍ وأمان • وقـد وجدنا الشيخ في بيت

---

(١) اي ان البريد كان يستغرق في الطريق بين لندن وبغداد على ما يظهر حوالي شهرين من الوقت في ذلك الزمن • لكن الرحالة الفرنسي دوبريه ، الذي كان في بغداد في بداية القرن التاسع عشر ، يذكر ان الرسائل كانت تصل من انكلترة عن طريق بيروت والشام وهيت في مدة تتراوح بين الخمسة والاربعين والخمسين يوما •

محمد أغا حاكم الحلة ، فكان رجلا وسيم الطلعة خفيف الروح ، أشد سمنة من المظهر الذى كان يظهر به العرب ، وأكثر انهماكا بالمعيشة الطيبة مما يكونون عليه في العادة . والحقيقة ان السبب الوحيد الذى كان يحول دون التقائنا بهذا الشيخ من قبل هو عدم تمكنه من مواجهتنا نظرا لانهماكه بالفسق والمشروب . فهو في كل ليلة ضيف على أحد الناس في بغداد ، وهناك يعب من الخمرة ما يشاء حتى يصل الى أقصى درجات السكر ، ولذلك كان يندر أن يرفع رأسه ويرى الناس قبل عصر اليوم التالى .

ولم تصبح رذيلة السكر شيئا اعتياديا في بغداد فقط بل أصبحت شيئا عاما تقريبا . فقد كانت على أيام داود باشا شيئا مخفيا يتكتم به الناس على الاقل ، غير ان الباشا الآن يقود طبقة السكارى بنفسه ، ويرى عادة وهو لا يكاد يقدر على السير حينما يعود مساء من حفلاته الداعرة في البساتين . ويبدو ان شيخ زبيد قد تعود على هذا النوع من العيش ، ولم يكن حديثه معي على ما تدل عليه الترجمة بيننا رقيقا حتى ولا محتشما على وجه التأكيد ، على انه وعدنا بالمساعدة والامان التام في داخل ديرته هو ، وبالأدلاء والخراس اذا ما احتجنا اليهم في المناطق الاخرى .

وقد ركبنا في المساء الى الكاظمية ، وهي قرية تقع على بعد ثلاثة أميال تقريبا من شمالي بغداد ، حيث يوجد ضريح الامام موسى الكاظم امام الشيعة الذى قطع هارون الرشيد رأسه على ما اعتقد . وكان قد حبس في جب لا يزال يرى الى يومنا هذا ، وهرب منه بمعجزة على ما يقال . ويزعم آخرون ان رأسه قد قطع بأمر من الخليفة ومع هذا يمكن ان يرى في بعض الاحيان حتى في هذه الايام جالسا في مكانه القديم في الجب[1] .

---

(١) لا شك ان هذه الاقاويل لا أساس لها من الصحة مطلقا . فالمعروف ان الامام موسى الكاظم عليه السلام قد توفي يوم الجمعة لخمس بقين من رجب ١٨٣هـ ، وكان عمره يوم وفاته أربعا وخمسين سنة أو خمسا وخمسين . وقد توفي مسموما بايعاز من الخليفة العباسي هارون الرشيد في حبس السندي بن شاهك ، ولم يقطع رأسه الشريف . وقد جاء في (حياة الامام موسى بن جعفر) لمؤلفه السيد باقر شريف القريشي « .. ان يحيى بن

والظاهر ان هـذا المزار واسع جـدا ، وله قبتان مطليتان بالذهب واربـع منارات رشيقة • وقـد طليت القبتان بالذهب من قبل نادر[1] شـاه ، الذى يبدو انه قد التجأ الى هذا الاسلوب فى تزيين قبور الائمة والاولياء تكفيرا عن شناعاته الاخرى • وهذا مزار عظيم يقصده الزوار الايرانيون بكثرة ـ أي ان جميع الذين يزورون كربلاء لا بد ان يأتوا لزيارة هذا المكان أيضاء وهو مثل سائر الاماكن الشبيهة به يزدهر بما ينفقه هؤلاء الزوار فيـه ، ويمتلىء بالمتشردين والمنبوذين الذين يلوذون بحمايته • ولم احاول الدخول فيه لاني قد رأيت الكفاية من هذه الاشياء ، وأريد ان أتحاشى اللغط الذى يثار حينما يحاول الغرباء زيارته أيضا •

١٩ كانون الاول

علمنا فى هذا اليوم ان محمود شاه قد زحف بالتأكيد من تبريز على طهران باثني عشر ألف سرباز وعشرين ألف جندى غير نظامى ـ هذه مبالغة بالارقام دون شك • وحينما علم أمير فارس بهذا الزحف هرب من أصفهان الى بلاده ، لـكننا لم نسمع شيئا حتى الآن عن الادوار التى لعبهـا الانكليز[2] والروس فى هذا النزاع ـ ومع هذا كم فى كل هذا من طرافة بالنسبة لنا !

خالد دس الى الامام سما في رطب وعنب فقتله ، ومما يؤيد ذلك ما رواه عبدالله بن طاووس، قال : سألت الامام الرضا (ع) قلت له : هل ان يحيى بن خالد سم أباك موسى بن جعفر ؟ فقال الامام نعم سمه في ثلاثين رطبة مسمومة • وذكر أبو الفرج الاصفهاني في (مقاتل الطالبين) ان الرشيد لما غضب على الفضل بن يحيى لترفيهه على الامام حينما كان في سجنه وامر بجلده خرج يحيى من عند الرشيد وقد ماج الناس واضطرب أمرهم فجاء الى بغداد ودعا السندي بن شاهك وامره بقتل الامام • فاستدعى السندي الفراشين وكانوا من النصارى فامرهم بلف الامام في بساط فلف وهو حي ، فجلس عليه الفراشون حتى توفي • ، لكن رواية السم أصح على ما يعتقد •

(١) الثابت هو أن الشاه اسماعيل الصفوي هو الذي أحاط القبة بالذهب وليس نادر شاه ، الا أن الاخير ربما كان قد أسهم في اجراء تزيينات اخرى في روضة الامامـين الكاظمين (ع) •

(٢) ذكرنا في حاشية سابقة (تعليقا على رسالة ٣٠ كانون الاول من هذه الرسائل) ، نقلا عن تاريخ ايران للسر بيرسي سايكس ، ان الزحف قد تم بتدخل من الانكليز ومساعدتهم، وبمساعدة الروس أيضا ، حتى ان الجيش الزاحف على طهران كان يقوده قائد انكليزي هو السر هنري لندزي بيثون •

١١

قبائل العرب في ما بين النهرين ـ أخلاق الاعراب وأذواقهم ـ ضغائن الدم والاخذ بالثأر ـ قصتان من قصص الثأر عند العرب .

٢٢ كانون الاول ١٨٣٤

وأخيرا ، فقد أكملنا استعداداتنا للرحلة التي نعتزم القيام بها الى الجزيرة ، او مابين النهرين السفلى . ونظراً لانك سوف تصاحبينا الآن خلال تجوالنا في أرض تقطنها عشائر عربيـة بالكلية ، فقد يسرك ان تكوني على مزيد من الاطلاع على طبيعة هؤلاء الناس وأخلاقهم قبل ان أقدمهم لك .

فأنت تعلمين على ما اعتقد ان بلاد ما بين النهرين ، أي البلاد الكائنة ما بين دجلة والفرات ، تشغلها الآن عشائر عربية على كونها لا تعتبر جزءاً من جزيرة العرب . ولا شك ان خصب هذه البلاد هو الذى أغرى هذه العشائر بأن لا تكتسح القسم الاعظم منها فقط بل بالاستيلاء أيضا على معظم الاراضى المنخفضة التى تقع في الجانب الايسر من دجلة وتمتد من سواحل الخليج حتى الموصل . وهكذا فان القسم الشمالى من بلاد ما بين النهرين ، أو الجزيرة كما يسميها العرب ، الممتد من نهر الخابور الى ما يقرب من بغداد تقطنه الآن عشيرة الجربا التي أتينا على ذكرها مرات عدة من قبل . وتنتشر عشيرة الدليم في الاماكن التي تجاور المدينة مباشرة . اما البلاد التي تمتد من هـذه المنطقة الى شـط الحي ، الذى يخترق الجزيرة ويوصل ما بين النهرين العظيمين ، فتسلكها عدة قبائل تختلف فيما بينها من حيث القـوة والاعتبار ، وأبرزها وأكثرها انتشارا قبيلة زبيد . وعلى الشاكلة نفسها ، تشغل البلاد الممتدة من هذا الشط الى القرنة ، حيث يلتقي النهران ، عشائر عديدة أهمها ربيعة ، من أقارب المنتفك . والحقيقة ان جميع القبائل الاخرى هي من متعلقات العشيرتين القويتين الاخيرتين .

وفي الجانب الايمن من الفرات تقوم عشـيرة عنزة ، وهي العشـيرة العظيمة التي أصبحت تعرفين الشيء الكثير عنها بلا شـك ، بحكم البلاد وحماية عـدد من القبائل الصغيرة التي تنتشر على طول النهر من الـبير الى الى عانه ، او تقوم باضطهادها تبعا لمـا تقتضيه الاحوال والظروف • وفيما بين الحلة والسماوة تستولي على منطقة الاهوار المتكونة من فيضان الفرات ، وفي ضمنهـا ما تسمى بأهوار لملوم ، عشيرة الخزاعل الـكبيرة التي تستمد قوتهـا من طبيعـة البلاد التي تقطنهـا • وهؤلاء اناس يمتهنون الزراعـة والرعي ، ويعيشون لدرجة كبيرة على ما تنتجه قطعان الجاموس التي تربى على أدغال الاهوار الكثة ، فضلا عن كونهم متوحشين خاسين وقطاع طرق غادرين • ومـن السماوة الى البحر تعود البلاد كلهـا من دون منازع الى عشيرة المنتفك[1] العظيمة التي تمتد احيانا الى هيت وعانة في الشمال متاخمة عنزة ، وتحمي عددا من القبائل الصغيرة التي تعتمد عليها • وجميع هـذه العشائر ، عدا عنزة ، من رعايا باشوية بغداد بالاسم على الاقل •

وفي الجانب الايسر من دجلة ، الى شمال بغداد ، تستولي على البلاد عدة قبائل صغيرة عربية وكردية ، كل أفرادها لصوص ينهبون المسافرين ويقترفون كل نوع من أنواع السلب والاغارة • وفي جنوب بغداد ، توجد قبيلة بني لام القوية التي تصل في تجوالها من أقسام سوسيانا الجنوبيـة الى الكرخة[2] • وقد استولى عرب بني كعب[3] على جميع المنطقة الكائنة ما وراء نهر الكرخة الى البحر • ولا شك ان نظرةً تلقيها عـلى الخارطة تجعلك قادرةً على فهم مواقع هذه القبائل المختلفة •

---

(١) ليست المنتفك عشيرة واحدة وانما هي جمهرة عشائرية تنتمي اليها عدة قبائل كبيرة اهمها الاجود وبنو مالك والغزي •

(٢) وهي منطقة عربستان (خوزستان) التابعة لايران في الوقت الحاضر ، والكرخة هو النهر المعروف هناك الذي يصب في نهر كارون •

(٣) يتبع القسم الاعظم من هذه العشيرة الآن الى ايران ، وقد كانت من رعايا امارة عربستان العربية التي كان يرأسها المرحوم الشيخ خزعل •

وجميع أفراد هذه القبائل الصغيرة ، وهي تتحدر من نفس الارومة التي يتحدر منها أخوانهم في الجزيرة العربية ، أو أي مكان آخر يوجدون فيه ، يشبهون هؤلاء في جميع النواحي الاخلاقية الاساسية • فهم جميعهم يدعون بفضيلة السخاء ، واكرام الضيف ، والعدالة ، وطهارة الذمة ، والوفاء بالعهد ، وبالصفات الحميدة المعروفة كالشجاعة والاستقلال وتعشق الحرية • وهم اذ يعترفون بكونهم قطاع طرق ولصوصا لا يجدون ضيرا في الاستيلاء على ممتلكات الغرباء الذين ربما يكونون غير متفقين معهم على ضمان سلامتهم وأموالهم • والحقيقة انهم يقفون ضد أي فرد من الافراد حتى تطلب مساعدتهم أو يشترى تسامحهم أو رفقهم • وهم يحبون التجوال والحياة الرعوية التي يتنقلون فيها من مكان الى آخر ضمن حدود معينة انتجاعا للكلأ الذي تحتاجه قطعانهم وحيواناتهم • على أنهم في الايام الاخيرة أخذوا يجدون صعوبة في الحصول على الكفاية من الحبوب بطريقة المقايضة ، ولذلك صار قسم من كل قبيلة ينصرف الى الزراعة وحراثة قسم من اراضي العشيرة لمنفعة الباقين • على ان هؤلاء الفلاحين أو العرب المزارعين يعتبرون منحطين في نظر أخوانهم البدو المتجولين الذين يستخفون بمثل هذه الاعمال الحقيرة ، ويعتبرونها مهينة لعنصرهم الحر النبيل •

ومهما كان مقدار الفضائل التي كان من الممكن ان يتصف بها العرب الاقدمون فان قليلا منها فقط قد تحدر الى ذريتهم الموجودة هذه الايام ، في الجهات التي تمكن الاوربيون أن يصلوا اليها على الاقل • فكما ان المعلومات المكتسبة بالاثم والجور قد فتحت عيون أسلافنا الاولين الى عريهم وحرمانهم ، كذلك أيقظ الشعور بالفقر النسبي في مخيلة الاعرابي الاشتهاء للثروة والغنى — وهو شعور يهدم تعاطي الضيافة أو الكرم تهديما مباشرا ، لأن أسهل طريقة تمكنه من الحصول عليها ، أو الطريقة الوحيدة في الحقيقة بالنسبة لرجل في مثل عاداته وأحواله هي طريقة القوة والاغتصاب ، أي أخذ الممتلكات التي تعود للغير • ولذلك يصبح وجود

هذه الفضائل شيئا نادرا نسبيا • ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الصدق وطهارة الذمة • فان الرجل الذي لا يهمه نوع الوسيلة التي يحصل بهـا على الغنى لا يعبأ الا قليلا بالوعود والمواثيق • وعلى هذا ليس هنـاك أكثر شيوعا بين الاعراب من الخيانة ونكث العهود • وبذلك تصبح رابطة « الخبز والملح » المقدسة شكلا أجوف يمكن تحاشيه بسهولة • فالعهد الذى يعطيه شيخ من الشيوخ يضرب عرض الحائط حينما يتفق ذلك مع مصلحته هو ، فى شخص أخيه أو عمه الذى يعلن استقلاله عن الغير وحقـه فى السلب والنهب • حتى اننا كثيرا ما نسمع ان المضيف منهم يقوم بواجب الضيافة تجـاه المسافرين باعتبارهم من ضيوفه ، ويوصلهم سالمين الى نقطـة متفق عليها ، ثم يتصدى لهم بنفسه فيسلبهم ويجردهم من كل ما يملكون[1] •

والشجاعة ، مثـل كثـير من الصفات الاخرى ، هي بنت الظروف والاحوال الآنية ولا تنمو وتترعرع الا تبعـا لمـا تقتضيه تلك الظروف بالذات • فان المقاومة العنيدة التى أبدتهـا قبيلة بنى بو علي تجاه القـوة

---

(١) يلاحظ القارىء ان لهجة صاحب الرحلة هذه فيها تحامل غير قليل على العرب وخاصة في هذه الرسالة التي يعني بها أعراب البادية • فهو يتسرع في أحكامه ويصمهم بالخيانة ونكث العهود والجبن . وبالسلب والنهب والوحشية وغير ذلك • ان هذا ناتج عن الصعوبات والمشاق التى كان يلاقيها هو وأمثاله السياح في ذلك الوقت أثناء تنقلهم من دون روية أحيانا . وخاصة من اللصوص وقطاع الطرق الذين كان من الممكن أن يصادفهـم المسافر فى طريقه فى أنحاء كثيرة من العالم ، وحتى في أوربا يومذاك • والذي يؤاخذ عليه في هذا الشأن انه يصدر أحكاما عامة مغلوطة من دون أن يستند فيها الا على حوادث فردية وظروف خاصة لا يمكن ان يقاس بموجبها سلوك قوم أو أمة بأجمعها •• يضاف الى ذلك انه يبنى أحكامه هذه على قصص يسمعها من بعض الناس أو تروى له من أناس مغرضين لا يمكن الاخذ بكلامهم • فانه مثلا يحكم على جبن العرب حينما تفر شرذمة من العشائر غير مسلحة الا بالاسلحة البدائية أمام السلاح الحديث الذي تقابلهم به قوة نظامية يستصحبها معه المقيم البريطاني في زورقه الذي كان يسافر فيه عن طريق دجلة • ويحكم عليهم بالبخل حينما يتصدى له قطاع الطرق في البادية لاخذ الخاوة التي كانت تعتبر شيئا متعارفا تعترف به حتى الحكومات في تلك الايام • وبوسعنا أن نبرهن له على وفاء العرب وكرمهم وشجاعتهم وعزة نفسهم واكرامهم للضيف بمئات القصص التى ربما كان قد تجاهلها حينما كتب بعض الجمل التي أوردها في هذه الرحلة • ولذلك ننبه القارىء اللبيب الى ذلك ولا نخال ان شيئا من هذا القبيل يمكن أن ينطلي عليه ••

البريطانية في رأس الخيمة ، والشجاعة الفائقة التي أظهرها العرب من الجنود المرتزقة في الهند في مناسبات كثيرة ، ووقفات الوهابيين الجريئة (على اقترانها بالفظاعات احيانا) يمكن ان تتخذ كلها ، مع كثير مما يمكن أن يستشهد به من غير هذا ، أدلة واضحة على شجاعة العرب وبسالتهم .
ومع ذلك فان الحال تنعكس في البلاد التي أتكلم عنهـا بحيث يصبح خلق الاعرابي الجبان ، على عتوه ، شيئا معروفا . وهناك عدة حوادث يمكن ان تروى من هذا القبيل . فقد حدث في مناسبة معينة ، حينما كان الكولونيل تايلور مسافرا بالزورق من البصرة الى بغداد ، ان جماعة من العرب في أحدى القرى القائمة على ضفاف دجلة أزعجها تصرف أحد الرجال الذين كانوا يعملون في الزورق نفسه فأجتمعوا بأعداد كبيرة وأخـذوا يقومون بحركات عدائية من دون أن يكون من الممكن تفريقهم بمختلف الوسائل ، ولذلك ارتؤى من الضروري ان تطلق بعض الاطلاقات فوق رؤوسهم ، وأن يصليهم الحرس السپاهيون من فوق الزورق بصلية واحدة في الهواء . فكان لذلك تأثير آني فعـال ، اذ وقع قسم من الرجال على الارض ولاذ الآخرون بالفرار . اما نساء القرية ، أو المخيم ، فقد قوضن الخيـام في الحال وتراجعن الى هور صغير بالقرب من الموقع . وحينما استمر وقـوع الحركات العدوانية ، وعاد الناس الى التجمع بعد أن ازداد عددهم ، أنزل الى البر فريق من الحرس السپاهي . فارتاع الاعراب لهـذه التحضيرات المتخذة لمقاومتهم ، برغم تفوقهم الكبير في العـدد ، وأخـذوا يلوحون باستعدادهم للمفاوضة . وعلى هـذا الاساس جـرت بعض التفسيرات والتوضيحات فأعيد الصفاء الى نصابه . وقد اعترفوا بعد ذلك بأنهم كانوا يتصورون بأن زورق المقيم هو من الزوارق الاهلية التي كانوا معتادين على بلصها والتحرش بها . وقد حدث الشيء نفسه حينما هاجم بعض الاعراب في النهر صديقا لنا كان مسافرا الى الجنوب ، وطلبوا منه أن يدفع لهـم رسوما اعتباطية ، لكن اطلاق النار فوق رؤوسهم وابداء الحزم والقسوة

تجاههم كانا كافيين لدفع الشر عنه •

ولا غرو ، فان أبداء شيء من الحزم لابد أن يرجع أعـــراب ما بين النهرين الى صوابهم في جميع الحالات تقريبا • لكن هذا الحزم يجب أن يصدر عن حكمة وتعقل ، والا فأنه قد يؤدي الى ما لا تحمد عقباه • فاذا ما سفك أي مقدار من الدم ، وكان الخصم متفوقا في العدد ، لابد ان تكون العواقب وخيمة والنتيجة مهلكة • واذا لم تحصل مقاومة في مثل هـــذه الحالات فيندر أن يعمد الاعراب الى القتل • وقد دال على ذلك ما وقـــع لثلاثة من الانكليز قبل سنوات قليـــلة ، حينمـــا كانوا مسافرين في قافلة خرجت من بغداد الى استانبول • ففي موقع بالقـــرب من ماردين أحيطت القافلة بفريق من الاعراب المسلحين الذين طالبوا القافلة بمبلغ من المـــال بصفة رسم كمركي • وقـــد كان من الممكن ان يسوى المشكل تسوية سريعة بدفع قسم من المبلغ المطلوب ، غير أن أخواننا الثلاثة ، الذين كانوا يبعدون عن القافلة بمسافة قصيرة حينما وقع الهجوم ، استهجنوا فـــكرة الرضوخ للاعراب وسلبهم من قبلهم فتراجعوا الى مرتفـــع من الارض ، وسرعان ما أحاطت بهم هناك ثلة من الاعراب المدججين بالسلاح الكامل • فأعقبت ذلك تهديدات وحركات انفعالية كثيرة ، وفي خلال احتدام الغضب من الطرفين ، وبقدر مؤسف انطلقت اطلاقة من مسدس أحدهم فأصابت ابن الشيخ أو قريبه • وكانت نتيجة ذلك ان شن هجوم عاجل عليهم فقطع المسافرون المنكودو الحظ اربا اربا في لحظة واحدة •

وقد سبق ان عرفت من روايات سابقة ان هذه المعارك لا يكاد يسفك فيها دم — فكثيرا ما يتم الظفر ويحصل النصر من دون خسران ولا رجـــل واحد • لكنه يجب أن يلاحظ انـــه ، بالاضافة الى أحجام الشخص من التعرض الى المخاطر ، هناك تقدير عام لعواقب سفك الدم وأخذ الثـــار الذي يعتبر كابحا قويا ضد أي نزوع طائش الى العنف • على أن المعركة

التى جرت مع عقيل لم تطبق فيها هذه القاعدة ، ومع ذلك فقد رأيت ضآلة الخسارة التى حلت بأولئك الاعراب فى هذه المناسبة ، وقلة تعريض أنفسهم للخطر .

وحوادث الثأر للدم هـذه ، على ما تنطـوى عليـه من الفظاعات والشناعات ، لا تختلف الا قليلا فى طبيعتها عما هو موجود منها لدى الامم الاخرى ، بما فيهم حتى سكان بلادنا نحن فى الازمنة القديمـة . ومن الممكن ان نكتب مجلدات فى تفصيلات هذا الموضوع ، لكننى أستطيع ان أقول أنك ستقتنعين بحادثة واحدة أو اثنتين ، على سبيل تقديم النماذج ، وهناك حادثة واحدة أرانى مدفوعا الى سردها لأنها حدثت بمعرفة رجـل من أهالى بلادنا شهد بأم رأسه دورا من أدوارها .

فقد كان فرع من فروع بنى لام على خصام مع قبيلة أخـرى من العرب ، لا أتذكر اسمها ، وفى خلال هذه الخصومة سفك كثير من الدم بين الطرفين لأشباع الثأر الشخصى والانتقام لشرف الباقـين من الاقارب . فصادف فى يوم من الايـام ان رجـلا انكليزيا كان يسيح فى عربستان (خوزستان) استضيف فى خيمة شيخ القبيلة الاخيرة ، فكانت مضيفته فيها أبنة الشيخ نفسه التى كانت تقوم مقام أبيها فى هذا الشأن نظرا لعـدم وجود أحد غيرها من الاسرة فى ذلك الوقت . وحينما جن الليل لجأ كل فرد الى فراشه ، بما فيهم الضيف الغريب ، لكنه انتبـه قبيل الصبح على صوت صراخ عرف منه انه صوت مضيفته الشابة وهى تستغيث وتقول انها قتلت ! فهم الجميع الى محل الحادث ، حيث وجدوا البنت المسكينة تعـانى سكرات الموت ، لأنها كانت قد طعنت فى صدرها بثـلاث طعنات عميقـة بالخنجر . وحينما كان الجميع ينظرون الى الضحية المحتضرة ويقـدمون الاسعافات الممكنة لها سمع صوت من مكان مرتفع ، على مقربة من محـل الحادث ، ينـادى قائلا « أنا التى فعلت ذلك ، الحمد لله ، لقـد قتلتها » .

فاستدارت الانظار كلها الى ذلك الاتجاه الذى شوهدت واقفة فيه امرأة عجوز تأتى بحركات انفعالية شديدة وحينما هجم الجميع نحوها ركضت الى حيث كانت الخيام قد نصبت على حافة النهر ، وهناك ضويقت فسقطت فيه واختفت عن الانظار •

وقد تبين بعد الاستفسار والتحقيق ان الشيخ الذى فجع بابنه كان له ذات يوم أبن قتله فى معركة سابقة « پهلوان » ينتمي الى القبيلة الاخرى • فكانت هذه حادثة تستوجب كل ما تقتضيه الضغينة والثار من خلاف • وبعد مدة قصيرة دخل رجل غريب الى المخيم فقوبل بالترحيب الاعتيادى الذى تقتضيه واجبات الضيافة عند العرب • وكان من سوء الحظ أن يتعرف أحد رجال القبيلة عليه • ويكتشف انه نفس « البهلوان » الذى كان قد قتل ابن الشيخ • فما الذى كان يجب أن يصنع ؟ فقد كان الرجل ضيفا على القبيلة ، وكانت جميع قواعد الضيافة تقتضي بالنسبة لعرف العرب ان لا يمس بسوء • وكان الشيخ نفسه غائبا فى مكان آخر ، وبينما كان حسن النية والرأفة يسودان المجتمعين دخلت البنت الشابة موضوعة البحث وراحت تعنف الرجال وتعيّرهم بالجبن والتباطؤ فى ثأر شيخهم • ثم قالت « فهل تريدون أن يكون قاتل ابن شيخكم بين أيديكم فيفلت منها ؟ ان هذا يجب أن لا يقال مطلقا ، أقتلوه فى الحال أو تخلوا عن أسم الرجال ! » على ان الاحجام مع كل ذلك بقي مستحوذا على أيدى الرجال وأسلحتهم فمنعها عن التجاوز على قواعد الضيافة والضيف بمثل هذه الصراحة ، برغم الحنق الذى كان يغلي فى صدورهم • وعند ذلك أمسكت البنت ، وهى منفعلة لوجود قاتل أخيها بين ظهرانى القبيلة وتصور افلاته منها ، بسيف فى يدها وبادرت الى ضربه • فكان منظر الدم شيئا لم يستطع الرجال مقاومته ، فسلت السيوف كلها فى لحظة واحدة وأغمدت فى جسم ضيفهم منكود الحظ الذى قطع اربا اربا •

وقد عاد الشيخ فتميز غيضا وغضبا لما اقترفه الفاعلون من انتهاك فاضح لواجبات الضيافة • لكنه فوّض أمره لله بعد أن لم يكن بوسعه ان يفعل شيئا لتلافي ما وقع • فتصرمت الايام وانقضى الزمن ونسيت القبيلة حادثة القتل هذه ، كما تنسى غيرها من الحوادث • غير ان أم القتيل لم تنس ذلك مطلقا • واذ كانت عازمة على الانتقام لابنها ظلت تتعقب المخيم المعادي سنين عديدة وتتحين الفرص بصبر وأناة ، فلم تؤاتها الفرصة الا في تلك الليلة المشؤومة التي كان فيها الرجل الانكليزي ، الذي يقص القصة هذه ، ضيفا بطريق الصدفة في خيمة الشيخ ، وشهد تنفيذ انتقامها الوحشي •

اما القصة التالية من قصص الثأر العربية ، فهي على جانب أكبر من الهول والفظاعة ، وهي مستقاة من بعض يوميات الكولونيل تايلور عن القبائل العربية وتختص بفترة أبعد في القدم • فان عشيرة المنتفك ، التي أشرت الى قوتها وسطوتها من قبل ، تستمد قوتها الرئيسة في الاساس من قبيلتين رئيسيتين هما قبيلتي بني مالك والاجود • وهاتان القبيلتان ، وان كانتا متحدتين في الوقت الحاضر ، كان بينهما خصام عنيف من قبل • وقد كان سبب النزاع اختلافهما على حق المرعى في مناطق معينة ، وكان بنو مالك هم المسيطرين بينما محقت الاجود • وباستثارة بنات القبيلة وتشجيعهن ، أخذ كل رجل من رجال الاجود يسلح نفسه للمعركة ويقتحم الموت في الذب عن البقعة التي كان آباؤه يرعون فيها قطعانهم • غير ان هذا الظفر الدامي على ما كان فيه من شدة وبسالة لم يكن كافيا تجاه ما كان يساور سليمان ، رئيس بني مالك ، من تنبؤ مفعم بالحذر • فقد كان يتخوف مما قد يصيب قبيلته من اقتصاص مخيف في المستقبل ، فيما لو بقي حتى ولو شخص واحد وخاصةً من الرجال على قيد الحياة من القبيلة الخاضعة • ولذلك اتخذ ترتيبات فظيعة يعمد فيها الى قتل نساء تلك القبيلة كلهن ، وبذلك يضمن القضاء على نسلها بمثل هذه الوسيلة الشنيعة • فنفذ هذا العمل الشيطاني ، ولم يسلم من النسوة الا واحدة ألقت بنفسها على قدمي رئيس من رؤساء بني

مالك فأنقذها بعطف منه بعد أن جازف بحياته من أجلها ، لأنه جـــرح وكاد يتقطع جسمه بالسيوف دفاعا عن محميته • ومن هذه الامرأة الشابة ، التي كانت حاملا في يوم المجزرة ، ولد عبدالله الذي أصبح فيما بعد مؤسسا لقبيلة استمدت اسمها من منشأ رئيسها الخاص فسميت « قبيلة اليتامى[1] » • وقد وقعت المجزرة في واد من الوديان الجميلة التي يمكن ان توجـد بين الجبال حتى في تربة الجزيرة العربية الحجرية العقيمة ، حيث يمكن الحصول على الماء من قرب سطح التـــربة في كل مكان وتغطي الارض في الربيع وأوائل الصيف بعشب غزير يكوّن مرعىً ممتازا • وبقعة مثل هذه هي التي يود العربي الجوال ان ينصب مخيمه فيها • فهي جميلة ممرعـــة اذا ما قورنت بالبادية المحيطة بها ، وليس من العجب والحالة هذه ان يستثـار العربي ويكافح من أجل الحفاظ على حقه في التمتع بمثل هـذا الملجـــأ والملاذ • ويقع هذا الوادي على بعد خمسة عشر ميـــلا جنـوبي البصرة الحديثة ، وهو يحتفظ حتى يومنا هذا بالاسم الذي أطلق عليــه في تلك الواقعة المشؤومة ، حيث انه يسمى اليوم « وادي النسا » •

---

(١) لم نعثر على قبيلة بهذا الاسم ، لكن المعروف ان نخوة الاجود « يتيم » بالتصغير ، وربما تكون لهذه الكلمة علاقة بالقصة •



محتويات الكتاب

فهرس الأشخاص

